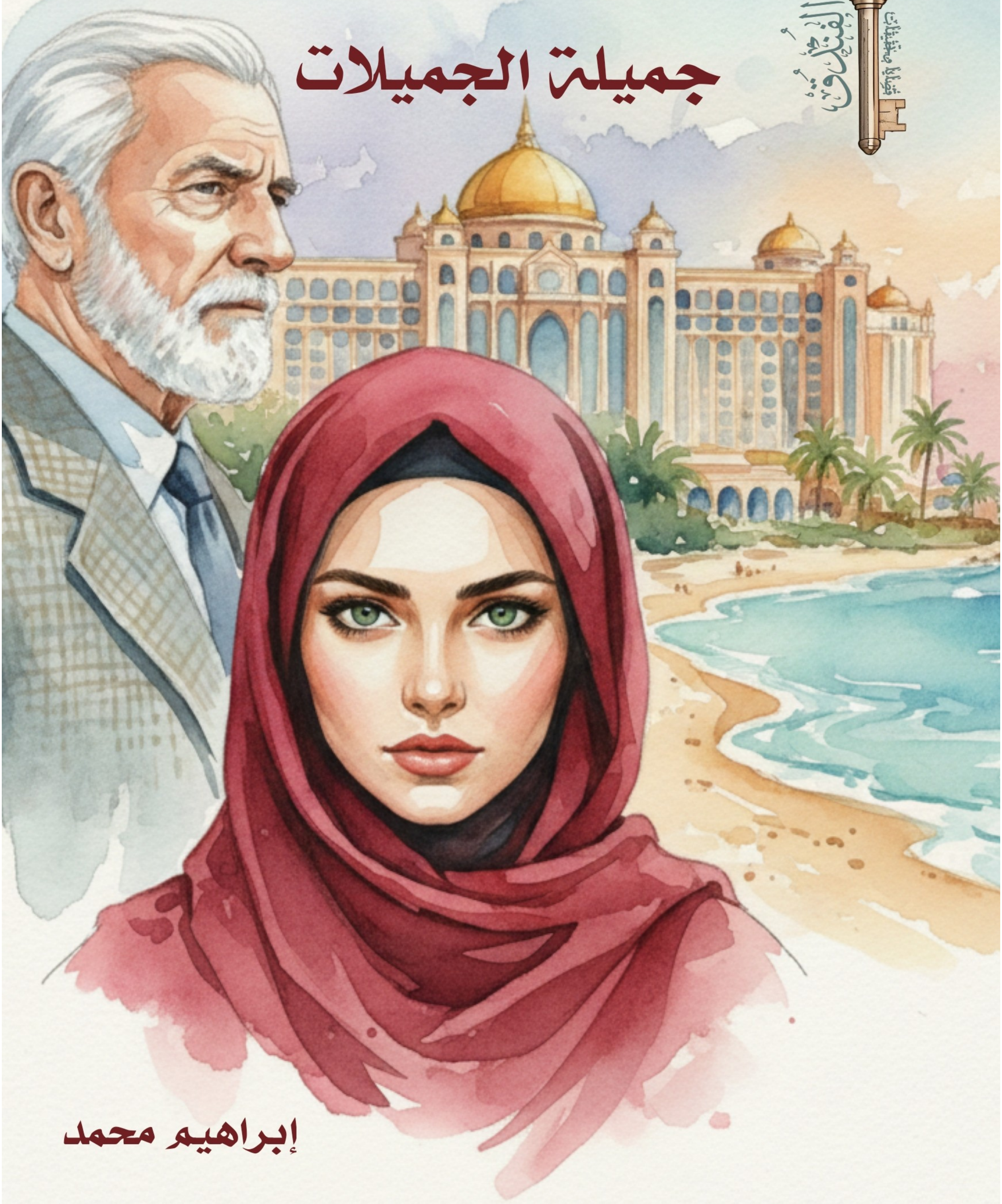
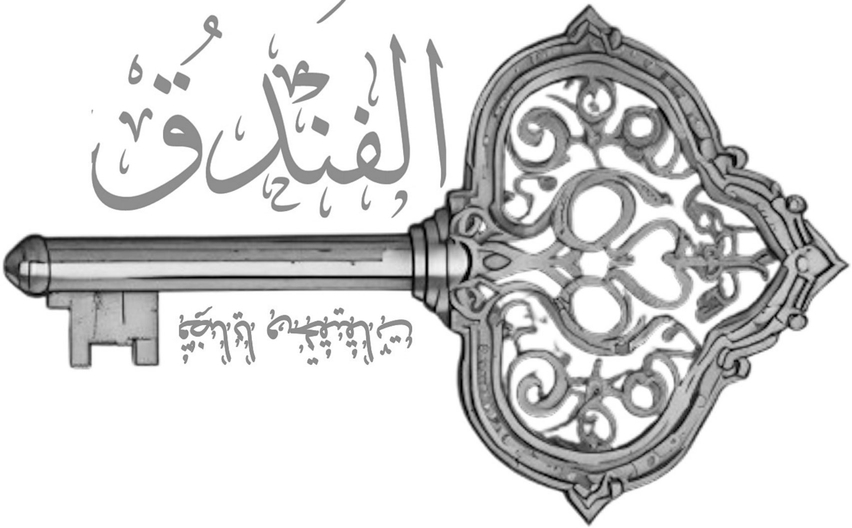
جميلة الجميلات



إبراهيم محمد

الفندق



قضايا وتحقيقات

رواية

جميلة الجميلات

▪ ▪ ▪

الفُنْدُق

قضايا وتحقيقات

▪ ▪ ▪

تأليف

إبراهيم محمد

▪ ▪ ▪

تصميم وإخراج

إبراهيم محمد

▪ ▪ ▪

▪ ▪ ▪

للتواصل مع المؤلف

Wordsonsnowtablet

Gmail | Facebook

▪ ▪ ▪

تنبيه

◾ لم يتم تدقيق هذه الرواية لغويًّا.
◾ هذا المؤَلَّف من قرِيحة مؤلِّفه، ولم يتم نقله أو اقتباسه من أي مصدر آخر.
◾ أي تشابه بين الروَاية وأحداث وشخصيات واقعية هو محض مصادفة.
◾ تم إنتاج الصور باستخدام برامج الذكاء الاصطناعي، وباستخدام كلمات عامة دون وصف دقيق.

الفُنْدُق

قضايا وتحقيقات

1

جميلة الجميلات

تأليف
إبراهيم محمد

للتواصل مع المؤلف

Wordsonsnowtablet@gmail.com

الفُنْدُق

أهلًا بكم في فُنْدُقنا.. فُنْدُق (ينابيع الجَنَّة).. إطلالة رائعة على البحر.. على المدينة.. على التلال.. هل ترغب في غرفة؟ جناح؟ كوخ؟ شاليه؟ كل ما ترغبه لدينا.. خدمات خمس نجوم.. تناسب جميع الأعراق والثقافات.. وأصحاب المهن ورجال الأعمال.. موقع مميز وفريد لكل ما يهمك.. المطار.. الميناء.. الأماكن السياحية.. مركز المدينة.. و...

لم تأت لهذا الغرض؟! جئت للأمر الآخر ؟ لا بأس يا عزيزي.. لا بأس.. لا حاجة للهمس.. لا يوجد ما تخجل منه.. (حسن) .. يا (حسن).. خذ الضيف الكريم إلى مكتب السَّيِّد (طارق)..

أنت! نعم، أنت يا مَنْ تتمسح بعلامة الفُنْدُق.. دع عنك علامة الفُنْدُق.. لقد أوشكتم على إفساد العلامة.. لا أعلم من أين جئتم بتلك التُّرَّهَةِ؟!.. سَيِّدي، لا حاجة لك بالكلام.. نعلم لم جئت فُنْدُقِنَا.. (حسن) .. يا (حسن).. خذ الضيف الكريم إلى مكتب السَّيِّد (طارق)..

1 - الفُنْدُق

أَبْقَيْتُ عَيْنَيَّ مُغْلَقَتَيْنِ وَانْتَظَرْتُ.. وَانْتَظَرْتُ.. وَانْتَظَرْتُ.. هَا هُوَ.. صَوْتُ المُؤَذِّنِ (سَلَامَةَ) يَرْتَفِعُ بِصَوْتِ الأَذَانِ الأَوَّلِ لِلْفَجْرِ.. كُنْتُ قَدْ تَخَلَّيْتُ عَنِ المُنَبِّهِ مُنْذُ سِنِينَ.. لَمْ أَعُدْ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ.. صَارَ الاسْتِيقَاظُ لِصَلَاةِ الفَجْرِ أَمْرًا تِلْقَائِيًّا.. وَدَقِيْقًا..

نَهَضْتُ.. تَوَضَّأْتُ.. عَبَرْتُ البَابَ الصَّغِيْرَ إِلَى المَسْجِدِ الَّذِي يَقَعُ فِي طَرَفِ الحَدِيْقَةِ المُحِيْطَةِ بِالفُنْدُقِ.. ارْتَفَعَ صَوْتُ الشَّيْخِ (سَلَامَةَ) بِالأَذَانِ الآخَرِ.. دَخَلْتُ المَسْجِدَ.. الحُضُورُ قَلِيْلٌ.. جَدِّي وَأَبِي وَالمُؤَذِّنُ وَالمُدِيْرُ اللَّيْلِيُّ لِلْفُنْدُقِ مَعَ بَعْضِ العَامِلِيْنَ وَالنُّزَلَاءِ، فَرَغْتُ مِنْ تَحِيَّةِ المَسْجِدِ وَسُنَّةِ الفَجْرِ، وَمَكَثْتُ فِي مَوْضِعِي أَنْتَظِرُ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ، وَأَنَا أَرُدُّ التَّحِيَّاتِ بَيْنَ الحِيْنِ وَالآخَرِ، وَدَخَلَ الشَّيْخُ (عَبْدِ القَادِرِ) لِيَؤُمَّ بِنَا صَلَاةَ الفَجْرِ.

فَرَغْنَا مِنَ الصَّلَاةِ، وَانْصَرَفَ الآخَرُونَ لِأَعْمَالِهِمْ بِاسْتِثْنَائِي وَالشَّيْخِ (سَلَامَةَ)، مَكَثْنَا نَقْرَأُ أَذْكَارَ الصَّبَاحِ..

نَظَرْتُ إِلَى السَّاعَةِ، كَانَتْ تَقْتَرِبُ مِنَ السَّادِسَةِ، صَافَحْتُهُ وَتَوَجَّهْتُ إِلَى حُجْرَةِ مَكْتَبِي فِي الجُزْءِ الخَاصِّ بِالإِدَارَةِ مِنَ الفُنْدُقِ، وَمَرِرْتُ بِمَكْتَبِ المُدِيْرِ اللَّيْلِيِّ السَّيِّدِ (مَنْصُورٍ)، وَتَحَدَّثْنَا قَلِيْلًا، كَانَ قَدْ شَرَعَ فِي إِعْدَادِ قَائِمَةِ الأَعْمَالِ وَالمَهَامِّ الَّتِي سَيَقُومُ بِتَسْلِيْمِهَا لِلْمُدِيْرِ النَّهَارِيِّ العَامِّ لِلْفُنْدُقِ.

الحَقِيْقَةُ أَنَّ مَكَانَتِي فِي الفُنْدُقِ شَرَفِيَّةٌ أَكْثَرُ مِنْهَا عَمَلِيَّةً أَوْ حَاجَةً ضَرُورِيَّةً، وَقَدْ حَتَّمَ هَذَا الأَمْرُ كَوْنِي حَفِيْدَ مَالِكِ الفُنْدُقِ، الَّذِي يُصِرُّ عَلَى المَزْجِ بَيْنَ النِّظَامَيْنِ القَدِيْمِ وَالجَدِيْدِ فِي إِدَارَةِ الأَعْمَالِ، فَهُوَ يَتْرُكُ القِيَامَ بِالعَمَلِ لِأَهْلِ الاخْتِصَاصِ وَالخِبْرَةِ مَعَ إِبْقَاءِ المَالِكِ فِي مَوْضِعٍ إِشْرَافِيٍّ وَمُشَارِكًا فِي القَرَارَاتِ المُهِمَّةِ بَدَلًا مِنْ طَرِيْقَةِ تَرْكِ الأَمْرِ لِمُدِيْرِ الأَعْمَالِ وَمَجْلِسِ الإِدَارَةِ، وَالاكْتِفَاءِ بِالإِطِّلَاعِ عَلَى سَيْرِ الأَعْمَالِ..

لِذَلِكَ تَجِدُ أَكْثَرَ المَهَامِّ وَالأَعْمَالِ يُشْرِفُ عَلَيْهَا المُدَرَاءُ، دُونَ حَاجَةٍ فِعْلِيَّةٍ لِوُجُودِي..

بَلَغْتُ مَكْتَبِي وَبَعْدَ قَلِيْلٍ جَاءَتِ القَهْوَةُ وَصِيْنِيَّةُ الإِفْطَارِ وَ(سَعِيْدٌ)، وَيَجِبُ أَنْ أُخْبِرَكَ عَنْ (سَعِيْدٍ)، كَيْ نَطْوِيَ صَفْحَتَهُ وَلَا نَعُوْدَ إِلَيْهَا، (سَعِيْدٌ) لَا دَوْرَ لَهُ فِي القَضَايَا وَالتَّحْقِيْقَاتِ الَّتِي أَقُوْمُ بِهَا، لَا مِنْ قَرِيْبٍ وَلَا مِنْ بَعِيْدٍ، تَقُوْلُ: مَا الدَّاعِي لِذِكْرِهِ وَحَشْرِهِ هُنَا؟ أَقُوْلُ: ذَاتُ الدَّاعِي الَّذِي بَدَأْتُ بِهِ عَرْضَ هَذِهِ القَضِيَّةِ، وَهِيَ بَدَايَةٌ قَدْ يَجِدُ الكَثِيْرُونَ أَنْ لَا دَاعِيَ لَهَا وَأَنَّ غَيْرَهَا أَفْضَلُ مِنْهَا، وَأَجِدُ أَنَا أَنَّهَا ضَرُورِيَّةٌ لِتَعْرِفَ مَنْ أَنَا وَما طَبِيْعَتِي؟ وَمَا البِيْئَةُ الَّتِي أَعِيْشُ وَأَعْمَلُ فِيْهَا؟، لِذَلِكَ أَذْكُرُ لَكَ (سَعِيْدًا) كَيْ تَنْسَاهُ، وَلَكِنَّهُ سَيَطْلُعُ عَلَيْنَا بَيْنَ الحِيْنِ وَالآخَرِ، فَلَا حَاجَةَ لِتَكْرَارِ التَّعْرِيْفِ بِهِ.

سَعِيْدٌ مِنْ عَائِلَتِي وَتَجْمَعُنِي بِهِ صِلَةُ قَرَابَةٍ بَعِيْدَةٍ، هَلْ تَعْلَمُ المِنْطَقَةَ بَيْنَ الكَتِفَيْنِ مِنَ الظَّهْرِ وَالَّتِي تَصِلُ لَهَا بِمَشَقَّةٍ فِي الاسْتِحْمَامِ؟ فِي تِلْكَ المِنْطَقَةِ يُوْجَدُ (سَعِيْدٌ)، كَلَّا أَيُّهَا العَزِيْزُ، أَنَا لَا أَحْمِلُ (سَعِيْدًا) عَلَى ظَهْرِي، بَلْ أَعْنِي

أَنَّ صِلَةَ القَرَابَةِ مَوْجُوْدَةٌ وَلَكِنْ مِنَ الصَّعْبِ الإِمْسَاكُ بِهَا، إِنَّهَا شَيْءٌ مِثْلَ ابْنِ عَمَّةِ زَوْجِ خَالَةِ عَمَّةِ جَدِّ عَمَّتِي، المَهْمُ..

مِنْ بَابِ صِلَةِ الأَرْحَامِ وَصُنْعِ المَعْرُوْفِ، قَامَ جَدِّي - أَطَالَ اللهُ عُمُرَهُ - بِإِعْطَاءِ (سَعِيْدٍ) هَذَا مَكْتَبًا فِي الجُزْءِ الخَاصِّ بِمَكَاتِبِ الإِدَارَةِ مِنَ الفُنْدُقِ، كَيْ يُمَارِسَ (سَعِيْدٌ) نَشَاطَهُ وَهُوَ العَمَلُ فِي السِّيَاحَةِ، يَقُوْمُ بِتَنْظِيْمِ الأَفْوَاجِ السِّيَاحِيَّةِ وَعَمَلِ الحَجْزَاتِ الفُنْدُقِيَّةِ وَتَرْتِيْبِ الجَوْلاَتِ السِّيَاحِيَّةِ لِعُمَلاَئِهِ وَالرَّاغِبِيْنَ، وَتَمَّ هَذَا الأَمْرُ فِي بَدَايَةِ تَسَلُّمِي الإِشْرَافَ عَلَى الفُنْدُقِ مِنْ أَبِي بِإِيْعَازٍ مِنْ جَدِّي، وَكَانَ (سَعِيْدٌ) نَمُوْذَجًا لِلْمَثَلِ القَائِلِ "سَمَحْنَا لَهُ، فَدَخَلَ بِحِمَارِهِ"، فَقَدْ حَاوَلَ أَنْ يَحْشُرَ نَفْسَهُ فِي إِدَارَةِ الفُنْدُقِ وَأَنْ يُشَارِكَ المُدِيْرِيْنَ أَعْمَالَهُمْ، مِمَّا اسْتَوْجَبَ وَقْفَةً صَارِمَةً مِنِّي، انْتَهَتْ بِاكْتِفَائِهِ بِمَكْتَبِهِ الَّذِي مَنَحَهُ إِيَّاهُ جَدِّي، وَالتَّطَفُّلِ عَلَى وَجَبَاتِي وَقَهْوَتِي وَهُوَ شَيْءٌ فَشِلْتُ فِي مَنْعِهِ، هَذَا كُلُّ مَا تَوَدُّ مَعْرِفَتَهُ عَنْ (سَعِيْدٍ).

هَذَا (سَعِيْدٌ) الَّذِي لَا شَأْنَ لَهُ بِمَا أَفْعَلُ، أَخَذَ كُلَّ هَذِهِ السُّطُوْرِ لِلتَّعْرِيْفِ بِهِ**!** وَسُطُوْرِي الخَاصَّةُ بِي - أَنَا صَاحِبُ هَذِهِ التَّحْقِيْقَاتِ - قَلِيْلَةٌ رَكِيْكَةٌ.. يَبْدُو أَنَّ مَوْهِبَتِي الأَدَبِيَّةَ ضَعِيْفَةٌ.. بَلْ رُبَّمَا لَا تَوْجَدُ مَوْهِبَةٌ أَصْلًا..

فَرَغَ (سَعِيْدٌ) مِنْ مُشَارَكَتِي الإِفْطَارَ، وَتَنَاوَلَ القَهْوَةَ وَغَادَرَ مُصْطَحِبًا فِنْجَانَ قَهْوَةٍ مَعَهُ كَعَادَتِهِ، بَعْدَ أَنْ قَالَ مَقُوْلَتَهُ اليَوْمِيَّةَ:

- فِنْجَانُ قَهْوَةٍ، وَاللهِ فِنْجَانُ قَهْوَةٍ، لَا أَحْمِلُ سِوَاهُ وَلَا أُرِيْدُ سِوَاهُ.

كَأَنَّهُ يُذَكِّرُنِي بِالمُوَاجَهَةِ الأَخِيْرَةِ مَعَهُ، حَيْثُ وَضَعْتُ الأُمُوْرَ فِي نِصَابِهَا الصَّحِيْحِ، وَالحَقِيْقَةُ أَنَّنِي قُمْتُ بِمُوَاجَهَتِهِ بِالطَّرِيْقَةِ الَّتِي أَصَرَّ جَدِّي عَلَيَّ

بِاسْتِخْدَامِهَا، وَقَدْ كُنْتُ أُفَضِّلُ نَهْجًا أَكْثَرَ تَسَامُحًا وَفَاعِلِيَّةً بِنَقْلِهِ لِلطَّرَفِ البَعِيْدِ عَنِ الإِدَارَةِ، وَلَكِنَّ جَدِّي بَرَّرَ طَرِيْقَتَهُ بِالقَوْلِ:

- يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ حُدُوْدَ وَظِيْفَتِهِ، وَمَكَانَتَهُ فِي الفُنْدُقِ، وَأَنْتَ مَنْ تُشْرِفُ وَتَقْرِرُ طَرِيْقَةَ سَيْرِ الأُمُوْرِ فِي الفُنْدُقِ.

بِكَلِمَاتِهِ هَذِهِ شَعَرْتُ بِأَنَّنِي صَبِيٌّ يَتَلَقَّى النَّصَائِحَ مِنْ أُسْتَاذِهِ وَلَيْسَ رَجُلًا قَارَبَ الثَّلَاثِيْنَ، وَيَعِي أَهْدَافَهُ مِنَ الحَيَاةِ..

فِي الثَّامِنَةِ صَبَاحًا، بَدَأْتُ جَوْلَتِي بِالمُرُوْرِ بِالمُدِيْرِ العَامِّ لِلْفُنْدُقِ السَّيِّدِ (جَمَالٍ)، وَتَحَدَّثْنَا قَلِيْلًا وَتَابَعْتُ طَرِيْقِي إِلَى المَطَابِخِ حَيْثُ يَجْرِي العَمَلُ عَلَى قَدَمٍ وَسَاقٍ فِي إِعْدَادِ وَجَبَاتِ الفُطُوْرِ لِلنُّزَلَاءِ، نَحْنُ فِي ذُرْوَةِ المَوْسِمِ السِّيَاحِيِّ، وَالفُنْدُقُ مَزْدَحِمٌ بِالنُّزَلَاءِ مِنْ أَكْثَرِ بِقَاعِ الأَرْضِ، لَمْ يَسْتَوْقِفْنِي رَئِيْسُ الطُّهَاةِ وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الأُمُوْرَ تَسِيْرُ عَلَى مَا يُرَامُ وَلَا شَكْوَى أَوْ تَذَمُّرَ هُنَا، انْتَقَلْتُ إِلَى خَدَمَاتِ الغَسِيْلِ ثُمَّ خَدَمَاتِ النُّزَلَاءِ، وَجَوْلَةٍ سَرِيْعَةٍ فِي المَطَاعِمِ وَقَاعَتَيِ المَنَاسَبَاتِ الصَّغِيْرَةِ وَالكَبِيْرَةِ ثُمَّ بَهْوِ الاسْتِقْبَالِ وَتَحَدَّثْتُ مَعَ العَامِلِيْنَ وَصَعِدْتُ لِلطَّوَابِقِ العُلْوِيَّةِ، وَالتَقَيْتُ فِي طَرِيْقِي بِمُدِيْرِ الأَمْنِ وَرَئِيْسِ قِسْمِ النَّظَافَةِ، وَمَرِرْتُ بِقَاعَةِ الأَلْعَابِ الرِّيَاضِيَّةِ وَقَاعَةِ المُؤْتَمَرَاتِ وَالمَقْهَى..

قُرَابَةَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ تَسْتَغْرِقُ جَوْلَتِي اليَوْمِيَّةَ فِي أَرْجَاءِ الفُنْدُقِ المُخْتَلِفَةِ، وَهِيَ مَهَمَّةٌ أَسْتَطِيْعُ القِيَامَ بِهَا دُونَ مُغَادَرَةِ مَكْتَبِي، فَالوَسَائِلُ الحَدِيْثَةُ كَالحَاسُوْبِ اللَّوْحِيِّ يَصِلُنِي بِجَمِيْعِ المُدَرَاءِ وَالعَامِلِيْنَ، كَمَا يَحْتَوِي تَطْبِيْقًا خَاصًّا بِفُنْدُقِنَا يَضْمَنُ إِطِّلَاعِي عَلَى كُلِّ صَغِيْرَةٍ وَكَبِيْرَةٍ يَقُوْمُوْنَ بِهَا،

بالإِضَافَةِ إِلَى صُوَرٍ مُبَاشِرَةٍ تَأْتِي مِنْ عَشَرَاتِ آلاتِ التَّصْوِيْرِ الَّتِي تَنْتَشِرُ فِي كُلِّ رُكْنٍ مِنَ الفُنْدُقِ، هَذَا كُلُّهُ لَمْ يُقْنِعْنِي بِالاِكْتِفَاءِ بِالمُكُوْثِ فِي مَكْتَبِي، رُبَّمَا هِيَ رَغْبَةٌ مِنِّي فِي الخُرُوْجِ مِنْ خَانَةِ المُدِيْرِ الشَّرَفِيِّ إِلَى خَانَةِ المُدِيْرِ الفِعْلِيِّ، كَمَا أَنَّ طَبِيْعَتِي تَأْبَى السُّكُوْنَ وَالخُمُوْلَ الَّذِي تَفْرِضُهُ الوَسَائِلُ الحَدِيْثَةُ..

* * *

عُدْتُ إِلَى مَكْتَبِي وَفَضَّلْتُ الجُلُوْسَ عَلَى الأَرِيْكَةِ أَمَامَ المَكْتَبِ، وَانْهَمَكْتُ فِي مُتَابَعَةِ المَنَاسَبَاتِ الَّتِي يَسْتَضِيْفُهَا الفُنْدُقُ وَالاسْتِعْدَادَاتِ لَهَا، وَالتَّحَقُّقِ أَنْ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ، حَتَّى قَاطَعَتْنِي طَرَقَاتٌ عَلَى بَابِ المَكْتَبِ، دَعَوْتُ الطَّارِقَ لِلدُّخُوْلِ، لِيَدْخُلَ (حَسَنٌ) العَامِلُ فِي مَقْهَى الإِدَارَةِ، اقْتَرَبَ مِنِّي وَمَالَ نَحْوِي كَمَنْ يُلْقِي فِي أُذُنِي سِرًّا أَمَامَ أُنَاسٍ يَرَاهُمْ وَلَا أَرَاهُمْ، هَمَسَ:

- لَقَدْ جَاءَ أَحَدُهُمْ.

لَوْهَلَةٍ لَمْ أَفْهَمْ مَا يَعْنِيْهِ، ثُمَّ أَدْرَكْتُهُ، بِلَهْفَةٍ هَتَفْتُ:

- حَقًّا!

أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ وَقَدْ سُعِدَ بِرَدَّةِ فِعْلِي، أَكَّدَ:

- حَقًّا يَا سَيِّدُ (طَارِقٌ)، حَقًّا.

الْتَقَطْتُ حَاسُوْبِي اللَّوْحِيَّ مِنْ عَلَى المِنْضَدَةِ بِلَهَفَةٍ وَأَنَا أَقُوْلُ:

- كَيْفَ عَرَفْتَ؟ أَيْنَ هُوَ؟

أَجَابَنِي:

- فِي بَهْوِ الاسْتِقْبَالِ، يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُوْنَه عَادَةً.

قُمْتُ بِتَشْغِيْلِ تَطْبِيْقِ آلَاتِ التَّصْوِيْرِ الخَاصِّ بِالفُنْدُقِ، وَاخْتَرْتُ القِسْمَ الخَاصَّ بِبَهْوِ الاسْتِقْبَالِ، نَظَرْتُ فِي الصُّوَرِ الثَّلَاثِ الَّتِي تَنْقُلُ بَهْوَ الاسْتِقْبَالِ مِنْ زَوَايَا مُخْتَلِفَةٍ، وَبَحَثْتُ عَنْ ضَالَّتِي، وَ.. وَجَدْتُهَا.. اخْتَرْتُ أَقْرَبَ الصُّوَرِ إِلَيْهِ وَقُمْتُ بِتَقْرِيْبِ الصُّوْرَةِ.

كَانَ شَيْخًا كَبِيْرًا، رُبَّمَا تَجَاوَزَ السَّبْعِيْنَ وَيَبْدُو عَلَيْهِ قُوَّةُ الشَّكِيْمَةِ بِلِحْيَتِهِ البَيْضَاءِ القَصِيْرَةِ الَّتِي تُحِيْطُ بِوَجْهِهِ، وَيَرْتَدِي قَمِيْصًا وَسِرْوَالًا أَنِيْقَيْنِ، وَلَوْلَا الحَالَةُ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا لَقُلْتُ أَنَّهُ ذُو مَهَابَةٍ وَوَقَارٍ، لَقَدْ كَانَ يُمْسِكُ بِقُوَّةٍ بِعَلَامَةِ الفُنْدُقِ الَّتِي تُمَثِّلُ خَطًّا مِنَ الزُّجَاجِ الأَزْرَقِ السَّمَاوِيِّ يَخْرُجُ مِنْ دَائِرَةٍ صَغِيْرَةٍ فِي طَرَفِهِ فِي وَسَطِ دَائِرَةٍ كَبِيْرَةٍ مِنَ النُّجُوْمِ مِنَ الحَدِيْدِ بِلَوْنٍ نُحَاسِيٍّ وَيَنْقَسِمُ الخَطُّ إِلَى ثَلَاثَةِ خُطُوْطٍ تَتَجَاوَزُ الدَّائِرَةَ الكَبِيْرَةَ مِنَ الجُزْءِ السُّفْلِيِّ لَهَا، وَفِي أَعْلَى الدَّائِرَةِ لَافِتَةٌ حَدِيْدِيَّةٌ انْحَنَتْ مَعَ هَيْئَةِ الدَّائِرَةِ وَتَتَّصِلُ بِهَا بِأَسْلَاكٍ رَفِيْعَةٍ، وَعَلَى جَانِبَيْهَا كُرَتَيْنِ بِاللَّوْنِ الأَخْضَرِ البَحْرِيِّ، وَتَمَّ تَجْوِيْفُهَا بِاسْمِ الفُنْدُقِ، وَثُمَّ ثُمَّ حَشْوُهَا بِزُجَاجٍ أَزْرَقَ جَمِيْلٍ، وَقَدْ وُضِعَتْ عَلَامَةُ الفُنْدُقِ فَوْقَ عَمُوْدٍ قَصِيْرٍ مِنَ الرُّخَامِ إِلَى يَمِيْنِ مَدْخَلِ قَاعَةِ الاسْتِقْبَالِ لِلْفُنْدُقِ، لِيُوَاجِهَ الدَّاخِلَ إِلَى الفُنْدُقِ وَيَرَاهُ الجَالِسُوْنَ فِي قَاعَةِ الاسْتِقْبَالِ، وَمِنْ طَرَفِ الدَّائِرَةِ الكَبِيْرَةِ مِنْ أَسْفَلَ، أَمْسَكَتْ يَدَا الشَّيْخِ بِهَا، وَاتَّكَأَ بِرَأْسِهِ عَلَيْهَا، وَجَسَدُهُ يَنْتَفِضُ، لَا شَكَّ أَنَّهُ يَنْتَحِبُ، وَرَجُلُ أَمْنٍ مُرْتَبِكٌ يَقِفُ بِجِوَارِهِ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ، لَا رَيْبَ أَنَّ رَجُلَ الأَمْنِ مِمَّنْ قُمْنَا بِالاسْتِعَانَةِ بِهِمْ مُؤَقَّتًا لِأَجْلِ فَتْرَةِ ذُرْوَةِ المَوْسِمِ السِّيَاحِيِّ، حَيْثُ يَمْتَلِئُ الفُنْدُقُ بِالنُّزَلَاءِ، لِأَنَّهُ يَبْدُو لَا يَعْلَمُ سَبَبَ سُلُوْكِ هَذَا

الرَّجُلِ الغَرِيْبِ، وَالحَقِيْقَةُ لَا أَنَا وَلا أَبِي وَلَا جَدِّي نَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِهَذِهِ التُّرَّهَةِ، وَهِيَ الأَمْسَاكُ بِعَلَامَةِ الفُنْدُقِ وَالانْتِحَابِ وَالتَّمَسُّحِ بِهَا، مِمَّا يُذَكِّرُنِي بِخَزَعْبَلَاتِ التَّمَسُّحِ بِقُبُوْرِ الأَمْوَاتِ وَالأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِيْنَ الَّتِي يَقُوْمُ بِهَا أَهْلُ المِلَلِ الضَّالَّةِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

هَنَا مَرَّةً أُخْرَى أُخْرِجُ بِكَ مِنَ السِّيَاقِ إِلَى جُزْءٍ بَعِيْدٍ، وَهُوَ الحَدِيْثُ عَنِ الأَقَاوِيْلِ الَّتِي تَدُوْرُ حَوْلَ فُنْدُقِنَا، وَلِذَاتِ الغَرَضِ، وَكَمَا فَعَلْتُ مَعَ الجُزْءِ الخَاصِّ بِـ (سَعِيْدٍ)، أَذْكُرُ لَكَ هَذَا كَيْ لَا نَعُوْدَ إِلَيْهِ.

* * *

فُنْدُقُنَا اسْمُهُ (يَنَابِيْعُ الجَنَّةِ) وَحَتَّى كِتَابَةِ هَذِهِ السُّطُوْرِ لَا يُوْجَدُ فُنْدُقٌ يَحْمِلُ هَذَا الاسْمَ سِوَى فُنْدُقِنَا، وَهُوَ خُمَاسِيُّ النُّجُوْمِ، وَيَقَعُ عَلَى مَشَارِفِ المَدِيْنَةِ وَيُطِلُّ عَلَى البَحْرِ، بَنَاهُ جَدِّي وَقَامَ بِتَطْوِيْرِهِ حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَهُ الآنَ، فَإِنْ وُجِدَ فُنْدُقٌ يَحْمِلُ هَذَا الاسْمَ سِوَى فُنْدُقِنَا فَأَعْلَمْ أَنَّهُ جَاءَ بَعْدَ فُنْدُقِنَا.

الغَرِيْبُ أَنَّ مَا صَنَعَ شُهْرَةَ فُنْدُقِنَا، وَأَعْنِي بِذَلِكَ الشُّهْرَةَ الخَاصَّةَ بِالقَضَايَا وَالتَّحْقِيْقَاتِ هُوَ بَدَايَاتُهُ، حِيْنَ كَانَ نُزُلًا صَغِيْرًا وَجَدِّي فِي رِيْعَانِ الشَّبَابِ، فِي ذَلِكَ الحِيْنِ قَامَ جَدِّي بِمَدِّ "يَدِ العَوْنِ" إِلَى العَدِيْدِ مِنَ الأَشْخَاصِ، وَأَضْحَى فُنْدُقُنَا يَحْمِلُ أَلْقَابًا كَثِيْرَةً تَعْكِسُ نَجَاحَاتِ جَدِّي، وَبَعْدَ أَنْ تَقَاعَدَ جَدِّي حَرِصَ أَبِي عَلَى أَنْ يَحْتَفِظَ فُنْدُقُنَا بِسُمْعَتِهِ السِّيَاحِيَّةِ الرَّائِدَةِ، أَمَّا الجُزْءُ الآخَرُ الخَاصُّ بِـ "مَدِّ يَدِ العَوْنِ" فَبَقِيَ مِنْ نَصِيْبِ جَدِّي وَكَانَ دَوْرِي وَدَوْرُ أَبِي هُوَ "المُسَاعَدَةُ فِي المَهَمَّةِ"، ثُمَّ جَاءَ دَوْرِي، وَقَدِ اسْتَلَمْتُ إِدَارَةَ الفُنْدُقِ مِنْ أَبِي

مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَامٍ، لَمْ يَمُرَّ بِي خِلَالَهُ أَمْرٌ يُذْكَرُ، حَتَّى أَنَّنِي خَشِيْتُ أَنْ تَكُوْنَ نِهَايَةُ الحَقْبَةِ الَّتِي عُرِفَ بِهَا فُنْدُقُنَا عَلَى عَهْدِي، وَهَذِهِ "الحَادِثَةُ" أَعَادَتِ الأَمَلَ عِنْدِي، رَغْمَ أَنَّنِي لا أَعْلَمُ هَلْ سَأُفْلِحُ وَأُنْجِحُ فِي مُتَابَعَةِ المَسِيْرَةِ الَّتِي بَدَأَهَا جَدِّي أَمْ أَتَنَكَّبُهَا؟

وَفِي هَذَا كُلِّهِ لَا يَعْلَمُ أَحَدُنَا مَنْ جَاءَ بِأَمْرِ الإِمْسَاكِ بِعَلَامَةِ الفُنْدُقِ وَالتَّمَسُّحِ بِهَا، وَأَخْبَرَنِي جَدِّي أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَمَسَّحُوْنَ فِي جُدْرَانِ النُّزُلِ فِي بَدَايَاتِ حَيَاتِهِ العَمَلِيَّةِ، وَكُلَّمَا تَطَوَّرَ الفُنْدُقُ تَغَيَّرَتْ طُرُقُهُمْ، مِنَ الجِدَارِ إِلَى البَابِ وَصُوْلًا إِلَى عَلَامَةِ الفُنْدُقِ أَوْ مَا يُعْرَفُ الآنَ بِالشِّعَارِ.

الآنَ قَدْ عَلِمْتَ كُلَّ مَا تَرْغَبُ فِي مَعْرِفَتِهِ عَنِّي وَعَنْ فُنْدُقِنَا وَعَنْ (سَعِيْدٍ)، لِنَضَعْ هَذَا كُلَّهُ جَانِبًا، نَعَمْ، أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ رَكْنَ الجُزْءِ الخَاصِّ بِي جَانِبًا، وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وُجُوْدٌ لِهَذِهِ الكِتَابَةِ، بِالتَّأْكِيْدِ، بِالتَّأْكِيْدِ هُنَاكَ أَجْزَاءٌ أُخْرَى وَلَكِنَّ الحَدِيْثَ عَنْهَا حِيْنَ يَأْتِي وَقْتُهَا، لا أُرِيْدُ لِهَذِهِ القَضِيَّةِ أَنْ تُصْبِحَ "ثَرْثَرَةً عَنْ حَيَاتِي"، بَلِ الاسْمُ الَّذِي اخْتَرْتُهُ لَهَا "جَمِيْلَةُ الجَمِيْلَاتِ".

* * *

تَكَلَّمَ (حَسَنٌ) بِالهمْسِ:

- هَلْ أُحْضِرُهُ إِلَى هُنَا؟

الْتَفَتُّ إِلَيْهِ وَالسُّرُوْرُ يَتَمَلَّكُنِي وَيَنْضَحُ عَلَى وَجْهِي، أَجَبْتُهُ:

- لَا، أَنَا سَأَذْهَبُ إِلَيْهِ.

وَانْصَرَفَ (حَسَنٌ) فِي حِيْنِ نَهَضْتُ أَنَا بِنَشَاطٍ لِأَتَوَجَّهَ إِلَى قَاعَةِ الاسْتِقْبَالِ، مَنْ لَمْ يُدْرِكْ مَغْزَى مَا قُلْتُهُ سَابِقًا سَيَظُنُّ أَنَّنِي "أَبْحَثُ عَنْ جَنَازَةٍ كَيْ أَشْبَعَ فِيْهَا لَطْمًا"، كَلَّا، إِنَّنِي أَرْغَبُ فِي أَنْ تَسْتَمِرَّ شُهْرَةُ فُنْدُقِنَا كَمَكَانٍ يَجْلِبُ الانْشِرَاحَ وَالسُّرُوْرَ وَالفَرَجَ لِعُمُوْمِ النَّاسِ وَلِأَهْلِ الكُرُبَاتِ خُصُوْصًا، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الرُّوْحَ الَّتِي تُحِبُّ الخَيْرَ وَتَسْعَى فِي طَرَقَاتِهِ تَحْيَا فِي جُنُبَاتِ صَدْرِ جَدِّي وَأَبِي وَجُنُبَاتِي، النَّاسُ لَا تَعْلَمُ عَنْ جَدِّي سِوَى أَنَّهُ رَجُلُ أَعْمَالٍ أَصَابَ نَجَاحًا عَظِيْمًا فِي حَيَاتِهِ، وَسَيَؤُوْلُ مَا يَمْلِكُهُ لِوَرَثَتِهِ، وَالحَقِيْقَةُ أَنَّ مَا قُمْتُ بِتَجْمِيْعِهِ مِنْ حَدِيْثِ جَدِّي وَأَبِي يَقُوْلُ "إِنَّ النَّاسَ لَا تَعْلَمُ إِلَّا النَّذْرَ اليَسِيْرَ مِنْ حَقِيْقَتِهِمْ" وَهُوَ دَرْسٌ ثَمِيْنٌ فِي الحَيَاةِ.. "يَكْفِي النَّاسَ أَنْ يَعْلَمُوا عَنْ حَيَاتِكَ مَا يَعْنِيْكَ أَنْ تَعْلَمَهُ، لَا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ".

بَلَغْتُ الرَّجُلَ عِنْدَ الشِّعَارِ، وَرَجُلُ الأَمْنِ يُمْسِكُ بِأَكْتَافِهِ وَيُحَاوِلُ إِبْعَادَهُ بِرِفْقٍ عَنِ الشِّعَارِ، وَالرَّجُلُ يَنْتَحِبُ بِقُوَّةٍ تُمَزِّقُ نِيَاطَ القَلْبِ وَلَا يَتْرُكُ شِعَارَ الفُنْدُقِ، رَبَّتُ عَلَى كَتِفِ رَجُلِ الأَمْنِ وَأَنَا أَقُوْلُ:

- دَعْهُ لِي.

الْتَفَتَ إِلَيَّ رَجُلُ الأَمْنِ، وَظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِهِ مَعَالِمُ الارتِيَاحِ، وَعَادَ إِلَى مَوْقِعِهِ فِي قَاعَةِ الاسْتِقْبَالِ.

رَبَّتْتُ عَلَى كَتِفِ الشَّيْخِ، وَاسْتُغْرِقَتْ بضْعُ دَقَائِقَ مِنَ الحَدِيْثِ وَالتَّخْفِيْفِ عَنْهُ، حَتَّى اسْتَطَعْتُ إِبْعَادَهُ عَنِ الشِّعَارِ، وَأَمْسَكْتُ بِذِرَاعِهِ وَقَدْتُهُ إِلَى مَكْتَبِي وَسَطَ نَظَرَاتِ النُّزَلَاءِ وَالعَامِلِيْنَ، وَاسْتَسْلَمَ هُوَ لِي دُونَ أَنْ يَكُفَّ عَنِ النَّحِيْبِ، وَتَجَاوَزْتُ مَكَاتِبَ الإِدَارَةِ وَسَطَ نَظَرَاتٍ فُضُوْلِيَّةٍ تَتَسَاءَلُ عَمَّا يَحْدُثُ.

* * *

2 - أوَّلُ الغَيْثِ

أدْخَلْتُهُ مَكْتَبِي، وَأَنَا أَعْهَدُ إِلَى (حَسَنٍ) بِإِحْضَارِ عَصِيرِ اللَّيْمُونِ، أَجْلَسْتُ الشَّيْخَ عَلَى الأَرِيكَةِ، وَلَا أَكُفُّ عَنِ التَّخْفِيفِ عَنْهُ وَتَطْيِيبِ خَاطِرِهِ.
اتَّخَذْتُ مَجْلِسِي قُبالَتَهُ، وَتَوَقَّفْتُ عَنِ الْكَلَامِ؛ لِكَيْ أُعْطِيَهُ فُسْحَةً مِنَ الوَقْتِ لِإِفْرَاغِ أَحْزَانِهِ وَشُجُونِهِ.

لِبرْهَةٍ أَخَذَ النَّحِيبُ يَتَخَافَتُ..

وَجَاءَ (حَسَنٌ) بِعَصِيرِ اللَّيْمُونِ، وَأَشَرْتُ لَهُ بِوَضْعِهِ عَلَى الْمَنْضَدَةِ الصَّغِيرَةِ أَمَامَ الرَّجُلِ وَالانْصِرَافِ.
- أَعْذِرْنِي، لَقَدْ تَمَالَكْتُ نَفْسِي دَائِمًا، وَفَجْأَةً وَجَدْتُ نَفْسِي عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي رَأَيْتَنِي بِهَا.
تَكَلَّمَ الشَّيْخُ بِصَوْتٍ مُتَحَشْرِجٍ وَهُوَ يَمْسَحُ وَجْهَهُ بِكَفَّيْهِ وَيُدِيرُ وَجْهَهُ فِي أَرْجَاءِ مَكْتَبِي.
وَعَقَّبْتُ عَلَى كَلَامِهِ بِكَلَامٍ عَامٍّ عَنِ الدُّنْيَا وَهُمُومِهَا، وَوَاصَلَ هُوَ تَأَمُّلَ حُجْرَةِ مَكْتَبِي، لَا رَيْبَ أَنَّهُ يَتَسَاءَلُ عَنْ طَبِيعَةِ هَذَا الْمَكَانِ الْمُمْتَلِئِ بِالصُّوَرِ الدِّعَائِيَّةِ لِلْفُنْدُقِ وَالْأَمَاكِنِ السِّيَاحِيَّةِ فِي بَلَدِنَا.

طَلَبْتُ مِنْهُ شُرْبَ الْعَصِيرِ كَيْ يَهْدَأَ وَيَذْهَبَ عَنْهُ مَا بَقِيَ مِنَ الرَّوْعِ، وَامْتَدَّتْ يَدُهُ لِتَحْمِلَ الْكَأْسَ وَهِيَ تَرْتَجِفُ، وَشَرَعَ يَأْخُذُ مِنْهُ رَشَفَاتٍ صَغِيرَةً..

كَمَا أَسْلَفْتُ، كَانَ شَيْخًا كَبِيرًا وَقُورًا، وَثِيَابُهُ تُخْبِرُ عَنْ مُسْتَوًى اجْتِمَاعِيٍّ مُرْتَفِعٍ، وَلَوْ أَنِّي رَأَيْتُهُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ السَّابِقَةِ، لَصَعُبَ عَلَيَّ تَخَيُّلُهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ.

انْتَظَرْتُ حَتَّى فَرَغَ مِنْ تَنَاوُلِ عَصِيرِ اللَّيْمُونِ، وَتَبِعَهَا لَحَظَاتُ صَمْتٍ قَطَعْتُهَا بِتَقْدِيمِ نَفْسِي:

- أَنَا (طَارِقٌ)، مُدِيرُ الْفُنْدُقِ.

وَانْتَظَرْتُ مِنَ الشَّيْخِ تَقْدِيمَ نَفْسِهِ، وَلَكِنَّ الصَّمْتَ هُوَ مَا عَقَّبَ عَلَى كَلَامِي.

وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ، قَالَ:

- أَنَا (شَاكِرُ صَادِقٍ)، رَجُلُ أَعْمَالٍ مُتَقَاعِدٌ مُنْذُ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ.

أَخَذْتُ الْحَدِيثَ بَعِيدًا عَنْ غَايَتِي، وَتَحَدَّثْنَا عَنْ أَعْمَالِنَا وَطَبِيعَتِهَا وَصِعَابِهَا، وَالْمَسَارِ الَّذِي تَأْخُذُنَا إِلَيْهِ، وَمَا نُلَاقِيهِ فِيهَا مِنَ انْتِصَارَاتٍ وَهَزَائِمَ، وَأَفْرَاحٍ وَأَحْزَانٍ، حَتَّى وَجَدْتُ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِسُؤَالِهِ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ).. مَاذَا هُنَاكَ؟ كَيْفَ بَلَغَ بِكَ الْحَالُ مَا وَجَدْتُكَ عَلَيْهِ؟

لَمْ يُجِبْنِي، وَعَادَ يَنْظُرُ فِي أَنْحَاءِ الْمَكْتَبِ..

وَهَنَا فَطِنْتُ إِلَى الْحَقِيقَةِ: لَا رَيْبَ أَنَّ الرَّجُلَ جَاءَ إِلَى الْفُنْدُقِ وَهُوَ يَحْمِلُ فِي خَيَالِهِ صُورَةً أَقْرَبَ إِلَى أَمَاكِنِ الدَّجَالِينَ وَالْمُشَعْوِذِينَ، وَفِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ

بُيُوتِ "أَهْلِ الْبَرَكَةِ"، وَيَنْتَظِرُ أَنْ يَجِدَ انْفِرَاجَ مُصِيبَتِهِ فِي "حِجَابٍ" يَضَعُهُ فِي وِسَادَتِهِ أَوْ تَحْتَ عَتَبَةِ الْبَابِ.

رَغْمَ أَنَّ مَظْهَرَ الرَّجُلِ لا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هَذَا، إِلَّا أَنَّ الْحَيَاةَ تُفَاجِئُكَ بِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، وَبِالتَّأْكِيدِ مَكْتَبِي بِأَثَاثِهِ الْفَاخِرِ وَالْحَدَاثَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ، تُخَالِفُ تِلْكَ الصُّورَةَ.

وَجَدْتُ مِنْ وَاجِبِي طَمْأَنَتَهُ وَإِخْبَارَهُ بِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ إِلَى الْمَكَانِ الصَّحِيحِ الَّذِي يَسْعَى إِلَيْهِ، ابْتَسَمْتُ، قُلْتُ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)، لَقَدْ جِئْتَ الْمَكَانَ الصَّحِيحَ.

وَضَعَ عَيْنَيْهِ فِي عَيْنَيَّ، وَالشَّكُّ رَفِيقُ كَلِمَتِهِ، قَالَ:

- حقًّا!

أَطْلَقْتُ ضَحْكَةً صَغِيرَةً مُطْمَئِنَّةً، انْتَزَعْتُهَا مِنْ أَرْضِ الافْتِعَالِ، قُلْتُ:

- حَقًّا يَا سَيِّدَ (شَاكِرَ)، حَقًّا، أَنْتَ الْآنَ فِي فُنْدُقِ "السَّعْدِ" أَوِ "الْفَرَجِ" أَوْ أَيِّ اسْمٍ أَخْبَرُوكَ بِهِ.

عَادَ يَنْظُرُ فِي أَرْجَاءِ الْمَكْتَبِ، وَقَدْ لَوَى جِذْعَهُ لِيَرَى مَا خَلْفَهُ، لَعَلَّهُ يَجِدُ مَا يُوَافِقُ شَيْئًا مِنْ خَيَالِهِ فَيُرِيحَ بَالَهُ.

وَمِنْ جَدِيدٍ تَكَلَّمَ الشَّكُّ عَلَى لِسَانِهِ:

- حَقًّا!

طَمْأَنْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى بِتَأْكِيدِي:

- حَقًّا يَا سَيِّدَ (شَاكِرَ)، حَقًّا.

مَنَحْتُ الصَّمْتَ هُنَيْهَةً، سَأَلْتُهُ بَعْدَهَا:

- وَالْآنَ يَا سَيِّدَ (شَاكِرَ)، لِمَ لَا تُخْبِرُنِي بِمَا أَصَابَكَ؟

نَظَرَ إِلَيَّ، تَرَدَّدَ.. قَالَ:

- وَهَلْ.. هَلْ أَنْتَ الْمُخَوَّلُ بِهَذَا الْأَمْرِ؟

هَنَا أَطْلَقْتُ ضَحْكَةً صَغِيرَةً صَافِيَةً مِنَ الْقَلْبِ، قَدْ لَا تُرَاعِي مَشَاعِرَ هَذَا الشَّيْخِ، وَلَكِنَّهَا جَاءَتْ مُطْمَئِنَّةً، لَقَدْ قَارَبْتُ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْعُمُرِ، وَأَبْدُو فِي رَيْعَانِ الشَّبَابِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ فِي خَيَالِهِ تَوَقَّعَ شَيْخًا كَبِيرًا أَوْ كَهْلًا عَلَى الْأَقَلِّ.

قُلْتُ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)، لَا أَعْلَمُ مَاذَا قَالُوا لَكَ وَلَا الصُّورَةَ الَّتِي رَسَمُوهَا لَكَ وَلَا مَا تَخَيَّلْتَهُ؟ لَكِنْ هَذَا أَنَا - بِإِذْنِ اللَّهِ - مَنْ سَيُعِينُكَ عَلَى مُصِيبَتِكَ وَحَلِّ مُشْكِلَتِكَ.

هَزَّ رَأْسَهُ، وَذَهَبَتْ عَيْنَاهُ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ، قَالَ:

- صَدَقْتَ، إِنَّهَا مُصِيبَةٌ.

وَلَمْ يُخْبِرْنِي بِمَا يُثَقِّلُ قَلْبَهُ بِالْأَحْزَانِ، وَبَاءَتْ جَمِيعُ مُحَاوَلَاتِي لِحَثِّهِ عَلَى الْكَلَامِ بِالْفَشَلِ، وَأَخِيرًا انْصَرَفَ بِصُحْبَةِ (حَسَنٍ).

وَاتَّصَلْتُ بِقِسْمِ الْحَجْزَاتِ فِي الْفُنْدُقِ، وَأَخْبَرْتُهُمْ بِضَرُورَةِ نَقْلِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) إِلَى جَنَاحِ الضِّيَافَةِ الْخَاصِّ بِالْأُسْرَةِ؛ فَبَعْدَ كُلِّ شَيْءٍ، تَكْلُفَةُ الْإِقَامَةِ فِي فُنْدُقِنَا بَاهِظَةٌ، خَاصَّةً فِي ذُرْوَةِ الصَّيْفِ وَالْمُوسِمِ السِّيَاحِيِّ، وَلَا يَنْزِلُ بِهِ إِلَّا الْأَثْرِيَاءُ وَالرَّاغِبِينَ فِي تَذَوُّقِ حَيَاةِ الرَّفَاهِيَّةِ.

وَلا شَكَّ أَنَّ الظُّرُوفَ الْعَصِيبَةَ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا السَّيِّدُ (شَاكِرَ) هِيَ مَا دَفَعَتْهُ لِلنُّزُولِ فِي فُنْدُقِنَا فِي هَذَا الْوَقْتِ.

وَكُنْتُ أَفْكِرُ فِي أَنَّ فُنْدُقنَا - غَالِبًا - يُغْلِقُ بَابَ الْحَجْزِ قَبْلَ شَهْرَيْنِ تَقْرِيبًا مِنْ دُخُولِ الْمُوسِمِ السِّيَاحِيِّ لِامْتِلَائِهِ، وَيَبْقَى مَفْتُوحًا فِي حَالَةٍ قَامَ الْبَعْضُ بِإِلْغَاءِ الْحَجْزِ، أَوْ لِفِئَةٍ خَاصَّةٍ بِأَسْعَارٍ.. لِنَقُلْ إِنَّـهَا أَكْثَرُ مِنَ الْمُعْتَادِ.. هَلْ مَا يُوَاجِهُهُ هُوَ مَا أَكْرَهُهُ عَلَى الْإِقَامَةِ بِفُنْدُقِنَا فِي هَذَا الْوَقْتِ!

تَنَاوَلْتُ الْحَاسُوبَ اللَّوْحِيَّ وَبَحَثْتُ عَنِ اسْمِ (شَاكِرَ صَادِقٍ)، وَوَجَدْتُهُ فِي جَنَاحٍ عَادِيٍّ يُطِلُّ عَلَى الْمَدِينَةِ وَلَيْسَ الْبَحْرَ، أَمَّا الْمُفَاجَأَةُ فَكَانَتْ فِي السِّعْرِ الْمُنْخَفِضِ لِإِقَامَتِهِ، وَهَذَا لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ إِلَّا... نَعَمْ، لَقَدْ قَامَ بِالْحَجْزِ مُنْذُ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ.. مُنْذُ سِتَّةِ أَشْهُرٍ تَقْرِيبًا..

لِمَاذَا أَجَّلَ قُدُومَهُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ؟ أَمْ أَنَّ قُدُومَهُ كَانَ بِغَرَضِ الاسْتِمْتَاعِ بِالصَّيْفِ ثُمَّ اسْتَجَدَّ مَا غَيَّرَ الْحَالَ؟..

*** * ***

انْهَمَكَ جَدِّي فِي إِصْلَاحِ شَيْءٍ مَا فِي شَبَكَةِ أَنَابِيبِ الْمِيَاهِ الْخَاصَّةِ بِالْمَسْجِدِ التَّابِعِ لِلْفُنْدُقِ، وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ، وَبَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ يَنْطِقُ بِاسْمِ مِفْتَاحٍ مِنْ مَفَاتِيحِ الصِّيَانَةِ، فَأُعْطِيهِ مَا يُرِيدُ، وَأَنَا أَسْرُدُ عَلَيْهِ حِكَايَةَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، وَهُوَ يَتَفَاعَلُ مَعِي بِهَمْهَمَاتٍ لَا تُدْرَكُ مَغْزَاهَا..

فَرَغَ مِمَّا فِي يَدَيْهِ، وَأَزَاحَ نَفْسَهُ لِيَبْدُوَ وَجْهُهُ بِلِحْيَتِهِ الْبَيْضَاءِ الشَّبِيهَةِ بِلِحْيَةِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ).

اعْتَدَلَ، وَحَذَبَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى صَدْرِهِ، وَعَقَدَ كَفَّيْهِ حَوْلَهُمَا، وَيُمْنَاهُ لَا تَزَالُ تَمْسِكُ بِأَحَدِ مَفَاتِيحِ الصِّيَانَةِ، وَالتَّفْكِيرُ يَكْسُو وَجْهَهُ.

بَعْدَ هُنَيْهَةٍ قَالَ:

- لَقَدْ بَدَأْتَ بَدَايَةً غَيْرَ مُوَفَّقَةٍ، لَقَدِ اسْتَعْجَلْتَ بَحَثَّهُ عَلَى الْبُوحِ بِمَا لَدَيْهِ، كَانَ عَلَيْكَ مُوَاسَاتُهُ وَالتَّخْفِيفُ عَنْهُ، ثُمَّ تَبْشِيرُهُ بِأَنَّهُ جَاءَ الْمَكَانَ الصَّحِيحَ، وَتُذَكِّرُ لَهُ بَعْضَ الْحِكَايَاتِ وَالْقَصَصِ الَّتِي عَايَشْتَهَا فِي الْفُنْدُقِ، وَتَتْرُكُ أَمْرَ الْبُوحِ بِمَا فِي صَدْرِهِ لَهُ أَوْ تَسْتَدْرِجُهُ فِي وَقْتٍ آخَرَ.

قُلْتُ وَأَنَا أَقْعُدُ الْقُرْفُصَاءَ قُبَالَتَهُ:

- فَعَلْتُ مَا قُلْتَهُ، رُبَّمَا أَخْطَأْتُ بِأَنِّي اسْتَعْجَلْتُهُ عَلَى الْبُوحِ بِمَا فِي صَدْرِهِ.

الْتَفَتَ إِلَيَّ، تَرَكَ مَا نَحْنُ فِيهِ، قَالَ:

- هَلْ تَعْلَمُ؟ لَقَدْ عَرَضْتُ عَلَى أَبِيكَ أَنْ يُعْطِيَكَ مُهْلَةً كَيْ تَعِيشَ حَيَاةً أُخْرَى مِنَ اخْتِيَارِكَ قَبْلَ أَنْ يَعْهَدَ إِلَيْكَ بِإِدَارَةِ الْفُنْدُقِ، وَلَكِنَّهُ أَصَرَّ إِنَّكَ سَتَجِدُ فِي الْفُنْدُقِ الْخِبَرَاتِ الْمُتَنَوِّعَةَ وَالْكَافِيَةَ.

حَطَّ الْقُنُوطُ عَلَى وَجْهِ جَدِّي، هَزَّ رَأْسَهُ بِتَثَاقُلٍ وَأَنَا أُحَاوِلُ فَهْمَ حَدِيثِهِ وَالْمَنْعَطَفِ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ حَدِيثُنَا، وَأَرْدَفَ:

- الْفُنْدُقُ يُوَفِّرُ خِبَرَاتٍ مَحْدُودَةً وَمُتَقَارِبَةً، السَّفَرُ وَمُخَالَطَةُ أَنْمَاطِ الْبَشَرِ بِطِبَاعِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْمُتَفَاوِتَةِ وَمُمَارَسَةُ أَعْمَالٍ مُتَنَوِّعَةٍ، هَذَا مَا سَيَمْنَحُكَ الْخِبْرَةَ وَالدِّرَايَةَ بِالْحَيَاةِ.

أَوْمَأْتُ بِرَأْسِي أُوَافِقُهُ، وَقَدْ أَدْرَكْتُ مَغْزَى حَدِيثِهِ وَإِشَارَتَهُ الْخَفِيَّةَ إِلَى فَشْلِي فِي دَفْعِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) لِلْبُوحِ بِمَا عِنْدَهُ.

وَعَادَ هُوَ إِلَى حدِيثِنَا الْأَوَّلِ:

- لَقَدْ أَخْبَرَكَ بِالْكَثِيرِ سَوَاءٌ بِحَدِيثِهِ أَوْ بِطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ: هُوَ إِنْسَانٌ ثَرِيٌّ إِلَى حَدٍّ مَا، وَجَاءَ فِي أَمْرٍ خَاصٍّ بِأُسْرَتِهِ، أَمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِإِنْسَانٍ عَزِيزٍ عَلَى قَلْبِهِ، رُبَّمَا ابْنِهِ أَوِ ابْنَتِهِ، وَلَقَدِ اسْتَغْرَقَ الْأَمْرُ قُرَابَةَ عَامٍ، وَهُوَ يَأْمُلُ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ أَنْ يَنْقَضِيَ الْأَمْرُ أَوْ لَا يَصِيرَ إِلَى الْأَسْوَءِ، مُنْذُ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، وَمِنْ بَابِ الْحَيْطَةِ، قَامَ بِحَجْزِ جَنَاحٍ عَادِيٍّ، وَكَانَ يَأْمُلُ أَنْ يَنْقَضِيَ مَا يُنَغِّصُ عَيْشَهُ، وَيَقُومُ بِإِلْغَاءِ الْحَجْزِ، وَلَكِنَّ الْأُمُورَ ذَهَبَتْ إِلَى الْأَسْوَءِ، وَلِأَنَّ الْأَمْرَ خَاصٌّ بِأُسْرَتِهِ، فَهُوَ لا يُرِيدُ تَدَخُّلَ الشُّرْطَةِ، وَلا أَنْ تَتَنَاقَلَهُ الْأَلْسِنَةُ، وَجَدَ نَفْسَهُ مُرْغَمًا عَلَى الْقُدُومِ إِلَى هُنَا، وَفِعْلِ مَا أَخْبَرُوهُ بِهِ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ مَنْ أَخْبَرَهُ بِأَمْرِ الْفُنْدُقِ يَعْرِفُ شَخْصًا مِمَّنْ سَاعَدْنَاهُمْ فِي السَّابِقِ مَعْرِفَةً سَطْحِيَّةً، وَكِلَاهُمَا مِنْ بُسَطَاءِ النَّاسِ، وَمِنْ هَذَا جَاءَ أَمْرُ التَّمَسُّكِ وَالتَّمَسُّحِ بِالشِّعَارِ.

سَكَتَ جَدِّي هُنَيْهَةً، وَالْتَفَتَ إِلَيَّ سَائِلًا:

- فِي أَيِّ جَنَاحٍ يُقِيمُ؟

- أَمَرْتُ بِنَقْلِهِ إِلَى جَنَاحِ الضُّيُوفِ الْخَاصِّ بِأُسْرَتِنَا.

ظَهَرَ الِاسْتِحْسَانُ عَلَى وَجْهِ جَدِّي، قَالَ:

- حَسَنًا فَعَلْتَ، هَذِهِ الْخُطْوَةُ سَتُسَاعِدُكَ كَثِيرًا فِي التَّقَرُّبِ مِنْهُ.

نَهَضَ، وَأَخَذَ يَجْمَعُ أَدَوَاتِهِ، وَأَنَا أُسَاعِدُهُ فِي ذَلِكَ، انْتَهَى مِنْ تَرْتِيبِ مَا جَمَعَهُ فِي الْحَقِيبَةِ الْحَدِيدِيَّةِ الصَّغِيرَةِ، وَقَالَ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى سَاعَةِ يَدِهِ:

- تَعَلَّمِ الصَّبْرَ الْجَمِيلَ، لَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، مَاذَا سَتَفْعَلُ الْآنَ؟

أَجَبْتُهُ وَأَنَا أَسِيرُ بِجَوَارِهِ:

- سَأَعُودُ إِلَى مَكْتَبِي.

غَادَرْنَا الْحُجْرَةَ الصَّغِيرَةَ إِلَى بَرَاحِ حَدَائِقِ الْفُنْدُقِ، وَعَرَجْنَا عَلَى الْمَسْجِدِ لِإِخْبَارِ الشَّيْخِ (سَلَامَةَ) بِإِصْلَاحِ أُنْبُوبِ مِيَاهِ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ افْتَرَقْنَا: جَدِّي إِلَى مَنْزِلِ الْعَائِلَةِ الْقَائِمِ خَارِجَ حُدُودِ حَدِيقَةِ الْفُنْدُقِ، وَأَنَا إِلَى مَكْتَبِي..

* * *

انْهَمَكْتُ فِي الْإِشْرَافِ عَلَى الْأَعْمَالِ وَالْمَهَامِّ حَتَّى قَاطَعَنِي رَنِينُ هَاتِفِي، نَظَرْتُ إِلَى اسْمِ الْمُتَّصِلِ، لِأَجِدَ اسْمَ جَدِّي، قُمْتُ بِقَبُولِ الاتِّصَالِ وَأَنَا أَرْفَعُ الْهَاتِفَ إِلَى أُذُنِي.

كَانَ جَدِّي يَدْعُونِي لِلانْضِمَامِ إِلَيْهِ فِي مَطْعَمِ الْفُنْدُقِ لِتَنَاوُلِ الْغَدَاءِ، نَظَرْتُ إِلَى سَاعَةِ الْحَائِطِ الْأَنِيقَةِ أَمَامِي، دُهِشْتُ حِينَ وَجَدْتُهَا تَقْتَرِبُ مِنَ السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ قَبْلَ الْعَصْرِ، كَيْفَ مَضَى الْوَقْتُ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ؟! كَيْفَ لَا أَشْعُرُ بِالْجُوعِ؟! قَبِلْتُ دَعْوَةَ جَدِّي، وَوَضَعْتُ الْهَاتِفَ فِي جَيْبِي وَتَوَجَّهْتُ إِلَى الْمَطْعَمِ الْعَرَبِيِّ فِي الْفُنْدُقِ.

وَهُنَاكَ وَجَدْتُ جَدِّي جَالِسًا مَعَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، وَقَدِ اسْتُغْرِقَا فِي الْحَدِيثِ، وَحِينَ اقْتَرَبْتُ مِنْهُمَا، اسْتَدَارَ جَدِّي وَرَفَعَ كَفَّيْهِ عَالِيًا وَهُوَ يَهْتِفُ:

- وَهَذَا هُوَ حَفِيدِي (طَارِقٌ) مُدِيرُ الْفُنْدُقِ.

انْضَمَمْتُ إِلَيْهِمَا، فِي حِينِ تَابَعَ جَدِّي تَقْدِيمِي لِجَلِيسِهِ كَأَنِّي لَا أَعْرِفُهُ:

- وَهَذَا السَّيِّدُ (شَاكِرَ)، تَعَرَّفْتُ عَلَيْهِ وَأَنَا أَقُومُ بِإِصْلَاحِ أَنَابِيبِ الْمَطْبَخِ فِي الْجَنَاحِ الْخَاصِّ بِهِ.

إِصْلَاحُ أَنَابِيبِ مَطْبَخِ الْجَنَاحِ الْخَاصِّ بِضُيُوفِ أُسْرَتِنَا! يَا لِجَدِّي الْمَاكِرِ..

صَافَحْتُ السَّيِّدَ (شَاكِرَ) وَأَنَا أَقُولُ:

- لَقَدْ قَابَلْتُهُ مِنْ قَبْلُ، وَيُسَرُّنِي مُقَابَلَتُهُ مَرَّةً أُخْرَى.

وَأَشَارَ جَدِّي إِلَى نَادِلٍ، وَأَسْرَعَ الْأَخِيرُ بِالْقُدُومِ إِلَى مَائِدَتِنَا، وَبِمَرَحٍ يَكْفِي شَعْبًا كَامِلًا، قَالَ جَدِّي:

- يَا بُنَيَّ، نُرِيدُ الْغَدَاءَ لِثَلَاثَةٍ جِيَاعٍ.

وَالْتَفَتَ إِلَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ) وَهُوَ يَرْدِفُ:

- اطْلُبْ مَا شِئْتَ، فَنَحْنُ مَدْعُوُّونَ عَلَى نَفَقَةِ مُدِيرِ الْفُنْدُقِ.

خَرَجَتْ مِنِّي كَلِمَاتُ التَّرْحِيبِ، وَلَاحَظْتُ تَأْثِيرَ جَدِّي عَلَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ) حِينَ ارْتَفَعَتْ ضَحْكَتُهُ، وَيَقُولُ:

- الْآنَ، الْآنَ حَانَ الِانْتِقَامُ مِنْ أَسْعَارِكُمُ الْبَاهِظَةِ.

شَارَكْنَاهُ الضَّحِكَ، وَانْهَمَكَ كُلٌّ مِنَّا فِي اخْتِيَارِ وَجْبَتِهِ مِنْ قَائِمَةِ الطَّعَامِ الْمَوْضُوعَةِ أَمَامَهُ، وَالنَّادِلُ يَقُومُ بِتَسْجِيلِ مَا نُرِيدُهُ عَلَى حَاسُوبِهِ اللَّوْحِيِّ فِي يَدِهِ، حَتَّى فَرَغْنَا وَانْصَرَفَ النَّادِلُ لِيَجْلِبَ لَنَا غَدَاءَنَا.

وَدَارَتْ بَيْنَنَا أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ..

وَجَاءَ النَّادِلُ يَدْفَعُ عَرَبَةَ الطَّعَامِ، وَوَضَعَ لِكُلٍّ مِنَّا أَطْبَاقَهُ أَمَامَهُ، وَانْصَرَفَ بَعْدَ أَنْ تَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ وَلَا نَحْتَاجُ شَيْئًا آخَرَ..

وَعُدْنَا إِلَى أَحَادِيثِنَا، وَجَدِّي يَأْسِرُنَا بِحَدِيثِهِ وَحِكَايَاتِهِ الَّتِي لَا تَنْتَهِي، وَنَحْنُ نَتَفَاعَلُ مَعَهَا بِدُونِ افْتِعَالٍ.

وَفَرَغْنَا مِنْ طَعَامِنَا، وَتَنَاوَلْنَا الْقَهْوَةَ، وَافْتَرَقْنَا دُونَ أَنْ نَتَطَرَّقَ إِلَى الْمَوْضُوعِ الَّذِي يَهُمُّنِي.. وَالَّذِي ظَنَنْتُ أَنَّنَا سَنَأْتِي عَلَى ذِكْرِهِ.. مَا هِيَ حِكَايَةُ السَّيِّدِ (شَاكِرَ)؟..

* * *

3- حِكَايَةُ السَّيِّدِ (شَاكِرَ)

كُنْتُ فَرَغْتُ مِنْ جَوْلَتِي الصَّبَاحِيَّةِ فِي الْفُنْدُقِ، حِينَ أَخْبَرَنِي (حَسَنٌ) وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَى مَكْتَبِي: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ يَنْتَظِرُنِي فِي حُجْرَةِ مَكْتَبِي، شَكَرْتُهُ وَأَسْرَعْتُ الْخُطَى إِلَى مَكْتَبِي، دَخَلْتُهُ لِأَجِدَ السَّيِّدَ (شَاكِرَ) وَاقِفًا يَتَأَمَّلُ لَوْحَةً لِأَحَدِ الْأَمَاكِنِ السِّيَاحِيَّةِ، الْتَفَتَ إِلَيَّ، وَبِارْتِيَاحٍ قَالَ:

- هَا أَنْتَ أَخِيرًا، لَقَدِ انْتَظَرْتُكَ طَوِيلًا يَا صَبِيُّ.

لَفَتَ انْتِبَاهِي كَلِمَةُ "صَبِيُّ"، رَكَنْتُهَا جَانِبًا وَأَنَا أَقُولُ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)، مَرْحَبًا بِكَ.

عَادَ يَنْظُرُ إِلَى اللَّوْحَةِ، وَاقْتَرَبْتُ مِنْهُ لِأَقِفَ بِجَوَارِهِ أُشَارِكُهُ النَّظَرَ إِلَيْهَا، أَرَدْتُ أَنْ أُطْلِقَ تَعْلِيقًا حَوْلَ تَفَاصِيلِهَا، وَلَكِنَّهُ سَبَقَنِي بِالْكَلَامِ:

- مِنَ الْغَرِيبِ أَنَّنَا نَعِيشُ فِي بَلَدٍ مَلِيئَةٍ بِالْأَمَاكِنِ الْجَمِيلَةِ، وَلَا نُهْتَمُّ بِزِيَارَتِهَا حِينَ نَرْغَبُ فِي التَّرْفِيهِ عَنْ أَنْفُسِنَا.

رَغِبْتُ فِي التَّعْلِيقِ عَلَى حَدِيثِهِ، وَمِنْ جَدِيدٍ سَبَقَنِي بِالْحَدِيثِ:

- جَدُّكَ رَجُلٌ ذَكِيٌّ.. وَمَاكِرٌ! مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ يَعطِلَ أُنْبُوبَ الْمَطْبَخِ وَقَدِ اسْتَخْدَمْتُهُ مُنْذُ لَحَظَاتٍ، وَيَأْتِي مَنْ يُصْلِحُهُ بَعْدَ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ فَقَطْ، لِيَجِدَ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ عَبَثَ فِي مِفْتَاحِ تَوْزِيعِ الْمِيَاهِ الْخَارِجِيِّ، وَأَخَذَهُ التَّعَبُ عِنْدِي، فَأَدْعُوهُ لِيَسْتَرِيحَ، وَيَبْدَأُ الْحَدِيثَ الشَّيِّقَ، لِأَكْتَشِفَ.. فَجْأَةً.. أَنَّ حَفِيدَهُ هُوَ مُدِيرُ الْفُنْدُقِ الَّذِي قَابَلْتُهُ قَبْلَ قَلِيلٍ، وَيَرْوِي حِكَايَاتٍ طَرِيفَةً عَنْ تَارِيخِ الْفُنْدُقِ وَالْحِكَايَاتِ الَّتِي مَرَّ أُنَاسٌ بِهَا هُنَا، وَأَلَفَتُ انْتِبَاهَكَ هُنَا إِلَى تَأْكِيدِهِ بِضَرُورَةِ إِعْطَاءِ الْأَجْيَالِ الْجَدِيدَةِ الْفُرْصَةَ لِتَحْقِيقِ ذَاتِهَا وَإِثْبَاتِ جَدَارَتِهَا، وَأَنْ تَصْنَعَ

حِكَايَاتِهَا الْخَاصَّةَ، وَأَنَّ الْبِدَايَاتِ "غَيْرَ الْمُوَفَّقَةِ" تُوحِي بِنِهَايَاتٍ "غَيْرِ مُتَوَقَّعَةٍ"، وَأَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الثِّقَةِ وَالْقَادِرِ عَلَى مُسَاعَدَةِ الْآخَرِينَ فِيمَا يُوَاجِهُونَهُ، وَذَكَرَ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي كُنْتَ جُزْءًا مِنْهَا، هَلْ تَعْلَمُ؟

صَمَتُ هُنَيْهَةً، وَلَمْ أُنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ وَأَنَا أَسْتَمِعُ إِلَيْهِ بِاسْتِمْتَاعٍ،وَأَرْدَفَ هُوَ:

- جَدُّكَ السَّيِّدُ (طَارِقٌ) الَّذِي تَحْمِلُ اسْمَهُ، لَا يَعْرِفُ أَنِّي أَعْرِفُهُ جَيِّدًا.. كَلَّا.. لَمْ نَلْتَقِ مِنْ قَبْلُ.. كَرِجَالِ أَعْمَالٍ، نُحِبُّ أَنْ نَعْرِفَ الْكَثِيرَ عَنْ رِجَالِ الْأَعْمَالِ الْآخَرِينَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ جَدَّكَ يَحْتَلُّ مَكَانَةً مُمَيَّزَةً فِي عَالَمِنَا، رَجُلٌ نَاجِحٌ.. غَامِضٌ.. هُنَاكَ بَعْضُ الشَّائِعَاتِ حَوْلَ ثَرْوَتِهِ، خَاصَّةً وَقَدْ جَمَعَهَا مِنَ الصِّفْرِ. وَلَكِنَّ الْأَمْرَ الْمُطْمَئِنَّ فِي هَذِهِ الْإِشَاعَاتِ، هِيَ الْمَقُولَةُ الْمَعْرُوفَةُ عَنْهُ: "إِذَا جَمَعَكَ جَامِعٌ بِالسَّيِّدِ (طَارِقٍ)، فَتَأَكَّدْ أَنَّ يَدَيْكَ نَظِيفَتَيْنِ، حَتَّى لَا تُعَجِّلَ نِهَايَتُكَ"، هَذَا يَعْنِي أَنَّهُ "يَلْعَبُ" بِنَزَاهَةٍ.. جِئْتُ الْفُنْدُقَ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ مَالِكُهُ، وَلَكِنِّي لَمْ أَتَوَقَّعْ أَنِّي سَأَلْتَقِيهُ، وَلَا أَنَّ مُدِيرَ الْفُنْدُقِ هُوَ حَفِيدُهُ.. فَالْمَرْأَةُ الَّتِي أَخْبَرَتْنِي عَنِ الْفُنْدُقِ - وَهِيَ بِالْمُنَاسَبَةِ مُدَبِّرَةُ مَنْزِلِي، وَالَّتِي بَدَأَ كُلُّ شَيْءٍ بِهَا - قَالَتْ: إِنَّ كُلَّ مَا عَلَيَّ هُوَ التَّمَسُّحُ بِشَيْءٍ مِنَ الْفُنْدُقِ.. بِبَابِهِ.. بِجِدْرَانِهِ.. وَلَكِنِ الْأَفْضَلُ شَيْئًا مِنْ دَاخِلِهِ، وَسَيَبْعَثُ اللّٰهُ إِلَيَّ أَوْلَادَ الْحَلَالِ كَيْ يَهِبُّوا لِنَجْدَتِي وَيُقِيلُوا عَثْرَتِي.. لَا شَكَّ أَنَّكَ تَوَقَّعْتَ أَنِّي رَمَيْتُ بِخَزَعْبَلَاتِهَا خَلْفِي وَتَجَاهَلْتُهَا.. وَكَرَّرَتْ هِيَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَهِيَ تُشَجِّعُنِي وَتُرَغِّبُنِي، وَأَنَا أَزْجُرُهَا وَأَنْهَرُهَا، وَمَعَ الْوَقْتِ أَصَابَنِي الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ، وَأَخَذَتْ نَظْرَتِي لِكَلَامِهَا تَتَغَيَّرُ وَتَتَبَدَّلُ، وَبَحَثْتُ عَنِ الْفُنْدُقِ فِي شَبَكَةِ الْإِنْتِرْنِتِ، لِأَجِدَ شَيْئًا

بَعِيدًا كُلَّ الْبُعْدِ عَمَّا فِي مُخَيِّلَتِي: فُنْدُقٌ مَشْهُورٌ فِي أَوْجِ الْجَمَالِ وَالْفَخَامَةِ وَالضَّخَامَةِ.. لِوَهْلَةٍ حَسِبْتُ أَنِّي أَخْطَأْتُ، وَمَعَ تَكْرَارِ الْبَحْثِ وَالسُّؤَالِ وَالرُّجُوعِ إِلَى مُدَبِّرَةِ مَنْزِلِي، تَيَقَّنْتُ أَنَّهُ الْمَقْصُودُ، وَلَا أُنْكِرُ أَنَّ الْفُضُولَ الشَّدِيدَ قَدْ أَصَابَنِي، كُنْتُ أَتَخَيَّلُ مَكَانًا حَقِيرًا، وَفِي زَاوِيَتِهِ أَحَدُ الدَّجَالِينَ.. وَلَكِنْ هَذَا شَيْءٌ مُخْتَلِفٌ.. تَمَامًا يَا صَبِيُّ.. هَذَا جَعَلَنِي أُعِيدُ النَّظَرَ إِلَى الْفُنْدُقِ، وَأَبْحَثُ مِنْ جَدِيدٍ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنْ أَمْلَاكِ جَدِّكَ، وَأَنَّ أَبَاكَ هُوَ مَنْ يُدِيرُهُ.. يَبْدُو أَنَّكَ تَسَلَّمْتَ الْإِدَارَةَ مُنْذُ وَقْتٍ قَصِيرٍ.. لَمْ أَكُنْ رَاغِبًا فِي لِقَاءِ أَحَدِهِمَا، وَلَكِنِّي عَزَمْتُ - فِي حَالِ سَاءَتِ الْأُمُورُ أَكْثَرَ - عَلَى الْمَجِيءِ إِلَى هُنَا.. لَعَلَّكَ يَا صَبِيُّ اسْتَنْتَجْتَ مِنْ حَدِيثِي مِقْدَارَ مَا أَصَابَنِي مِنَ الْحُزْنِ وَالْهَمِّ وَالْغَمِّ الَّذِي دَفَعَنِي إِلَى الْقُدُومِ إِلَى الْفُنْدُقِ وَالتَّمَسُّحِ بِعَلَامَتِهِ فِي مَشْهَدٍ يُثِيرُ الرِّثَاءَ، وَلَا تَقْبَلُهُ نَفْسِي لَوْلَا مَا أَصَابَهَا.

صَمَتَ.. الْتَفَتَ إِلَيَّ.. تَأَمَّلَنِي.. تَابَعَ:

- جِئْتُ إِلَى هُنَا، تَرَدَّدْتُ طَوِيلًا حَتَّى أَقُومَ بِأَمْرِ ذَاكَ التَّمَسُّحِ، وَفِي النِّهَايَةِ أَكْرَهْتُ نَفْسِي عَلَى فِعْلِهَا، وَلَا أَجِدُ مَا أَقُولُهُ سِوَى أَنِّي انْهَرْتُ تَمَامًا، مَشَاعِرُ الْحُزْنِ وَالْأَسَى الَّتِي مَلَأَتْ قَلْبِي عَلَى مَا يَزِيدُ عَنْ عَامٍ كَامِلٍ، وَحَبَسْتُهَا فِي صَدْرِي، انْفَجَرَتْ فَجْأَةً كَنَحِيبٍ وَشَلَّالَاتٍ مِنَ الدُّمُوعِ فَوْرَ إِمْسَاكِي بِعَلَامَةِ الْفُنْدُقِ، ثُمَّ حَدَثَ مَا حَدَثَ، وَجِئْتَ أَنْتَ بِي إِلَى مَكْتَبِكَ.. حَسَنًا.. لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ كَيْفَ تَتِمُّ الْأُمُورُ، كُنْتُ أَحْسِبُهَا قِصَّةً مِنْ قِصَصِ أَلْفِ لَيْلَةٍ وَلَيْلَةٍ، حَيْثُ تَزُولُ الْغُمَّةُ وَتَتَحَقَّقُ السَّعَادَةُ بِطَرِيقَةٍ سِحْرِيَّةٍ، لِذَلِكَ.. حِينَئِذٍ فِي مَكْتَبِكَ.. خَطَرَ لِي أَنَّ مَوْضُوعَ التَّمَسُّحِ قَدْ فَشِلَ.. ثُمَّ الْتَقَيْتُ جَدَّكَ،

فَأَخْبَرَنِي بِطَرِيقَتِهِ الذَّكِيَّةِ الْمَاكِرَةِ أَنَّ الْأَمْرَ لَا يَعْدُو لَجْنَةَ إِصْلَاحٍ تَمُدُّ يَدَ الْعَوْنِ وَالْمُسَاعَدَةِ لِلْآخَرِينَ.. وَأَنَّ الْبُسَطَاءَ مِنَ النَّاسِ يُضِيفُونَ الْكَثِيرَ مِنَ الْأَوْهَامِ وَالْخَيَالَاتِ إِلَى كَلَامِهِمْ.. وَالْآنَ يَا صَبِيُّ..

إِنْ كَانَ يَنْتَظِرُ تَعْقِيبًا مِنِّي، فَقَدْ خَابَ ظَنُّهُ، فَصَمْتِي هُوَ مَا تَكَلَّمَ.

عَادَ يَنْظُرُ إِلَى اللَّوْحَةِ.. أَرْدَفَ:

- هَلْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ سَتَهْرَعُ بَاكِيًا إِلَى جَدِّكَ، تَسْأَلُهُ الْعَوْنَ وَالْمُسَاعَدَةَ؟

آهِ.. هَذَا هُوَ بَيْتُ الْقَصِيدِ.. هَذَا مَا يَرْمِي إِلَيْهِ بِكَلِمَةِ "صَبِيُّ".. تَوَجَّهْتُ إِلَى مَكْتَبِي وَتَعَمَّدْتُ الْجُلُوسَ خَلْفَهُ.. شَبَكْتُ كَفَّيَّ أَمَامَ وَجْهِي، وَانْتَقَيْتُ نُقْطَةً فِي فَضَاءِ الْمَكْتَبِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهَا، تَكَلَّمْتُ:

- سَيِّدُ (شَاكِر)..

شَعَرْتُ بِهِ يَلْتَفِتُ إِلَيَّ.. نَظَرْتُ نَحْوَهُ.. تَابَعْتُ:

- تَفَضَّلْ بِالْجُلُوسِ..

وَاتَّبَعْتُهَا بِإِشَارَةٍ إِلَى الْمَقْعَدِ أَمَامَ الْمَكْتَبِ، ابْتَسَمَ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يُدْرِكُ مَا أَقُومُ بِهِ، لَنْ أُنْكِرَ أَنَّهُ بِعُمْرِهِ الَّذِي نَاهَزَ السَّبْعِينَ، يَمْلِكُ خِبَرَاتٍ وَدِرَايَةً بِالنَّاسِ وَالْحَيَاةِ أَضْعَافَ مَا أَمْلِكُهُ.. بِكَثِيرٍ..

انْتَظَرْتُ حَتَّى اتَّخَذَ مَجْلِسَهُ، ثُمَّ قُلْتُ:

- يُهِمُّنِي أَنْ تَعْلَمَ أَنِّي لَنْ أَسْمَحَ لِنَفْسِي بِتَجَاهُلِ مَنْ يَحْتَاجُ الْعَوْنَ وَالْمُسَاعَدَةَ، لَنْ أَتَأَخَّرَ عَنْهُ، سَأَمُدُّ لَهُ يَدَ الْعَوْنِ.. حَتْمًا.. هَذَا مَا نَشَأْتُ عَلَيْهِ..

هَذَا مَا تَعَلَّمْتُهُ.. مِنْ دِينِي.. مِنْ أَبِي وَأُمِّي.. مِنْ جَدِّي وَجَدَّتِي.. هَذَا الْأَمْرُ طَبِيعَةٌ فِينَا.. مِنَّا.. مَآسِي الْآخَرِينَ لَيْسَتْ بَابًا لِلتَّرْفِيهِ وَالتَّسْلِيَةِ.. بَلْ هِيَ دَعْوَةٌ لَنَا لِنَهَبَّ لِنَجْدَتِهِمْ وَالتَّخْفِيفِ عَنْهُمْ.. حِينَ أَرَى رَجُلًا كَرِيمَ الْمَحْيَا يَتَشَبَّثُ بِعَلَامَةِ الْفُنْدُقِ فِي مَشْهَدٍ يُثِيرُ الْحُزْنَ وَالرِّثَاءَ.. هُنَا يَجِبُ أَنْ أُسَارِعَ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا حَلَّ بِهِ، وَأَنْ أَشْرَعَ فِي رَفْعِ الْمَعَانَاةِ عَنْهُ.. التَّعَاطُفُ.. الرِّثَاءُ.. الْأَسَى.. هَذَا رَأْسُ مَالِ الْعَاجِزِ وَالْمُفْلِسِ، وَأَنَا لَسْتُ أَحَدَهُمَا، حِينَ لَمْ أَسْتَطِعْ مَدَّ يَدِ الْعَوْنِ إِلَيْكَ، أَوْ لِنَسْتَخْدِمَ تَعْبِيرًا أَدَقَّ: حِينَ رَفَضْتَ يَدِي الْمَمْدُودَةَ إِلَيْكَ، لَمْ يُهِمَّنِي أَمْرُ رَفْضِكَ بِقَدْرِ مَا أَهَمَّنِي رَفْعُ الْحُزْنِ وَالْأَلَمِ وَالْمَعَانَاةِ عَنْكَ، لِذَلِكَ أَسْرَعْتُ إِلَى جَدِّي، لَعَلَّهُ يَكُونُ قَادِرًا عَلَى مَا فَشِلْتُ فِيهِ..

تَرَكْتُ لِلصَّمْتِ هُنَيْهَةً يَنْعَمُ بِهَا، قَبْلَ أَنْ أَنْبِذَهُ بِعَوْدَةِ الْكَلَامِ إِلَى لِسَانِي:

- قَبْلَ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ فَقَطْ.. إِذَا سَأَلْتَنِي: لِمَ نَفْعَلُ مَا نَفْعَلُهُ؟ جَدِّي.. أَبِي.. أَنَا.. لَأَجَبْتُكَ بِكَلِمَتَيْنِ وَحَرْفٍ: "حُبًّا فِي الْمَغَامَرَةِ".. الْمَغَامَرَةُ الَّتِي تَأْتِي بِهَا هُمُومُ وَعَثَرَاتِ مَنْ يَلْجَأُونَ إِلَيْنَا.. الْمَغَامَرَةُ الَّتِي تَجْرِي فِي دِمَائِنَا.. الْمَغَامَرَةُ الَّتِي نَعِيشُ بِهَا أَعْمَالَنَا وَحَيَاتَنَا.. وَإِنْ تَسْأَلْنِي الْآنَ!.. أَقُولُ لَكَ..

كَبَحْتُ لِسَانِي.. نَظَرْتُ إِلَيْهِ.. أَرْدَفْتُ:

- إِنَّنَا نَفْرَحُ وَنَسْعَدُ بِمُسَاعَدَةِ النَّاسِ، بِإِزَالَةِ هُمُومِهِمْ، بِتَفْرِيجِ كُرَبَاتِهِمْ، بِرَسْمِ الِابْتِسَامَةِ وَالسَّعَادَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَيَأْتِي هَذَا بِمَغَامَرَةٍ أَوْ بِدُونِهَا؟ إِنَّهَا أَشْيَاءُ نُحِبُّ الْقِيَامَ بِهَا؛ لِأَنَّهَا تُدْخِلُ السُّرُورَ فِي قُلُوبِنَا وَقُلُوبِ الْآخَرِينَ.

وَلَا يُهِمُّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ: أَنَا.. أَبِي.. جَدِّي.. شَخْصٌ يَعْمَلُ لَدَيْنَا!.. مَا يُهِمُّ هُوَ تَحْقِيقُ الْغَايَةِ.. وَلَا يُهِمُّ أَنْ يَأْتِيَ مَا تَبْتَغِيهِ مِنْ قِبَلِي أَوْ قِبَلِ جَدِّي، طَالَمَا تَحَقَّقَتِ الْغَايَةُ، وَهِيَ ذَهَابُ مَا يُثْقِلُ كَاهِلَكَ وَيَمْلَأُ قَلْبَكَ بِالْأَشْجَانِ.

لَمْ يَتَكَلَّمْ.. لَمْ يَنْظُرْ إِلَيَّ.. وَاجِمَةٌ أَسَارِيرُهُ.. سَاهِمَةٌ نَظَرَاتُهُ.. شَعَرَ أَنِّي فَرَغْتُ مِنْ كَلَامِي.. اقْتَرَضَ ضَحْكَةً مِنْ حَزِينٍ.. وَالْتَفَتَ إِلَيَّ وَعَيْنَاهُ تَفِرَّانِ مِنِّي بَيْنَ أَشْيَاءَ مَكْتَبِي.. قَالَ:

- خُطْبَةٌ طَوِيلَةٌ، يَبْدُو أَنِّي أَوْجَعْتُكَ بِكَلَامِي..

انْفَرَجَتْ شَفَتَايَ لِأَعْتَرِضَ، وَلَكِنَّ كَفَّهُ الْمُلْقَاةَ عَلَى مَكْتَبِي انْتَصَبَتْ تَرْجُونِي أَنْ لَا أَفْعَلَ، وَهُوَ يُوَاصِلُ الْحَدِيثَ:

- رُبَّمَا أَسَأْتُ إِلَيْكَ، وَأَنَا أَعْتَذِرُ مِنْكَ لِذَلِكَ.. أَنْتَ.. جَدُّكَ.. وَأَبُوكَ الَّذِي لَمْ أَرَهُ إِلَى الْآنَ.. لَسْتُمْ كَمَا كُنْتُمْ فِي مُخَيِّلَتِي وَأَفْكَارِي.. الْآنَ أَفْهَمُ كَيْفَ حَقَّقَ فُنْدُقُكُمْ شُهْرَتَهُ؟ لِمَاذَا لَمْ تَذْهَبِ الشُّهْرَةُ إِلَى أَشْخَاصِكُمْ وَبَقِيَتْ لِلْفُنْدُقِ ذَاتِهِ؟ الْمَسْجِدُ حِينَ رَأَيْتُهُ، أَصَابَتْنِي الدَّهْشَةُ، وَأَدْرَكْتُ أَنِّي مَعَ أُنَاسٍ لَهُمْ طَبِيعَةٌ مُخْتَلِفَةٌ...

قَاطَعْتُهُ وَالدَّهْشَةُ مِنْ وَجْهِي إِلَى كَلِمَاتِي:

- الْمَسْجِدُ أَصَابَكَ بِالدَّهْشَةِ! وَلِمَ؟

بِابْتِسَامَةٍ تَبِعَتْ كَأْسَ الْعَلْقَمِ، أَجَابَنِي:

- أَنَا رَجُلُ أَعْمَالٍ يَا سَيِّدُ (طَارِقَ).

مَا الْحَاجَةُ إِلَى مَسْجِد فِي أَرْضِ الْفُنْدُقِ فِي بَلَدٍ مَلِيءٍ بِالْمَسَاجِدِ؟! يَكْفِي مُصَلًّى صَغِيرٌ فِي إِحْدَى غُرَفِ الْفُنْدُقِ الْمُهَمَّشَةِ، وَلْنَجْعَلْ مَوْضِعَ الْمَسْجِدِ

حَمَّامَ سِبَاحَةٍ، أَوْ لِإِضَافَةِ أَقْسَامٍ وَمَرَافِقَ إِلَى الْفُنْدُقِ، أَوْ أَيِّ شَيْءٍ يُدِرُّ عَلَيْنَا الْمَالَ، الشِّبْرُ الْوَاحِدُ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ لَهُ ثَمَنٌ بَاهِظٌ، التَّخَلِّي عَنْ هَذَا يَحْتَاجُ أَنْفُسًا تَنْظُرُ إِلَى الْمَالِ نَظْرَةً تَخْتَلِفُ عَنْ نَظْرَةِ عُمُومِ النَّاسِ.

لَا أَدْرِي مَاذَا أَقُولُ لَهُ،اصْطَنَعْتُ ابْتِسَامَةً، قُلْتُ:

- يَبْدُو أَنَّكَ تَحَرَّيْتَ عَنْ فُنْدُقِنَا؟!

جَاوَبَتْنِي تَنَهِيدَةٌ طَوِيلَةٌ، تَبِعَهَا حَدِيثُهُ:

- أَنَا كُنْتُ رَجُلَ أَعْمَالٍ، وَرَجُلَ الْأَعْمَالِ يَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي سَيَضَعُ قَدَمَهُ فِيهِ.

تَبِعَ قَوْلَهُ صَمْتٌ طَوِيلٌ، وَكُلٌّ مِنَّا يَسْبَحُ فِي خَوَاطِرِهِ وَيُفَكِّرُ فِيمَا قَدْ قِيلَ، حَتَّى قَطَعْتُهُ بِسُؤَالِي:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ).. أَمَا آنَ الْوَقْتُ لِتُخْبِرَنِي بِقِصَّتِكَ؟

وَكَأَنَّ الْحُزْنَ وَالْأَسَى فِي وِعَاءٍ فَوْقَ رَأْسِهِ، يَنْتَظِرَانِ هَذَا السُّؤَالَ لِيَنْسَكِبَا عَلَى وَجْهِهِ وَبَدَنِهِ، انْحَنَى رَأْسُهُ، وَتَغَضَّنَ وَجْهُهُ، وَارْتَخَتْ أَكْتَافُهُ، وَمَالَ جِذْعُهُ، وَتَهَدَّجَ صَوْتُهُ وَهُوَ يَقُولُ:

- حَفِيدَتِي.. حَفِيدَتِي يَا سَيِّدُ (طَارِقَ).

سَأَلْتُهُ:

- مَاذَا عَنْهَا؟

انْفَجَرَ يَبْكِي فِي مَشْهَدٍ آخَرَ يُقَطِّعُ نِيَاطَ الْقَلْبِ، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ:

- تُ.. تُرِيدُ قَتْلِي.. حَفِيدَتِي.. تَسْعَى لِلْقَضَاءِ عَلَيَّ..

وَانْخَرَطَ فِي بُكَاءٍ مَرِيرٍ طَوِيلٍ، بُكَاءٌ امْتَزَجَ بِحَدِيثٍ مُبْهَمٍ مُتَنَاثِرٍ مُتَبَاعِدٍ عَنْ حَفِيدَتِهِ، وَلَمْ أُقَاطِعْهُ حَتَّى أَفْرَغَ انْفِعَالَهُ تَمَامًا، وَتَوَقَّفَ عَنِ الْبُكَاءِ.

وَسَادَ السُّكُونُ وَالْهُدُوءُ الْمَكْتَبَ.. أَخَذْتُ بُرْهَةً، حَتَّى قُلْتُ بِصَوْتٍ لِلْخُفُوتِ أَقْرَبَ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ).. لَمْ لَا تُخْبِرُنِي بِالْأَمْرِ مِنْ بَدَايَتِهِ؟

مَضَتْ لَحَظَاتٌ لَيْسَتْ بِالْقَلِيلَةِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْنِي، وَخَابَ ظَنِّي حِينَ تَكَلَّمَ بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ:

- تُرِيدُهَا مِنَ الْبِدَايَةِ؟ وَلِمَ لَا؟ سَأُخْبِرُكَ بِكُلِّ شَيْءٍ.. وَمِنَ الْبِدَايَةِ..

وَبَدَأَ يُخْبِرُ حِكَايَتَهُ..

الْحَمْدُ لِلَّهِ..

كَمْ خَشِيتُ أَنْ نَصِلَ إِلَى "تَمَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ" وَلَمْ تَبْدَأِ الْقِصَّةُ بَعْدُ..

* * *

- أُمُّ عَلِيٍّ.. يَا أُمَّ عَلِيٍّ.. أَيْنَ أَنْتِ يَا (أُمَّ عَلِيٍّ)؟

كُنْتُ أُنَادِي عَلَى مُدَبِّرَةِ مَنْزِلِي، وَأَنَا أَقِفُ فِي بَهْوِ مَنْزِلِي، وَأَنْتَظِرُ مِنْهَا أَنْ تَهَبَّ إِلَيَّ.. وَلَمْ يُجِبْنِي أَحَدٌ.. أَيْنَ ذَهَبَتْ هَذِهِ الْعَجُوزُ؟..

ارْتَفَعَ صَوْتِي مِنْ جَدِيدٍ بِالنِّدَاءِ عَلَيْهَا، وَهَذِهِ الْمَرَّةَ جَاوَبَنِي صَوْتُ حَفِيدَتِي (حَسْنَاءَ) وَهِيَ تَقُولُ:

- جَدِّي الْحَبِيبُ، لَقَدْ أَصْبَحَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) عَجُوزًا.

بِسَعَادَةٍ كَبِيرَةٍ اسْتَقْبَلْتُ قُبْلَتَهَا عَلَى خَدِّي، وَابْتِسَامَةٍ تَكْفِي الْكَوْنَ، الْتَفَتُّ إِلَيْهَا، قُلْتُ:

- وَمَاذَا تَقْتَرِحِينَ؟ أَنَبْحَثُ عَنْ أُخْرَى؟

احْتَضَنَتْ ذِرَاعِي بِكِلْتَا يَدَيْهَا، وَهِيَ تَقُودُنِي إِلَى مَجْلِسِنَا الْمُعْتَادِ فِي الْحَدِيقَةِ، وَتَقُولُ بِلَهْجَةِ مَنْ يَنْصَحُ طِفْلَهُ الْحَبِيبَ:

- لَا.. لَا.. جَدِّي الْحَبِيبُ.. (أُمُّ عَلِيٍّ) مَعَنَا مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ، وَهَلْ نُكَافِئُهَا حِينَ صَارَتْ عَجُوزًا بِالتَّخَلِّي عَنْهَا؟ لَا، لَا، لَا، أَنَا أَقْتَرِحُ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ مَنْ يُعِينُهَا، أَنَا أَقْتَرِحُ أَنْ نَبْحَثَ عَنْ أُخْرَى شَابَّةٍ تُعِينُهَا فِي شِرَاءِ حَوَائِجِ الْبَيْتِ مِنَ السُّوقِ، وَمُسَاعَدَتِهَا فِي الْأَعْبَاءِ الثَّقِيلَةِ، آهْ، مَاذَا عَنْ (أَبِي إِسْمَاعِيلَ)؟

تَوَقَّفْنَا عَنِ الْمَسِيرِ، وَالْتَفَتُّ إِلَيْهَا بِكُلِّي وَأَنَا أَقُولُ:

- مَاذَا عَنْهُ؟

وَتَرَكَتْ ذِرَاعِي، أَزَالَتْ شَيْئًا مَا عَنْ قَمِيصِي، وَمَسَحَتْ آخَرَ عَنْ عُنُقِي وَهِيَ تَقُولُ:

- لَقَدْ صَارَ شَيْخًا كَبِيرًا، يَنْهَضُ بِمَشَقَّةٍ كَيْ يَفْتَحَ الْبَوَّابَةَ أَوْ يُغْلِقَهَا، أَمَا آنَ الْآوَانُ لِاسْتِبْدَالِهِ؟

بِطَرَفِ سَبَّابَتِي، ضَرَبْتُ أَرْنَبَةَ أَنْفِهَا، أَجَبْتُهَا:

- لَا أَسْتَطِيعُ، لِذَاتِ مَا ذَكَرْتِيهِ عَنْ (أُمِّ عَلِيٍّ)، إِنَّهُ مَعِي مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ.

أَعْلَمُ أَنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ، حَتَّى إِنِّي - أَحْيَانًا - أَفْتَحُ الْبَوَّابَةَ بِنَفْسِي، وَلَكِنِّي لَا أَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى اسْتِبْدَالِهِ.

أَطْلَقَتْ ضَحْكَةً جَعَلَتْ عَصَافِيرَ الْحَدِيقَةِ تَحُومُ حَوْلَنَا ~ لا تعليق ~ ، قَالَتْ:

- أَيَعْقُلُ أَنْ يَخْرُجَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ رَجُلِ أَعْمَالٍ؟

وَعَادَتْ تَحْتَضِنُ ذِرَاعِي وَتَدْفَعُنِي لِمُوَاصَلَةِ السَّيْرِ، وَتَسْأَلُنِي:

- مَاذَا تُرِيدُ؟

الْتَفَتُ إِلَيْهَا، كَرَّرْتُ سُؤَالَهَا بِحَيْرَةٍ:

- مَاذَا أُرِيدُ؟

زَادَتْ بَسْمَتُهَا ابْتِسَامًا، وَبِمَرَحٍ قَالَتْ:

- لَمْ تُنَادِ (أُمَّ عَلِيٍّ)؟ مَاذَا تُرِيدُ مِنْهَا؟

نَظَرْتُ إِلَى قَلْبِي مَلِيًّا، وَأَجَبْتُهَا:

- هَهْ.

الْحَقِيقَةُ أَنِّي نَسِيتُ تَمَامًا لِمَاذَا كُنْتُ أُنَادِي (أُمَّ عَلِيٍّ).. وَكَيْفَ لَا أَنْسَى!..

أَرْدَفْتُ:

- لَا أَعْلَمُ، لَقَدْ نَسِيتُ..

عَادَتِ الطُّيُورُ تَتَزَاحَمُ حَوْلَنَا مَعَ ضَحْكَتِهَا الْجَمِيلَةِ!!! ..

قَالَتْ:

- مَنْ هُوَ السَّعِيدُ الَّذِي خَلَبَ لُبَّكَ وَأَخَذَ عَقْلَكَ؟

إِنَّهُ بِجِوَارِي.. يَحْتَضِنُ ذِرَاعِي.. قَلْبِي يَسِيرُ عَلَى أَقْدَامٍ.. رُوحِي فِي هَيْئَةِ إِنْسَانٍ.. أَجَبْتُهَا:

- فَتَاةٌ يُقَالُ لَهَا "حَسْنَاءُ"، لَا أَنْصَحُكِ بِالتَّعَرُّفِ إِلَيْهَا كَيْ لَا يَذْهَبَ عَقْلُكِ.

عَادَ الْكَوْنُ يَصْدَحُ بِضَحْكَتِهَا، وَقُبْلَةٍ خَاطِفَةٍ عَلَى وَجْنَتِي..

بَلَغْنَا مَجْلِسَنَا الْمُعْتَادَ فِي الْحَدِيقَةِ، وَأَجْلَسَتْنِي بِرِفْقٍ عَلَى مَقْعَدِي، قَبْلَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ تَفْكُرُ بِعُمْقٍ فِي مَشْهَدٍ يَتَمَنَّى رَسَّامُو الْعَالَمِ لَوْ حَظُوا بِمِثْلِهِ.

قَالَتْ:

- أَوْشَكَ أَذَانُ الظُّهْرِ، الْوَقْتُ لَا يَسْمَحُ بِأَشْيَاءَ كَبِيرَةٍ، لَدَيْكَ الْآنَ خِيَارَانِ: فِنْجَانُ قَهْوَةٍ أَوْ عَصِيرُ بُرْتُقَالٍ. أَيُّهُمَا تُرِيدُ؟

لَمْ تَنْتَظِرْ رَدًّا مِنِّي، وَأَرْدَفَتْ:

- سَأَخْتَارُ لَكَ عَصِيرَ الْبُرْتُقَالِ، مَاذَا قُلْتَ يَا جَدِّي الْحَبِيبُ؟

قُلْتُ وَأَنَا أَمْلَأُ عَيْنَيَّ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ تَغِيبَ عَنْهُمَا:

- لَنْ أَعْرِفَ نَفْسِي أَكْثَرَ مِنْكِ، عَصِيرُ الْبُرْتُقَالِ مَعَ مِلْعَقَةِ (حَسْنَاءَ) سَيَكْفِينِي إِلَى أَنْ أَفْرَغَ مِنْهُ.

أَطَّلَتِ الْعَصَافِيرُ وَالطُّيُورُ مِنْ بَيْنِ الْأَغْصَانِ تَنْظُرُ إِلَيْهَا وَهِيَ تَضْحَكُ ~ لن أُعلِّق بحرفٍ واحد ~ ، ثُمَّ تَقُولُ:

- عَلَى جَنَاحِ السُّرْعَةِ، وَلَكِنَّنَا سَنُقَلِّلُ مِنَ (حَسْنَاءَ) لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى الصِّحَّةِ.

أَسْرَعْتُ أَقُولُ:

- حَسْنَاءُ تُحَسِّنُ صِحَّتِي، أَكْثِرِي مِنْهَا وَقَلِّلِي مِنَ الْبُرْتُقَالِ.

رَفْرَفَتِ الطُّيُورُ حَوْلَ رَأْسَيْنَا ~ لا تعليق ~ وَهِيَ تَضْحَكُ قَائِلَةً:

- جَدِّي الْحَبِيبُ، هَلْ كُلُّ الْأَجْدَادِ فِي الدُّنْيَا مِثْلَكَ؟

وَانْحَنَتْ تُعْطِينِي قُبْلَةً عَلَى رَأْسِي قَبْلَ أَنْ تَذْهَبَ لِإِحْضَارِ عَصِيرِ الْبُرْتُقَالِ، وَعَيْنَايَ تَنْهَمَانِ مِنْهَا قَبْلَ أَنْ تَغِيبَا عَنْهُمَا..

4- البَوَّابُ

بَعْدَ أُسْبُوعٍ.. وَرُبَّمَا أَكْثَرَ.. كُنْتُ قَدْ فَرَغْتُ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ، حِينَ جَاءَنِي الْبَوَّابُ (أَبُو إِسْمَاعِيلَ) يَطْلُبُ الْأَذْنَ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ عِنْدِي، وَيُعَلِّلُ ذَلِكَ بِكِبَرِ سِنِّهِ وَحَاجَتِهِ لِلرَّاحَةِ فِي قَرْيَتِهِ وَبَيْنَ أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ، لَا يَعْلَمُ كَمَّ الثِّقْلَ الَّذِي أَزَحَهُ عَنْ كَاهِلِي.

أَعْرَبْتُ عَنْ أَسَفِي لِأَنَّهُ سَيُفَارِقُنَا، وَمَنَحْتُهُ مَبْلَغًا كَبِيرًا كَمُكَافَأَةِ نِهَايَةِ الْخِدْمَةِ. وَقَدْ سُرَّ بِهَذَا وَشَكَرَنِي كَثِيرًا..

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي بَدَأْتُ عَمَلِيَّةَ الْبَحْثِ عَنْ بَوَّابٍ، وَذَلِكَ بِالِاتِّصَالِ بِالْوَكَالَاتِ الَّتِي تُوَفِّرُ هَذِهِ الْخِدْمَةَ، وَكَانَتِ الْبِدَايَةُ غَيْرَ مُوَفَّقَةٍ؛ فَالْوَكَالَاتُ تُرْسِلُ رِجَالًا كِبَارَ السِّنِّ، وَكُنْتُ أُفَضِّلُ رَجُلًا أَقْرَبَ إِلَى الشَّبَابِ؛ كَيْ يَكُونَ عَوْنًا لِمُدَبِّرَةِ الْمَنْزِلِ (أُمِّ عَلِيٍّ) فِي شِرَاءِ احْتِيَاجَاتِ الْمَنْزِلِ مِنَ السُّوقِ، وَالْأَعْمَالِ الَّتِي تَشُقُّ عَلَيْهَا، وَالِاهْتِمَامِ بِالْحَدِيقَةِ.

وَلَاحَظَتْ (حَسْنَاءُ) ضِيقِي وَانْزِعَاجِي، فَقَالَتْ:

- مَاذَا هُنَاكَ يَا جَدِّي الْحَبِيبُ؟ مَاذَا يُزْعِجُكَ؟

ابْتَسَمْتُ وَأَنَا أُجِيبُهَا:

- إِنْ كَانَ هُنَاكَ مَا يُزْعِجُنِي، فَقَدْ ذَهَبَ بِرُؤْيَتِكِ يَا جَمِيلَةَ الْجَمِيلَاتِ.

ضَحْكَتُهَا جَعَلَتِ الْأَشْجَارَ تَطِيحُ أَرْضًا ~! ~ ، وَهِيَ تَقُولُ:

- جَدِّي، إِنَّكَ تَمْلَأُ رَأْسِي غُرُورًا وَكِبْرِيَاءً، بَعْدَ قَلِيلٍ لَنْ أَسْتَطِيعَ أَنْ أَرَى بَشَرًا حَوْلِي.

وَاكْتَسَبَتْ مَلَامِحُهَا جِدِّيَّةً جَمِيلَةً، وَهِيَ تَرْدِفُ:

- كُفَّ عَنِ الْغَزَلِ وَأَخْبِرْنِي: مَاذَا يُزْعِجُكَ؟

مَلَأْتُ عَيْنَيَّ بِهَا، أَجَبْتُهَا:

- لَا أَجِدُ مَنْ يَحُلُّ مَحَلَّ (أَبِي إِسْمَاعِيلَ)! كُلَّمَا طَلَبْتُ وَاحِدًا، أَرْسَلُوا لِي رَجُلًا كَبِيرًا.

ابْتَسَمَتْ وَهِيَ تَقُولُ:

- وَأَنْتَ لَا تُحِبُّ الْكِبَارَ؟!

لَمْ أُخْبِرْهَا مِنْ قَبْلُ أَنِّي أَشْعُرُ بِالْوَحْدَةِ فِي غِيَابِهَا، إِنَّهَا تَخْرُجُ السَّابِعَةَ صَبَاحًا وَتَعُودُ عَصْرًا، وَفِي الْحَقِيقَةِ أَنِّي أَبْحَثُ عَنْ مُسَاعِدٍ لِـ(أُمِّ عَلِيٍّ) وَبَوَّابٍ وَبُسْتَانِيٍّ وَأَنِيسٍ لِي فِي غِيَابِهَا: شَخْصٌ يُطَوِّفُ حَوْلِي وَأَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَعْزِقُ أَرْضَ الْحَدِيقَةِ، وَحِينَ يُشَذِّبُ أَشْجَارَهَا.

(أُمُّ عَلِيٍّ) فِي الْمَطْبَخِ طَوَالَ الْوَقْتِ، وَلَا تَفْتَحُ فَمَهَا إِلَّا لِلشَّكْوَى، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَشْكُوهُ، شَكَتْ أَنَّهَا لَا تَجِدُ مَا تَشْكُوهُ لِأَنَّ الْحَيَاةَ لَمْ يَعُدْ لَهَا طَعْمًا.

كَمَا أَنِّي لَا أُهْتَمُّ بِأَحَادِيثٍ عَلَى غِرَارِ: "فُلَانَةُ ذَهَبَتْ، وَفُلَانَةُ جَاءَتْ، وَفُلَانَةُ تَزَوَّجَتْ، وَفُلَانَةُ فَعَلَتْ"، أُرِيدُ مَنْ يُحَدِّثُنِي عَنِ الْأُمُورِ الْعَامَّةِ...

قَاطَعَتْ أَفْكَارِي، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا وَهِيَ تَقُولُ:

- حَسَنًا، أَنَا سَأَقُومُ بِهَذِهِ الْمَهَمَّةِ.

اعْتَرَضْتُ:

- هَذِهِ الْمَهَمَّةَ سَأَقُومُ بِهَا، شَيْءٌ أَشْغَلُ بِهِ نَفْسِي.

ابْتَسَمَتْ، أَوْ لِنَقُلِ اتَّسَعَتِ ابْتِسَامَتُهَا؛ فَهَذَا الْوَجْهُ لَمْ يُخْلَقْ إِلَّا لِلسَّعَادَةِ، قَالَتْ:

- كَمَا تَشَاءُ يَا جَدِّي الْحَبِيبُ.. كَمَا تَشَاءُ..

* * *

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)..

أَوْقَفَتْ كَلِمَاتِي الِاعْتِرَاضِيَّةُ حَدِيثَهُ عَنِ الْمَضِيِّ، وَالتَفَتَ إِلَيَّ وَعَيْنَاهُ تَتَسَاءَلَانِ دُونَ لِسَانِهِ، قُلْتُ:

- أَنْتَ لَمْ تَأْتِ عَلَى ذِكْرِ ابْنِكَ، أَبِ حَفِيدَتِكَ وَأُمِّهَا!

بِكَلِمَاتٍ مَغْمُوسَةٍ بِالْأَسَى، رَدَّ:

- لَيْسَ هُنَاكَ مَا يُقَالُ، ابْنِي تُوُفِّيَ فِي انْهِيَارِ أَحَدِ الْإِنْشَاءَاتِ أَثْنَاءَ إِشْرَافِهِ عَلَيْهَا مُنْذُ سَبْعِ سِنِينَ، وَأُمُّهَا تَزَوَّجَتْ مِنْ آخَرَ مُنْذُ خَمْسِ سِنِينَ، وَانْتَقَلَتْ (حَسْنَاءُ) لِلْعَيْشِ مَعِي؛ فَهِيَ وَحِيدَةُ وَالِدَيْهَا، وَلَا أَقْبَلُ أَنْ تَعِيشَ فِي مَنْزِلِ رَجُلٍ غَرِيبٍ.

سَأَلْتُهُ:

- أَهِيَ كُلُّ عَائِلَتِكَ؟

نَفَى بِهَزَّةِ رَأْسٍ، أَجَابَ:

- لَا، ابْنِي الْآخَرُ مُتَزَوِّجٌ وَيَعِيشُ فِي مَدِينَةٍ أُخْرَى، وَابْنَتَايَ مُتَزَوِّجَتَانِ وَلَا يُوجَدُ مَا يُنَغِّصُ عَيْشَهُمَا.

دَعَوْتُهُ لِمُوَاصَلَةِ رِوَايَتِهِ بِقَوْلِي:

- وَمَاذَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ؟

* * *

قَرَّرْتُ الذَّهَابَ بِنَفْسِي، وَاخْتَرْتُ أَكْبَرَ الْوَكَالَاتِ لِأَبْحَثَ فِيهَا عَنْ ضَالَّتِي، وَأَكْبَرُ الْوَكَالَاتِ كَانَتْ مَكْتَبًا صَغِيرًا فِي الطَّابِقِ الثَّالِثِ مِنْ بِنَايَةٍ قَدِيمَةٍ فِي شَارِعٍ مَزْدَحِمٍ، وَعَانَيْتُ حَتَّى عَثَرْتُ عَلَى مَوْضِعٍ لِسَيَّارَتِي.

وَهُنَاكَ وَجَدْتُ سَكْرِتِيرَةً شَابَّةً فِي غُرْفَةٍ ضَيِّقَةٍ تَجْلِسُ إِلَى مَكْتَبٍ، وَأَمَامَهَا يَجْلِسُ رَجُلٌ فِي الثَّلَاثِينَاتِ مِنْ عُمُرِهِ، وَيَرْتَدِي ثِيَابَ الْأَرْيَافِ: الْجَلَّابِيَّةَ وَالْعِمَّةَ.

سَأَلْتُهَا بَعْدَ التَّحِيَّةِ عَنِ السَّيِّدِ (فِكْرِيِّ) مُدِيرِ الْوَكَالَةِ، سَأَلَتْنِي مَا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَوْعِدٌ سَابِقٌ، فَقُلْتُ لَهَا بِأَنْ تُخْبِرَهُ أَنَّ السَّيِّدَ (شَاكِرَ) يُرِيدُ لِقَاءَهُ.

وَفِي ثَوَانٍ قَلِيلَةٍ وَجَدْتُ نَفْسِي فِي مَكْتَبٍ أَكْبَرَ قَلِيلًا مِنْ مَكْتَبِ السَّكْرِتِيرَةِ، وَسَطَ تَرْحِيبٍ حَارٍّ مِنْ رَجُلٍ بَدِينٍ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ، بَعْدَ الْمُجَامَلَاتِ أَخْبَرْتُهُ بِدِقَّةٍ عَمَّا أَبْحَثُ عَنْهُ، وَوَعَدَنِي بِحَرَارَةٍ أَنَّهُ سَيُشْرِفُ عَلَى طَلَبِي بِنَفْسِهِ، خَاصَّةً وَهُوَ يَعْلَمُ بِحَقِيقَتِي، رَغْمَ غِيَابِي عَنْ سَاحَةِ رِجَالِ الْأَعْمَالِ مُنْذُ زَمَنٍ حِينَ قُمْتُ بِنَقْلِ أَعْمَالِي لِأَبْنَائِي، وَتَرَكْتُ الْمَكْتَبَ وَشُعُورًا بِالِارْتِيَاحِ أَنَّ هَذِهِ الْمَهْمَّةَ سَتُنْجَزُ قَرِيبًا.

كُنْتُ قَدْ بَلَغْتُ مَدْخَلَ الْبِنَايَةِ الْقَدِيمَةِ مُغَادِرًا، حِينَ سَمِعْتُ مَنْ يُنَادِي بِاسْمِي، الْتَفَتُّ خَلْفِي، لِأَجِدَ الرَّجُلَ الرِّيفِيَّ الَّذِي كَانَ جَالِسًا فِي مَكْتَبِ السَّكْرِتِيرَةِ، يَنْزِلُ السَّلَالِمَ الْحَجَرِيَّةَ لِلْبِنَايَةِ مَهْرُولًا، وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ، اسْتَدَرْتُ إِلَيْهِ، وَوَجْهِي يَحْمِلُ اسْتِفْهَامًا كَبِيرًا.

وَضَعَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِهِ، وَقَالَ يُعَرِّفُنِي بِنَفْسِهِ:

- خَدَّامُكَ (عَوَضٌ)، مِنْ بَلْدَةِ (..).

رَحَّبْتُ بِهِ، وَأَنَا أَتَسَاءَلُ فِي نَفْسِي عَنْ غَايَتِهِ، وَتَابَعَ هُوَ:

- أَرْجُو مِنْكَ الْمَعْذِرَةَ، لَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَهُ لِلسَّيِّدِ (فِكْرِيِّ)، لِهَذَا سَمَحْتُ لِنَفْسِي بِاللَّحَاقِ بِكَ.

طَرِيقَتُهُ.. كَلِمَاتُهُ.. اللَّهْجَةُ الَّتِي تَكَلَّمَ بِهَا.. كَانَتْ جَمِيعًا بَعِيدَةً كُلَّ الْبُعْدِ عَنْ مَظْهَرِهِ.. وَكَانَ تَعْقِيبِي عَلَى كَلَامِهِ هُوَ الْقَوْلَ بِحَيْرَةٍ:

- حَسَنًا يَا (عَوَضُ)، كَيْفَ اسـ...

قَاطَعَنِي وَهُوَ يَضْرِبُ صَدْرَهُ بِكَفِّهِ قَائِلًا:

- أَنَا.. أَنَا مَنْ يُلَبِّي كُلَّ مَا تُرِيدُهُ.

كُلُّ مَا قُلْتَهُ لِلسَّيِّدِ (فِكْرِيِّ)، سَتَجِدُنِي يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ) قَادِرًا عَلَيْهِ، أَنَا إِنْسَانٌ مُحْتَرَمٌ، أَخَافُ اللَّهَ وَأُحَافِظُ عَلَى الصَّلَاةِ، وَمَعْرُوفٌ فِي بَلْدَتِي، وَمُتَزَوِّجٌ وَلِي طِفْلَانِ، أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُونَ بَوَّابًا، وَأَعْرِفُ الِاعْتِنَاءَ بِالْحَدِيقَةِ، وَقَدْ قَضَيْتُ عُمْرِي وَأَنَا أَفْلَحُ الْأَرْضَ فِي بَلْدَتِنَا، وَأَنَا مَنْ يَشْتَرِي حَاجَاتِ مَنْزِلِي، وَخَيْرُ مَنْ يَحْفَظُ أَعْرَاضَ النَّاسِ وَأَسْرَارَهُمْ، سَتَجِدُنِي خَادِمَكَ الْأَمِينَ وَرَهْنَ إِشَارَتِكَ.

أُسْلُوبُهُ وَكَلِمَاتُهُ وَلَهْجَتُهُ قَرِيبَةٌ جِدًّا مِنْ إِنْسَانِ الْمَدِينَةِ الْمُثَقَّفِ، مَمْزُوجَةً بِلُطْفٍ مَعَ بَسَاطَةٍ وَطِيبَةٍ وَرَجُولَةِ أَهْلِ الرِّيفِ.

حَتَّى إِنِّي سَاءَلْتُ نَفْسِي عَنْ دَافِعِهِ لِهَذِهِ الْوَظِيفَةِ الْبَسِيطَةِ، وَلَا أُنْكِرُ أَنِّي رَغِبْتُ فِي إِلْحَاقِهِ بِخِدْمَتِي فَوْرًا، وَلَكِنِّي لَمْ أُحَبِّذِ الِالْتِفَافَ حَوْلَ السَّيِّدِ (فِكْرِيِّ)، لِذَلِكَ وَجَدْتُ نَفْسِي أَعِدُّهُ بِالْحَدِيثِ إِلَى السَّيِّدِ (فِكْرِيِّ) بِشَأْنِهِ،

وَتَرَكْتُهُ وَسَطَ بَحْرٍ مِنَ الشُّكْرِ وَالدُّعَاءِ لِي بِطُولِ الْعُمْرِ وَالْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ، كَأَنَّ الْأَمْرَ قَدْ تَمَّ.

وَفِي عَصْرِ الْيَوْمِ، وَبَعْدَ اِتِّصَالٍ هَاتَفِيٍّ مَعَ السَّيِّدِ (فِكْرِيٍّ)، كَانَ الْأَمْرَ قَدْ تَمَّ فِعْلًا.

وَفِي ضُحَى الْيَوْمِ التَّالِي كَانَ (عَوَضٌ) قَدْ بَدَأَ عَمَلَهُ بِالذَّهَابِ إِلَى السُّوقِ لِشِرَاءِ حَوَائِجِ الْمَنْزِلِ، الَّتِي أَمْلَتْهَا عَلَيْهِ (أُمُّ عَلِيٍّ)، وَمَضَتِ الْأَيَّامُ الْأُولَى فِي عَمَلِهِ بِلَا مُنْغِصَاتٍ، كَانَ فِيهَا نَشِيطًا مُجْتَهِدًا، وَلَهُ ثَقَافَةٌ لَا بَأْسَ بِهَا، حَتَّى يَوْمِ الْجُمُعَةِ..

* * *

صَمَتَ السَّيِّدُ (شَاكِرَ) وَسَهِمَتْ نَظَرَاتُهُ، كَأَنَّهُ يَسْتَرْجِعُ مَا حَدَثَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَطَالَ صَمْتُهُ، مِمَّا دَفَعَنِي إِلَى حَثِّهِ عَلَى الْكَلَامِ بِصَوْتٍ هَادِئٍ خَلِيلِ الْخَفُوتِ، قُلْتُ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)..

أَدَارَ رَأْسَهُ إِلَيَّ، وَعَيْنَاهُ تَحْمِلَانِ تَسَاؤُلًا عَمَّا أُرِيدُهُ، كَمَنْ نَسِيَ مَا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ فَقُلْتُ أَسْتَحِثُّهُ عَلَى إِكْمَالِ قِصَّتِهِ:

- مَاذَا حَدَثَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ؟

لِلْوَهْلَةِ بَدَا كَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ عَمَّا أَتَحَدَّثُ عَنْهُ، وَتَدَارَكَ نَفْسَهُ، وَعَادَ يَحْكِي قِصَّتَهُ..

* * *

لازِلْتُ أَذْكُرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهِ، كَمَشْهَدٍ يُعْرَضُ أَمَامِي الْآنَ، كُنْتُ وَحَفِيدَتِي قَدْ فَرَغْنَا مِنْ طَعَامِ الْإِفْطَارِ فِي حُجْرَةِ الْمَعِيشَةِ، وَنَسْتَعِدُّ لِلانْتِقَالِ إِلَى الْحَدِيقَةِ لِتَنَاوُلِ الْقَهْوَةِ.

حِينَ جَاءَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) تُخْبِرُنِي أَنَّهَا سَتُرْسِلُ (عَوَضًا) إِلَى السُّوقِ، وَتَسْأَلُنِي وَ(حَسْنَاءَ) مَا إِذَا كُنَّا نُرِيدُ شِرَاءَ شَيْءٍ خَاصٍّ بِنَا.

هَنَا أَعْرَبَتْ (حَسْنَاءُ) عَنْ رَغْبَتِهَا فِي لِقَاءِ (عَوَضٍ)؛ فَهُوَ يَعْمَلُ لَدَيْنَا مُنْذُ أَيَّامٍ وَلَمْ تَتَعَرَّفْ عَلَيْهِ، بَلْ لَمْ تَرَهُ سِوَى مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ بَعِيدٍ..

* * *

أَوْقَفْتُهُ عَنِ الاسْتِرْسَالِ فِي حَدِيثِهِ بِإِشَارَةٍ مِنْ كَفِّي، وَسَأَلْتُهُ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)، (عَوَضٌ) يَعْمَلُ بَوَّابًا لَدَيْكَ مُنْذُ بِضْعَةِ أَيَّامٍ، وَحَفِيدَتُكَ لَمْ تَرَهُ! كَيْفَ؟

أَشَارَتْ يَدَاهُ أَنِّي أَسْأَلُ عَنْ بَدِيهَةٍ كَانَ يَجِبُ أَنْ أَعْرِفَهَا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي، وَتَكَلَّمَ لِسَانُهُ:

- حَسْنَاءُ تَعْمَلُ طَوَالَ الْأُسْبُوعِ فِي إِحْدَى الْمُؤَسَّسَاتِ النِّسَائِيَّةِ، وَهِيَ تُغَادِرُ الْمَنْزِلَ فِي السَّابِعَةِ صَبَاحًا وَتَرْجِعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الثَّالِثَةِ عَصْرًا.

و(عَوَضٌ) يَأْتِي إِلَى الْعَمَلِ فِي السَّابِعَةِ وَالنِّصْفِ وَيُغَادِرُ عِنْدَ الثَّالِثَةِ؛ لِإِنْجَازِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ لِي، وَلَا يَعُودُ إِلَى الْيَوْمِ التَّالِي، وَهَذَا إِجْرَاءٌ مُؤَقَّتٌ إِلَى حِينِ الانْتِهَاءِ مِنْ تَجْدِيدِ الْحُجْرَةِ الَّتِي كَانَ يَشْغَلُهَا الْعَمُّ (أَبُو إِسْمَاعِيلَ)، حِينَئِذٍ سَيُقِيمُ عِنْدَنَا بِشَكْلٍ دَائِمٍ عَلَى مَدَارِ السَّاعَةِ.

هَزَّةُ رَأْسِي أَخْبَرَتْهُ بِتَفَهُّمِي، وَانْتَظَرْتُ مِنْهُ مُواصَلَةَ قِصَّتِهِ.

وَفَعَلَ..

* * *

كُنْتُ أَسِيرُ نَحْوَ بَابِ الْمَنْزِلِ فِي طَرِيقِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَى الْحَدِيقَةِ، إِلَى حَيْثُ مَجْلِسُنَا الْمُعْتَادِ، وَإِلَى جِوَارِي (حَسْنَاءُ)، حِينَ جَاءَ (عَوَضٌ) مِنْ دَاخِلِ الْمَنْزِلِ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَطْبَخِ.

يَبْدُو أَنَّهُ كَانَ يُسَاعِدُ (أُمَّ عَلِيٍّ) فِي شَيْءٍ مَا، حِينَ أَخْبَرَتْهُ بِرَغْبَةِ (حَسْنَاءَ) فِي التَّعَرُّفِ إِلَيْهِ، فَجَاءَ مَهْرُولًا..

هَنَا لَا أَعْلَمُ مَاذَا حَدَثَ حَقًّا!

الْتَفَتْنَا إِلَيْهِ.. سَمِعْتُ شَهْقَةً قَوِيَّةً مِنْ (حَسْنَاءَ)، وَيَدُهَا تُحَاوِلُ التَّشَبُّثَ بِذِرَاعِي قَبْلَ أَنْ تَسْقُطَ أَرْضًا.

دَبَّ الذُّعْرُ فِينَا جَمِيعًا.. أَنَا وَ(عَوَضٌ) وَ(أُمُّ عَلِيٍّ) الَّتِي جَاءَتْ عَلَى أَصْوَاتِنَا الْمُرْتَفِعَةِ.

أَنَا أُرَدِّدُ اسمَ حَفِيدَتِي بِقَلَقٍ، وَ(عَوَضٌ) وَ(أُمُّ عَلِيٍّ) يَتَسَاءَلَانِ عَمَّا حَدَثَ.

تَعَاوَنَّا عَلَى حَمْلِ (حَسْنَاءَ) إِلَى أَرِيكَةٍ قَرِيبَةٍ، وَأَسْرَعْتُ بِالِاتِّصَالِ بِأَقْرَبِ طَبِيبٍ، وَمَكَثْنَا حَوْلَهَا نَدْعُو وَنَبْتَهِلُ وَنَتَسَاءَلُ وَنَنْتَظِرُ الطَّبِيبَ.

وَأَفَاقَتْ (حَسْنَاءَ) قَبْلَ قُدُومِ الطَّبِيبِ بِدَقَائِقَ قَلِيلَةٍ.. تَأَوَّهَتْ.. نَظَرَتْ فِيمَا حَوْلَهَا.. تَسَاءَلَتْ عَمَّا حَدَثَ.. حَانَتْ مِنْهَا نَظْرَةٌ إِلَى (عَوَضٍ).. شَهْقَةٌ وَفَقَدَتِ الْوَعْيَ مَرَّةً أُخْرَى..

* * *

قُلْتُ مُقَاطِعًا:

- فَقَدَتِ الْوَعْيَ مِنْ جَدِيدٍ!

السَّيِّدُ (شَاكِرَ):

- نَعَمْ، فَقَدَتِ الْوَعْيَ مِنْ جَدِيدٍ.

قُلْتُ:

- لَا شَكَّ أَنَّ الْأَمْرَ أَثَارَ رِيبَتَكَ!

- أَثَارَ رِيبَتِي! لَقَدْ أَمْسَكْتُ بِذَلِكَ الْمَسْكِينِ (عَوَضٍ) مِنْ تَلَابِيبِهِ، أَصِيحُ عَلَيْهِ وَأَتَّهِمُهُ بِذَنْبٍ لَا أَعْلَمُهُ وَلَا هُوَ يَعْلَمُهُ، وَالْخَوْفُ وَالذُّعْرُ يَسْرِيَانِ فِي أَوْصَالِهِ، وَلَا يَعْلَمُ مَا شَأْنُهُ بِمَا أَصَابَ حَفِيدَتِي.

تَسَاءَلْتُ:

- وَمَاذَا حَدَثَ بَعْدَ هَذَا؟

أَشَارَتْ كَفَّاهُ بِمَا نَطَقَ بِهِ لِسَانُهُ:

- مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ هَذَا؟! أَفَاقَتْ (حَسْنَاءُ) وَأَنْقَذَتِ الْمَسْكِينَ مِنِّي، وَعَلَّلَتْ مَا حَدَثَ بِأَنَّ مَلَامِحَ (عَوَضٍ) ذَكَّرَتْهَا بِحَادِثَةٍ مُؤْسِفَةٍ مَعَ إِحْدَى النِّسَاءِ فِي عَمَلِهَا.

كَانَ الِاسْتِنْكَارُ حَاضِرًا فِي تَسَاؤُلِي، وَأَنَا أَقُولُ:

- وَأَنْتَ صَدَّقْتَ كَلَامَهَا؟!

كَأَنَّ سُؤَالِي جَسَدًا أَمَامَهُ.. أَخَذَ يَتَمَعَّنُهُ.. بِبُطْءٍ تَحَدَّثَ:

- صَدَّقْتُهَا؟! كَلَّا.. وَلَكِنَّ رَغْبَتِي فِي تَصْدِيقِهَا.. دَفَعَتْنِي لِلْأَخْذِ بِكَلَامِهَا.. وَصرَفْتُ (عَوَضًا) الَّذِي هَرْوَلَ إِلَى الْخَارِجِ مَعَ قُدُومِ الطَّبِيبِ.

- وَمَاذَا حَدَثَ بَعْدَهَا؟

تَنَهَّدَ، وَعَادَ إِلَى حِكَايَتِهِ..

* * *

5- الْبَدِيلُ

مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ، لَقَدْ تَبَدَّلَ حَالُ (حَسْنَاءَ) تَمَامًا، كَمْ مَرَّةً رَأَيْتُهَا تُرَاقِبُ (عَوَضًا) مِنْ بَعِيدٍ: مَرَّةً مِنْ مَجْلِسِهَا فِي الْحَدِيقَةِ، وَمَرَّةً مِنْ نَافِذَةٍ فِي الطَّابِقِ الْعُلْوِيِّ، وَمَرَّةً وَمَرَّةً..

أَثَارَ هَذَا السُّلُوكُ انْزِعَاجِي وَاسْتِنْكَارِي بِشِدَّةٍ رَغْمَ حُبِّي الشَّدِيدِ لِحَفِيدَتِي، وَأَثَارَ اسْتِغْرَابِي أَيْضًا: مَا سَبَبُهُ وَدَوَافِعُهُ؟

إِنَّ حَفِيدَتِي فَتَاةٌ عَاقِلَةٌ مُحْتَرِمَةٌ يَا سَيِّدُ (طَارِقُ)، وَلَا أَقُولُ هَذَا مِنْ بَابِ حُبِّي لَهَا، بَلْ هِيَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي أَعِيشُهَا، فَهِيَ تَخْرُجُ مِنَ الْبَيْتِ مُحْتَشِمَةً، وَتُحَافِظُ عَلَى الصَّلَاةِ، وَتَذْهَبُ إِلَى عَمَلِهَا وَتَعُودُ مِنْهُ فِي أَوْقَاتٍ مُحَدَّدَةٍ، وَدَائِمًا تُطْلِعُنِي عَلَى الْأَحْوَالِ وَالظُّرُوفِ الطَّارِئَةِ الَّتِي تَطْرَأُ فَتُغَيِّرُ مِنْ عَادَاتِهَا، لَا أَقُولُ إِنَّهَا مُتَدَيِّنَةٌ، وَلَكِنَّهَا تَدُورُ فِي فَلَكِ الدِّينِ، كَمَا أَعْلَمُ أَنَّهَا عَازِفَةٌ عَنِ الزَّوَاجِ، لِهَذَا تـ...

*** * ***

- عَازِفَةٌ عَنِ الزَّوَاجِ! لِمَاذَا؟

بِهَذَا قَاطَعْتُهُ وَقَدِ اسْتَغْرَبْتُ هَذَا الْأَمْرَ..

وَرَاوَغَ السَّيِّدُ (شَاكِرَ) فِي الْإِجَابَةِ بِقَوْلِهِ:

- لَقَدْ حَدَثَ أَمْرٌ مَا وَهِيَ صَغِيرَةٌ، مِمَّا جَعَلَهَا تَعْزِفُ عَنِ الزَّوَاجِ.

كَانَتْ إِجَابَةً مُبْهَمَةً، سَأَلْتُهُ:

- هَلْ هِيَ...

قَاطَعَنِي بِقَوْلِهِ:

- جَمِيلَةُ الْجَمِيلَاتِ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ إِجَابَةَ سُؤَالِي الَّذِي قَاطَعَهُ، وَلَكِنِّي انْتَقَلْتُ لِآخَرَ، سَأَلْتُ:

- مَا هِيَ تِلْكَ الْحَادِثَةُ الَّتِي تَعَرَّضَتْ لَهَا حَفِيدَتُكَ؟

لِوَهْلَةٍ بَدَا أَنَّهُ سَيَرْفُضُ الْإِجَابَةَ، ثُمَّ قَرَّرَ الْمُرَاوَغَةَ، ثُمَّ أَلْقَى بِحَمْلِهِ، فَقَالَ:

- فِي السَّنَةِ الْأُولَى لَهَا مِنَ الْجَامِعَةِ، تَقَدَّمَ لِلزَّوَاجِ مِنْهَا شَابٌّ فِي السَّنَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ دِرَاسَتِهِ مِنْ ذَاتِ الْجَامِعَةِ، وَقَدْ رَأَيْنَا أَنَا وَأَبُوهَا فِي ذَلِكَ الْحِينِ، أَنَّهَا لَا تَزَالُ فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهَا، وَالْمُسْتَقْبَلُ أَمَامَهَا، وَالْفُرَصُ الْقَادِمَةُ أَفْضَلُ وَأَكْثَرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ الشَّابَّ لَا يَزَالُ أَمَامَهُ طَرِيقٌ طَوِيلٌ شَاقٌّ، فَوَجَبَ عَلَى أَبِيهَا رَفْضُهُ، وَتَقَدَّمَ كَثِيرُونَ آخَرُونَ لِلزَّوَاجِ مِنْهَا، وَرَفَضَتْهُمْ جَمِيعًا.

اسْتَغْرَبْتُ الْإِجَابَةَ، وَقَدْ أَوْحَى حَدِيثُهُ بِأَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا غَرِيبًا يَتَعَلَّقُ بِحَفِيدَتِهِ، هَذِهِ الْحِكَايَةُ مَأْلُوفَةٌ وَتَتَكَرَّرُ كَثِيرًا، لَا جَدِيدَ هُنَا.. لَيْسَ هُنَاكَ سَبَبٌ لِلتَّهَرُّبِ مِنْهَا إِلَّا إِذَا...

قُلْتُ:

- وَأَنْتَ تَشْعُرُ بِالذَّنْبِ الْعَظِيمِ لِأَنَّكَ وَرَاءَ ذَلِكَ، أَنْتَ مَنْ دَفَعَ أَبَاهَا وَأَصَرَّ عَلَيْهِ بِرَفْضِ ذَلِكَ الشَّابِّ، وَرُبَّمَا كَانَ لَدَيْكَ آخَرَ تُرِيدُ زَوَاجَهُ مِنْهَا؟

أَشَاحَ بِوَجْهِهِ.. نَهَضَ.. مَضَى إِلَى اللَّوْحَةِ الَّتِي وَجَدْتُهُ عِنْدَهَا مِنْ قَبْلُ، وَعَادَ يَتَأَمَّلُهَا..

بَعْدَ لَحَظَاتٍ قِصَارٍ، قَالَ:

- لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ آخَرُ، بَلْ آخَرُونَ: أَبْنَاءُ رِجَالِ أَعْمَالٍ وَسِوَاهُمْ مِنْ أَشْرَافٍ وَكِبَارِ الْبَلَدِ، بِالْإِضَافَةِ لِلْأَصْدِقَاءِ، فَلَمْ أَقْبَلْ بِشَابٍّ مَجْهُولٍ لا يَمْلِكُ قُوتَ يَوْمِهِ.

وَالتَفَتَ إِلَيَّ، وَتَابَعَ:

- فِي ذَلِكَ الْحِينِ لَنْ تَخْتَلِفَ وَجْهَةُ نَظَرِكَ كَثِيرًا، بَلْ رُبَّمَا - أَقُولُ رُبَّمَا - كَانَتْ وَجْهَةُ نَظَرِكَ أَكْثَرَ تَشَدُّدًا مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِي فِي ذَلِكَ الْحِينِ.

لَمْ أُعَقِّبْ عَلَى حَدِيثِهِ، وَانْتَظَرْتُ مِنْهُ أَنْ يُوَاصِلَ حَدِيثَهُ، فَفَعَلَ:

- لا أُنْكِرُ أَنِّي تَجَاهَلْتُ الْجَانِبَ الْعَاطِفِيَّ لِلْأَمْرِ، بَلْ لَمْ أَفْكِرْ فِي هَذَا الْجَانِبِ.. لَمْ يَخْطُرْ لِي عَلَى بَالٍ، الْفَتَاةُ كَانَتْ صَغِيرَةً، فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهَا الْجَامِعِيَّةِ، فِي السَّنَةِ الْأُولَى مِنْهَا، بِاللَّهِ عَلَيْكَ، كَيْفَ تَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ الشَّابِّ وَتَرْفُضُ الزَّوَاجَ مِنْ بَعْدِهِ؟ هَذَا.. هَذَا..

وَصَمَتَ..

تَرَكْتُ لَهُ بُرْهَةً مِنَ الصَّمْتِ لِيَتَمَالَكَ نَفْسَهُ، وَعَادَ بَعْدَ قَلِيلٍ إِلَى مَقْعَدِهِ.

حَثَثْتُهُ عَلَى مُوَاصَلَةِ حِكَايَتِهِ بِقَوْلِي:

- ثُمَّ مَاذَا؟ مَاذَا حَدَثَ؟

وَعَادَ يَسْرُدُ حِكَايَتَهُ..

* * *

كَمَا قُلْتُ، أَثَارَ هَذَا الْأَمْرُ انْزِعَاجِي بِشِدَّةٍ، خَاصَّةً وَقَدْ لَاحَظَهُ (عَوَضٌ).

لا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَثَارَ فِي نَفْسِهِ أُمُورًا لَا أُحِبِّذُهَا..

أَخْشَى أَنْ.. كَلَّا.. لا أُحِبُّ التَّفْكِيرَ فِي هَذَا الْأَمْرِ.. حَفِيدَتِي الَّتِي يَتَمَنَّاهَا كِبَارُ الْبَلَدِ، وَهَذَا الْـ.. بَوَّابٌ.. مَحَالٌ.. مَحَالٌ..

قَرَّرْتُ اسْتِبْدَالَهُ وَفَعَلْتُ، وَجِئْتُ بِآخَرَ شَيْخًا كَبِيرًا، لَا يَمْلِكُ رُبْعَ مَا يَمْلِكُهُ (عَوَضٌ)، وَلَكِنَّهُ أَزَاحَ عِبْئًا ثَقِيلًا عَنْ كَاهِلِي.

وَأَثَارَ ذَلِكَ غَضَبَ (حَسْنَاءَ)، وَتَحَجَّجَتْ بِأَنَّهُ كَبِيرُ السِّنِّ وَلَا يَقُومُ بِرُبْعِ مَا يَقُومُ بِهِ (عَوَضٌ)، وَهَذَا حَقٌّ، وَلَكِنْ عَوْدَةُ (عَوَضٍ) لِلْعَمَلِ عِنْدِي مِنْ رَابِعِ الْمُسْتَحِيلَاتِ..

* * *

مِنَ الْغَرِيبِ كَيْفَ يَجْتَمِعُ التَّدَيُّنُ وَعَكَارَتُهُ فِي بَعْضِ النَّاسِ، وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ عَلَّمَتْنِي أَنَّ الْبَعْضَ يَتَّخِذُ الدِّينَ زِينَةً لَا تَخْتَلِفُ عَنْ دِبُّوسٍ أَوْ خَاتَمٍ يَتَزَيَّنُ بِهِ.. وَعُدْتُ أَسْتَمِعُ إِلَيْهِ..

* * *

لَمْ يَعُدْ لِلسَّكِينَةِ وَالطُّمَأْنِينَةِ مَكَانًا فِي بَيْتِي، وَصَارَ الصِّدَامُ بَيْنِي وَبَيْنَ حَفِيدَتِي عَادَةً لَا نَتْرُكُهَا حِينَ نَجْتَمِعُ، وَقُمْتُ بِاسْتِبْدَالِ بَوَّابٍ تِلْوَ الْآخَرِ كَيْ أُرْضِيَ حَفِيدَتِي، حَتَّى أَثَارَ الْأَمْرُ انْزِعَاجَ أَصْحَابِ الْمَكَاتِبِ الَّتِي تَمُدُّنِي بِهِمْ.

فَهِيَ تَجِدُ دَائِمًا مَا تَشْتَكِي مِنْهُ: هَذَا قَصِيرٌ، ذَاكَ طَوِيلٌ، هَذَا بَطِيءٌ، ذَاكَ سَرِيعٌ، هَذَا نَحِيلٌ، ذَاكَ سَمِينٌ، أَعْذَارٌ وَاهِيَةٌ مُصْطَنَعَةٌ، وَلَا يَقْبَلُهَا الْعَقْلُ، وَفِي يَوْمٍ بَلَغَ غَضَبِي مِنْهَا مَبْلَغَهُ، وَانْفَجَرْتُ فِيهَا:

- كَفَى، كَفَى، كَفَى! مَا بِكِ؟ مَاذَا أَصَابَكِ؟ مَاذَا بِـ(هَانِي)؟ أَيُّ عَيْبٍ أَتَيْتِ بِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ لِتَشْكُوَهُ إِلَيَّ؟

شَمَخَتْ بِرَأْسِهَا، قَالَتْ:

- يَحْلُو لَهُ الْوُقُوفُ عَلَى ظِلِّي حِينَ أَمُرُّ بِهِ.

بُهِتُّ.. لِلْوَهْلَةِ لَمْ أَعْرِفْ مَاذَا أَقُولُ.. انْفَجَرْتُ:

- مَاذَا؟

بِهُدُوءٍ اسْتَدَارَتْ لِتُغَادِرَ حُجْرَةَ الْمَعِيشَةِ، وَأَنَا أَصِيحُ فِي إِثْرِهَا:

- مَاذَا؟ يَحْلُو لَهُ الْوُقُوفُ عَلَى ظِلِّكِ! أَجُنَنْتِ؟

ثُمَّ أَصَابَنِي أَنَا الْجُنُونُ وَالسَّعَارُ:

- لَنْ يَعُودَ (عَوَضٌ)، أَتَفْهَمِينَ؟ لَنْ يَعُودَ، لَوْ كَانَ آخِرَ رَجُلٍ فِي الْعَالَمِ، لَنْ يَعُودَ (عَوَضٌ)، لَنْ يَعُودَ، لَنْ يَعُودَ، لَنْ يَعُودَ.

وَجَاءَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) تَهْرُولُ مِنَ الْمَطْبَخِ كَعَادَتِهَا كُلَّمَا سَمِعَتْ صِيَاحَنَا، وَهِيَ تَهْتِفُ:

- صِحَّتُكَ، صِحَّتُكَ يَا سَيِّدِي، اِهْدَأْ بِاللَّهِ عَلَيْكَ.

رَفَعْتُ سَبَّابَتِي فِي وَجْهِهَا، وَالسَّعَارُ لَا يَزَالُ يَتَمَلَّكُنِي، صِحْتُ:

- لَنْ يَعُودَ، (عَوَضٌ) لَنْ يَعُودَ، إِنْ عَادَ فَعَلَى جُثَّتِي، أَخْبِرِيهَا بِذَلِكَ، أَخْبِرِيهَا أَنَّ (عَوَضٌ) لَنْ يَعُودَ حَتَّى لَوْ كَانَ آخِرَ يَوْمٍ فِي الدُّنْيَا، لَنْ يَعُودَ.

أَمْسَكَتِ الْعَجُوزُ بِذِرَاعِي، وَيَدُهَا الْأُخْرَى تُرَبِّتُ عَلَى صَدْرِهَا، وَتَقُولُ:

- سَأُخْبِرُهَا، سَأُخْبِرُهَا، اِهْدَأْ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، اِرْحَ نَفْسَكَ، سَآتِيكَ بِكَأْسِ مَاءٍ، بِالـ..

نَزَعْتُ ذِرَاعِي مِنْ يَدِهَا، وَأَشَرْتُ إِلَيْهَا، وَأَنَا أَصِيحُ:

- أَنْتِ، أَنْتِ يَا طَائِرَ الشُّؤْمِ، كُلُّ هَذَا بَدَأَ بِكِ، أَنْتِ السَّبَبُ، أَنْتِ السَّبَبُ فِي هَذَا كُلِّهِ، لِمَ لَا تَتْرُكِينَ الْعَمَلَ إِذَا كُنْتِ غَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَيْهِ؟ مَاذَا تَنْتَظِرِينَ؟ هَيَّا انْصَرِفِي، أَنْتِ مَطْرُودَةٌ.

صُعِقَتِ الْعَجُوزُ مِنْ كَلَامِي، وَبِذُهُولٍ هَتَفَتْ:

- أَنَا! أَنَا السَّبَبُ فِي ذَلِكَ؟ سَامَحَكَ اللَّهُ يَا سَيِّدَ (شَاكِرَ)، أَبَعْدَ هَذِهِ السِّنِينَ فِي خِدْمَتِكَ أَكُونُ السَّبَبَ فِيمَا يَحْدُثُ؟

لَمْ يَسْمَحْ لِيَ الْجُنُونُ وَالسَّعَارُ بِرُؤْيَةِ مَا أَصَابَ الْعَجُوزَ، بَلْ أَوْقَدَا النَّارَ فِي الْبَقِيَّةِ الْقَلِيلَةِ مِنَ التَّعَقُّلِ فِي رَأْسِي، وَسَرَقَا لِسَانِي وَتَحَدَّثَا بِهِ:

- نَعَمْ أَنْتِ، أَيَّتُهَا الْخَبِيثَةُ، لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَاكِ فِي بَيْتِي، غَادِرِي الْآنَ، الْآنَ يَا غُرَابَ الْبَيْنِ.

لَمْ تُنْبِسِ الْمَرْأَةُ بِبِنْتِ شَفَةٍ، وَإِنْ تَكَلَّمَتْ عَيْنَاهَا بِالْكَثِيرِ.. اسْتَدَارَتْ وَاتَّجَهَتْ لِلْمَطْبَخِ..

وَتَوَجَّهْتُ أَنَا إِلَى أَقْرَبِ أَرِيكَةٍ وَقَعَدْتُ، وَالْغَضَبُ يَتَرْكُنِي رُوَيْدًا رُوَيْدًا.. مَاذَا فَعَلْتُ؟.. لَقَدْ تَمَلَّكَنِي الْغَضَبُ وَأَخَذَ مِنِّي كُلَّ ذَرَّةٍ مِنَ التَّعَقُّلِ..

وَهَا هُوَ يَتَرْكُنِي وَقَدْ أَوْشَكْتُ أَنْ أَرَاهُ وَهُوَ يُغَادِرُ يَتَطَاوَحُ مَزْهُوًّا بِعَمَلِهِ.. أَصَابَنِي الْغَمُّ، وَنِمْتُ فِي مَكَانِي.

اسْتَيْقَظْتُ لِأَجِدَ نَفْسِي مَمْدُودًا عَلَى الْأَرِيكَةِ، وَفَوْقِي غِطَاءٌ، وَمَصَابِيحُ الْمَنْزِلِ مُضَاءَةٌ.. أَدْهَشَتْنِي مَسْأَلَةُ الْأَضْوَاءِ، وَدَفَعَتْنِي لِلنَّظَرِ إِلَى سَاعَةِ يَدِي، لِأَجِدَ أَنَّ الْوَقْتَ تَجَاوَزَ أَذَانَ الْمَغْرِبِ بِنِصْفِ سَاعَةٍ.

لَقَدْ نِمْتُ فَتْرَةً طَوِيلَةً، مُنْذُ الْعَصْرِ إِلَى الْآنَ.

أَزَحْتُ الْغِطَاءَ عَنِّي، وَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى صَلَاةِ مَا فَاتَنِي، وَأَشْرَعُ فِي إِصْلَاحِ مَا يُمْكِنُ إِصْلَاحُهُ.

أَثْنَاءَ تَوَجُّهِي إِلَى حُجْرَةِ نَوْمِي، بَلَغَنِي صَوْتٌ قَادِمٌ مِنَ الْمَطْبَخِ، ذَهَبْتُ إِلَى هُنَاكَ، وَوَجَدْتُ (أُمَّ عَلِيٍّ) تَقُومُ بِإِعْدَادِ طَعَامِ الْعَشَاءِ... دُهِشْتُ مِنْ وُجُودِهَا، وَلَنْ أُنْكِرَ أَنِّي سُرِرْتُ بِهَ.

اعْتَذَرْتُ لَهَا بِصِدْقٍ، وَقَبِلَتِ اعْتِذَارِي، وَعَلِمْتُ مِنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ مُغَادِرَةً لَوْلَا أَنَّ (حَسْنَاءَ) أَدْرَكَتْهَا، وَاعْتَذَرَتْ لَهَا نِيَابَةً عَنِّي، وَأَصَرَّتْ عَلَيْهَا بِالْبَقَاءِ.

قَبْلَ أَنْ أَغَادِرَ الْمَطْبَخَ، الْتَفَتُّ إِلَيْهَا، سَأَلْتُ:

- مَنْ وَضَعَ الْغِطَاءَ عَلَيَّ؟

رَفَعَتْ رَأْسَهَا عَنِ الْأَطْبَاقِ وَنَظَرَتْ إِلَيَّ، أَجَابَتْ:

- حَسْنَاءُ، هِيَ مَنْ أَرْقَدَتْكَ وَدَثَّرَتْكَ بِهِ، لَقَدْ أَفْزَعَهَا نَوْمُكَ الطَّوِيلُ، وَكَمْ مِنْ مَرَّةٍ رَأَيْتُهَا تَجُسُّ نَبْضَكَ وَتَضَعُ يَدَهَا أَمَامَ فَمِكَ لِتَحْصِيَ أَنْفَاسَكَ.

سُرِرْتُ بِقَوْلِهَا، وَكَبُرَ أَمَلِي فِي إِصْلَاحِ الْأُمُورِ وَإِعَادَةِ الْمِيَاهِ إِلَى مَجَارِيهَا..

* * *

أَوْقَفْتُ السَّيِّدَ (شَاكِرَ) عَنْ رِوَايَتِهِ بِقَوْلِي:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)..

الْتَفَتَ إِلَيَّ بِعُيُونٍ مُتَسَائِلَةٍ.

وَأَلْقَيْتُ مَا فِي خَاطِرِي:

- أَلَا تَرَى التَّنَاقُضَ الْعَجِيبَ فِيمَا تَرْوِيهِ؟ الْحُبُّ الْكَبِيرُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ حَفِيدَتِكَ يَنْقَلِبُ لِكَرَاهِيَةٍ وَمُحَاوَلَةِ قَتْلٍ كَمَا تَقُولُ؟

مَرَّةً أُخْرَى نَادَتْهُ اللَّوْحَةُ، فَلَبَّى النِّدَاءَ وَوَقَفَ أَمَامَهَا يَتَأَمَّلُ تَفَاصِيلَهَا.. بَعْدَ لَحْظَةٍ الْتَفَتَ إِلَيَّ، قَالَ:

- صَدِّقْنِي، أَحْيَانًا أَشْعُرُ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ كَابُوسٌ وَخَيَالَاتٌ، وَأَنِّي سَأَصْحُو مِنْ نَوْمِي لِأَجِدَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامِ، وَأَحْيَانًا أُخْرَى أَجِدُ أَنَّ هَذَا حَقِيقَةٌ مُرَّةٌ أَعِيشُهَا، بَلْ أَظُنُّ أَنَّ حَفِيدَتِي كَانَتْ تُحَاوِلُ كَتْمَ أَنْفَاسِي، لَا أَنْ تَتَأَكَّدَ مِنْ بَقَائِي عَلَى الْحَيَاةِ، كُلُّ هَذَا يَحْدُثُ وَلَا أَعْلَمُ تَفْسِيرَهُ، هُنَاكَ سُؤَالٌ مُهِمٌّ، رُبَّمَا إِجَابَتُهُ تُقَدِّمُ تَفْسِيرًا مَا..

قُلْتُ بِهُدُوءٍ:

- مَنْ هُوَ (عَوَضٌ)؟

أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ، هَتَفَ:

- بِالضَّبْطِ، مَنْ هُوَ (عَوَضٌ)؟ كُلُّ هَذَا بَدَأَ بِهِ، رَغْمَ سُلُوكِ حَفِيدَتِي مَعَ (عَوَضٍ)، فَإِنَّ قَلْبِي لَا يَرْكَنُ إِلَى التَّفْسِيرِ الْعَاطِفِيِّ، رَغْمَ احْتِمَالِهِ، حُبٌّ بَيْنَ بِنْتِ الْأَشْرَافِ وَالْبَوَّابِ، أَشْبَهُ بِقِصَّةٍ مُبْتَذَلَةٍ مُكَرَّرَةٍ، وَإِذَا عَرَفْتَ حَفِيدَتِي يَا سَيِّدُ (طَارِقُ)، سَتَعْلَمُ أَنَّ لَوْ حَدَثَ هَذَا فِعْلًا، فَإِنَّ حَفِيدَتِي هِيَ أَوَّلُ مَنْ سَيَرْفُضُهُ وَيُقَاوِمُهُ.

سَأَلْتُهُ:

- إِذَا كُنْتَ تُدْرِكُ هَذَا، فَلِمَ أَزْعَجَكَ الْأَمْرُ؟

عَادَ يَلْتَفِتُ إِلَى اللَّوْحَةِ، قَالَ:

- حِينَ أَنْظُرُ فِي أَمْرِ حَفِيدَتِي وَرَجَاحَةِ عَقْلِهَا، أَجِدُ أَنَّ أَفْكَارِي مُجَرَّدُ أَوْهَامٍ وَخَيَالَاتٍ، وَحِينَ أَرَى نَظْرَتَهَا إِلَيْهِ، تَنْتَابُنِي الْوَسَاوِسُ وَالْخَيَالَاتُ.

سَأَلْتُهُ وَأَنَا أُقَلِّبُ قِصَّتَهُ فِي ذِهْنِي:

- أَلَمْ تُحَاوِلْ سُؤَالَ حَفِيدَتِكَ عَنْهُ؟

كَأَنِّي وَطِئْتُ لَغْمًا بِسُؤَالِي..

الْتَفَتَ إِلَيَّ، وَذِرَاعَاهُ إِلَى أَعْلَى، وَالْكَلِمَاتُ حُمَمٌ وفَمِهِ بُرْكَانُ يَقْذِفُهَا، صَاحَ:

- الْإِشَارَةُ، الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ فَقَطْ، تَفْتَحُ أَبْوَابَ الشِّجَارِ وَالصِّرَاخِ وَالِاخْتِلَافِ مَعَ حَفِيدَتِي، لَا أَسْتَطِيعُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهِ، أَوْ ذِكْرَ اسْمِهِ، بِدُونِ أَنْ تَسْتَعِرَ نَارُ الْخِلَافِ بَيْنَنَا، حَتَّى التَّلْمِيحُ يُؤَدِّي نَفْسَ النَّتِيجَةِ.

لَمْ أُعَلِّقْ عَلَى قَوْلِهِ، وَتَرَكْتُ للصَّمْتَ مَكَانًا إِلَى حِينٍ يَذْهَبُ عَنْهُ الِانْزِعَاجُ.. وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ عَادَ إِلَى مَقْعَدِهِ، وَصَدْرُهُ يَعْلُو وَيَهْبِطُ كَأَنَّهُ جَاءَ عَدُوًّا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ..

وَمَنَحْتُ الصَّمْتَ مُهْلَةً أُخْرَى حَتَّى هَدَأَتْ أَنْفَاسُهُ، ثُمَّ حَثَثْتُهُ قَائِلًا:

- ثُمَّ؟ مَاذَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ؟

وَعَادَ يَرْوِي..

* * *

6- الشَّبيهُ

اِسْتَدَرْتُ لأُوَاصِلَ طَرِيقِي إِلَى حُجْرَةِ نَوْمِ حَفِيدَتِي، وَلَكِنَّ صَوْتَ (أُمِّ عَلِيٍّ) جَاءَنِي يُنَادِي:

- سَيِّدُ (شَاكِر)!

اِلْتَفَتُّ إِلَيْهَا بِعُيُونٍ مُتَسَائِلَةٍ..

مُتَرَدِّدَةٍ.. مُتَلَعْثِمَةٍ.. مُطَأْطِئَةِ الرَّأْسِ، قَالَتْ:

- سَيِّدِي، لَا أَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَ الْبَيْتَ، وَلَعَلَّ.. لَعَلَّ.. وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي أَخِي عَنْ مَكَانٍ لَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ أَحَدٌ إِلَّا وَيَرَى مَا يُسِرُّهُ و..

قَاطَعْتُهَا:

- أُمَّ عَلِيٍّ، أَنْتِ تَعْلَمِينَ أَنَّنِي لَا أَسْلُكُ طَرِيقَ الدَّجَلِ وَالشَّعْوَذَةِ أَبَدًا.

هَتَفَتْ وَهِيَ تَرْفَعُ رَأْسَهَا إِلَيَّ:

- دَجَلٍ وَشَعْوَذَةٍ؟! أَعُوذُ بِاللَّهِ يَا سَيِّدَ (شَاكِرَ)، بَلْ هُوَ مَكَانٌ يُسَخِّرُ اللَّهُ لَكَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يُحْسِنُ تَدْبِيرَ الْأُمُورِ.

قُلْتُ لَهَا وَأَنَا أَسْتَدِيرُ لِمُتَابَعَةِ طَرِيقِي:

- لَا أَحْتَاجُ مَنْ يُدَبِّرُ أُمُورِي، مَا يَحْدُثُ زَوْبَعَةٌ فِي فِنْجَانٍ وَسَتَنْقَضِي.

كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الْمَرَّةَ الْأُولَى الَّتِي يُشَارُ فِيهَا إِلَى فُنْدُقِكُمْ، وَلَمْ أُهْتَمَّ بِهَذَا الْأَمْرِ كَثِيرًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، بَلْ نَسِيتُهُ فَوْرَ سَمَاعِهِ.

طَرَقْتُ بَابَ حُجْرَةِ حَفِيدَتِي، وَدَخَلْتُ بَعْدَ دَعْوَتِهَا لِي بِالدُّخُولِ، وَلَا جَدِيدَ هُنَا، ذَكَرْتُ (عَوْضَ) وَاشْتَعَلَتِ النِّيرَانُ، وَأَعْلَنَتْ هِيَ أَنَّهَا لَنْ تَقْبَلَ بِأَيِّ تَهْدِئَةٍ بَيْنَنَا

حَتَّى يَعُودَ (عَوْضُ)، وَأَعْلَنْتُ أَنَا أَنَّ عَوْدَةَ (عَوْضَ) سَتَكُونُ عَلَى جُثَّتِي، وَتَرَكْتُهَا إِلَى حُجْرَةِ الْمَعِيشَةِ.

فِي الصَّبَاحِ وَبَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، كُنْتُ قَدِ اِتَّخَذْتُ قَرَارِي بِإِعَادَةِ (عَوْضَ) إِلَى الْعَمَلِ لَدَيَّ..

* * *

وَأَنَا أَفْكِرُ فِي أَبْعَادِ هَذِهِ الْخُطْوَةِ مِنْ جَانِبِهِ، قُلْتُ:

- تُعِيدُ (عَوْضَ) إِلَى الْعَمَلِ لَدَيْكَ! كَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى تِلْكَ النَّتِيجَةِ؟

نَهَضَ بِقُوَّةٍ مِنْ مَقْعَدِهِ، وَبِصَوْتٍ أَقْرَبَ لِلصِّيَاحِ، أَجَابَنِي:

- وَمَاذَا أَفْعَلُ؟ لَا أَعْلَمُ مَاذَا أَصَابَ بَيْتِي؟ النَّارُ تَلْتَهِمُهُ كُلَّ حِينٍ، لَحَظَاتُ السُّكُونِ وَالْهُدُوءِ حَزِينَةٌ كَئِيبَةٌ، تَبُثُّ الْخَوْفَ فِي نَفْسِي.

وَتَحَطَّمَ صَوْتُهُ بَعْدَ قُوَّةٍ، وَجَاءَتْنِي كَلِمَاتُهُ كَسِيرَةً وَاهِنَةً:

- أَنَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، تَجَاوَزْتُ السَّبْعِينَ عَامًا، لَمْ يَبْقَ مِنَ الْعُمْرِ الْكَثِيرِ، أُرِيدُ أَنْ أَعِيشَ أَيَّامِي الْأَخِيرَةَ بِهُدُوءٍ وَسَلَامٍ، وَكُلُّ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَى عَوْدَةِ (عَوْضَ) مِنْ نَتَائِجَ بَغِيضَةٍ، فَعِنْدِي حَلُّهَا.

كَانَتِ الْأَحْدَاثُ تَأْخُذُ مَنْحًى جَدِيدًا، سَأَلْتُهُ:

- وَمَا هُوَ الْحَلُّ الَّذِي تَمْلِكُهُ؟

كَانَ يَضَعُ كَفَّهُ عَلَى فَمِهِ وَيَتَأَمَّلُ اللَّوْحَةَ مِنْ جَدِيدٍ، اِسْتَدَارَ إِلَيَّ.. أَسْقَطَ يَدَهُ.. أَجَابَنِي:

- الرَّحِيلُ.

بَعْدَ هُنَيَّةِ صَمْتٍ، تَابَعَ الْحَدِيثَ:

- أَنَا رَجُلٌ غَنِيٌّ، وَأَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ إِلَى أَيِّ مَكَانٍ أَشَاءُ، وَأَذُوبُ بَيْنَ الْبَشَرِ، لَا أَعْرِفُ أَحَدًا وَلَا أَحَدٌ يَعْرِفُنِي، وَأَقْضِي أَيَّامِي الْأَخِيرَةَ بَعِيدًا عَنْ كُلِّ مَا أَخْشَاهُ.

قُلْتُ بِهُدُوءٍ:

- وَهُوَ زَوَاجُ حَفِيدَتِكَ مِنْ (عَوْضَ).. الْبَوَّابِ.

كَأَنَّ كَلِمَتِي لَطْمَةٌ عَلَى وَجْهِهِ، أَدَارَ وَجْهَهُ بِعُنْفٍ إِلَى اللَّوْحَةِ، وَلَمْ يُعَقِّبْ عَلَى كَلَامِي، وَبَعْدَ بُرْهَةِ صَمْتٍ، عَادَ يَرْوِي حِكَايَتَهُ..

* * *

عُدْتُ إِلَى السَّيِّدِ (فِكْرِيٍّ) أَبْحَثُ عَنْ (عَوْضَ) عِنْدَهُ، أَخْبَرَنِي أَنَّ (عَوْضَ) لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ مُنْذُ الْعَمَلِ عِنْدِي، وَذَهَبْتُ إِلَى جَمِيعِ مَكَاتِبِ تَوْفِيرِ الْعَامِلِينَ فِي الْمَنَازِلِ، وَلَمْ أَجِدْ (عَوْضَ)، وَكَرَّرْتُ الْبَحْثَ حَتَّى عَرَفَنِي الْجَمِيعُ وَسَأَمُوا مِنِّي، لَقَدِ اِخْتَفَى (عَوْضُ) تَمَامًا..

بَعْدَ رِحْلَةِ بَحْثٍ طَوِيلَةٍ، لَمْ تَزُرِ السَّكِينَةُ خِلَالَهَا بَيْتِي، أَصَابَنِي الْيَأْسُ فِيهَا مِنَ الْعُثُورِ عَلَى (عَوْضَ)، وَبَدَأْتُ أَتْرُكُ الْأَمْرَ وَأَتَقَبَّلُ حَالَةَ بَيْتِي رَغْمَ نُفُورِي وَكُرْهِيَ لِهَذَا..

وَلَكِنَّ الْأَقْدَارَ سَاقَتْ إِلَيَّ بَدِيلًا آخَرَ.. بَدِيلًا أَفْضَلَ مِنْ (عَوْضَ)، سَاقَتْ إِلَيَّ شَبِيهَهُ..

* * *

قَاطَعْتُهُ وَالدَّهْشَةُ تَمْلَأُنِي:

- شَبِيهَهُ!

تَرَكْتُ الِاسْتِمَاعَ وَالتَّفْكِيرَ إِلَى النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَقَدْ شَدَّنِي الْفُضُولُ لِهَذَا التَّطَوُّرِ الْغَرِيبِ لِقِصَّتِهِ، وَرَأَيْتُ الْقُنُوطَ قَدْ أَثْقَلَ الرَّجُلَ وَزَادَهُ غَمًّا حِمْلَ بَعِيرٍ، قُلْتُ وَصَوْتِي يُحَاذِي الْخُفُوتَ:

- سَيِّدُ (شَاكِر)!

اِلْتَفَتَ إِلَيَّ وَهُوَ لَا يَزَالُ فِي مَوْضِعِهِ قُرْبَ اللَّوْحَةِ، كَانَ الرَّجُلُ قَدْ هَرِمَ فِي ثَوَانٍ، وَالْغَمُّ قَدْ غَشِيَ وَجْهَهُ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ سُنُونَ السَّبْعِينَ وَمِثْلُهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَكَأَنَّ ذِكْرَى مَا حَدَثَ سَلَبَهُ عَافِيَتَهُ، سَأَلْتُهُ:

- كَيْفَ جَاءَكَ الشَّبِيهُ؟

هَزَّ رَأْسَهُ وَعَادَ يُكْمِلُ..

* * *

وَاصَلْتُ بَحْثِي بِهِمَّةٍ فَاتِرَةٍ، وَاسْتَسْلَمْتُ لِلْأَقْدَارِ، وَتَقَبَّلْتُ مَا أَصَابَ بَيْتِي بِنَفْسٍ حَسِيرَةٍ، حَتَّى لَمَحْتُهُ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، كُنْتُ أَسِيرُ بِسَيَّارَتِي فِي أَحَدِ الشَّوَارِعِ الَّتِي تَزْخَرُ بِمَكَاتِبِ الْمُحَامَاةِ حِينَ رَأَيْتُهُ.. (عَوْضَ) يَسِيرُ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ وَهُوَ يَرْتَدِي ثِيَابًا عَصْرِيَّةً وَلَيْسَ ثِيَابَ الرِّيفِ.. رَغْمَ هَذَا عَرَفْتُهُ، لِوَهْلَةٍ لَمْ أُصَدِّقْ نَفْسِي، أَوْقَفْتُ سَيَّارَتِي فَوْرًا رَغْمَ احْتِجَاجِ الْبَعْضِ عَلَى ذَلِكَ.. لَمْ أُهْتَمْ وَأَسْرَعْتُ خَلْفَ مَنْ حَسِبْتُهُ (عَوْضَ)، وَدَخَلَ بِنَاءً كَبِيرًا تَمْتَلِئُ

بِمَكَاتِبِ الْمُحَامَاةِ، و.. وَلَمْ أُدْرِكْهُ.. حِينَ دَخَلْتُ الْبِنَاءَ كَانَ قَدِ اِخْتَفَى وَلَا أَعْلَمُ أَيْنَ ذَهَبَ؟.. وَلَكِنَّنِي لَمْ أَسْتَسْلِمْ.. مَرَرْتُ بِالْمَكَاتِبِ وَاحِدًا تِلْوَ الآخَرِ، أَسْأَلُ عَنْهُ وَأَبْحَثُ وَأُخْبِرُهُمْ بِأَوْصَافِهِ، حَتَّى وَجَدْتُهُ فِي مَكْتَبِ الْمُحَامِي الشَّهِيرِ (مَسْعُودِ السَّعْدْنَاوِيِّ)، لَعَلَّكَ تَعْرِفُهُ!..

* * *

بِالتَّأْكِيدِ أَعْرِفُ الْمُحَامِيَّ (مَسْعُودَ السَّعْدْنَاوِيَّ) الشَّهِيرَ بِـ(أَبِي الْحَسَنَاتِ)، فَهُوَ صَدِيقٌ لِجَدِّي وَيَقْضِي هُوَ وَأُسْرَتُهُ إِجَازَتَهُمْ - أَحْيَانًا - فِي ضِيَافَتِنَا، وَمَعْرُوفٌ بِقَضَايَاهُ الْغَرِيبَةِ الَّتِي كَانَ آخِرُهَا الْقَضِيَّةُ الْمَعْرُوفَةُ بِـ"ثَلَاثِينَ مِنَ الْمِائَةِ"، قُلْتُ:

- أَعْرِفُهُ، وَمَاذَا يَفْعَلُ (عَوْض) أَوْ شَبِيهُهُ هُنَاكَ؟

اِتَّجَهَ إِلَى الْأَرِيكَةِ وَجَلَسَ عَلَيْهَا مُنْهَكًا، أَجَابَنِي:

- كَانَ يَعْمَلُ هُنَاكَ.

وَعَادَ إِلَى قِصَّتِهِ..

* * *

فَوْرَ أَنْ رَأَيْتُهُ، عَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ (عَوْضَ)، هُنَاكَ تَشَابُهٌ كَبِيرٌ جِدًّا بَيْنَهُمَا، وَلَكِنَّ مِنْ قَرِيبٍ تُلَاحِظُ اِخْتِلَافَاتٍ كَثِيرَةً، هُنَا جَاءَتْنِي فِكْرَةٌ غَرِيبَةٌ.. عَجِيبَةٌ.. لِمَاذَا لَا أَقُومُ بِتَعْيِينِهِ بَوَّابًا وَأَرَى مَا يَحْدُثُ؟ صَدِّقْنِي لَوْ سَأَلْتَنِي كَيْفَ خَطَرَ هَذَا الْأَمْرُ بِبَالِي، لَأَجَبْتُكَ بِإِنَّنِي لَا أَعْلَمُ، كَانَ أَمْرًا غَرِيبًا مِنْ وَحْيِ اللَّحْظَةِ..

صَافَحْتُهُ وَرَحَّبَ بِي، وَتَحَدَّثْنَا وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مُحَامٍ نَاجِحٌ فِي مَكْتَبِ (مَسْعُودِ السَّعْدَنَاوِيِّ) وَأَنَّهُ يَطْمَحُ خِلَالَ شُهُورٍ قَلِيلَةٍ إِلَى الاِسْتِقْلَالِ بِنَفْسِهِ وَالْقِيَامِ بِتَأْسِيسِ مَكْتَبِهِ الْخَاصِّ، هَذَا كَانَ طَرَفَ الْخَيْطِ الَّذِي سَاعَدَنِي عَلَى الْحَدِيثِ إِلَيْهِ بِخُصُوصِ عَمَلِهِ لَدَيَّ كَبَوَّابٍ، لَنْ أَتَكَلَّمَ عَنْ صَدْمَتِهِ الْكَبِيرَةِ مِنْ عَرْضِي، فِي الْبَدَايَةِ ظَنَّ أَنَّهُ دُعَابَةٌ ثُمَّ ظَنَّ أَنَّنِي مَجْنُونٌ، وَشَرَحْتُ لَهُ دَوَافِعِي وَأَقْنَعْتُهُ أَنَّهُ يُقَدِّمُ لِي وَلِحَفِيدَتِي "الْمَسْكِينَةِ" خِدْمَةً إِنْسَانِيَّةً، وَأَنَّ مُدَّةَ عَمَلِهِ لَنْ تَتَجَاوَزَ مَا بَيْنَ أُسْبُوعٍ وَثَلَاثَةِ أَشْهُرٍ، مَعَ وَعْدٍ بِمُسَاعَدَتِهِ عَلَى تَأْسِيسِ مَكْتَبِهِ الْجَدِيدِ، وَتَوْفِيرِ عَدَدٍ مِنَ الْعُمَلَاءِ لِمَكْتَبِهِ مِمَّنْ أَعْرِفُهُمْ مِنْ رِجَالِ الْأَعْمَالِ وَالْمَعَارِفِ، طَلَبَ مِنِّي مُهْلَةَ أُسْبُوعٍ لِلتَّفْكِيرِ، وَرَغْمَ إِلْحَاحِي الشَّدِيدِ عَلَيْهِ بِعَدَمِ حَاجَتِهِ لِلتَّفْكِيرِ فِي الْأَمْرِ، وَعَدَمِ إِضَاعَةِ الْفُرْصَةِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَصَرَّ عَلَى مَوْقِفِهِ، وَنَجَحْتُ فِي إِقْنَاعِهِ فِي جَعْلِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ بَدَلًا مِنْ أُسْبُوعٍ، وَتَرَكْتُهُ وَهُوَ فِي حَالَةٍ مِنَ الدَّهْشَةِ وَالِارْتِبَاكِ وَالْحَيْرَةِ..

فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّالِي مِنْ لِقَائِي بِهِ جَاءَنِي اِتِّصَالٌ مِنْهُ، يَقْبَلُ عَرْضِي وَالْعَمَلَ بَوَّابًا لَدَيَّ مَعَ شُرُوطٍ بَسِيطَةٍ قَبِلْتُهَا فَوْرًا..

* * *

سَأَلْتُهُ:

- مَا هِيَ هَذِهِ الشُّرُوطُ؟

أَجَابَنِي:

- شُرُوطٌ بَسِيطَةٌ، لَنْ يَذْهَبَ لِلسُّوقِ لِشِرَاءِ حَاجَاتِ الْمَنْزِلِ، وَلَنْ يَنَامَ فِي مَنْزِلِي، بَلْ سَيُغَادِرُ السَّاعَةَ التَّاسِعَةَ مَسَاءً وَيَعُودُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي عِنْدَ السَّابِعَةِ صَبَاحًا، وَالْخَمِيسَ وَالْجُمُعَةَ إِجَازَةً كَيْ يَقُومَ بِأُمُورِهِ الْخَاصَّةِ، وَأَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَمْرُ سِرًّا بَيْنَنَا، قَبِلْتُهَا جَمِيعًا بِسُرُورٍ، وَأَنَا عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ حَتَّى قَامَ بِتَحَرِّيَّاتٍ وَاسِعَةٍ عَنِّي.

صَمَتَ هُنَيَّةً، ثُمَّ أَرْدَفَ:

- كُنْتُ مَا أَسْعَى إِلَيْهِ هُوَ، هَلْ سَيَنْجَحُ كَبَدِيلٍ لِـ(عَوْضَ)؟ إِنْ قَبِلَتْ حَفِيدَتِي (عَادِلًا) كَبَدِيلٍ لِـ(عَوْضَ)، رُبَّمَا أَعْرِفُ مِنْهَا سِرَّ (عَوْضَ)، أَمْ أَنَّ حَفِيدَتِي تُرِيدُ (عَوْضَ) بِشَخْصِهِ؟، لَكِنْ مَاذَا يَجْمَعُهَا بِـ(عَوْضَ)؟ كَمَا تَرَى يَا سَيِّدَ (طَارِقٍ)، كُلُّ مَا أَقُومُ بِهِ هُوَ أُمُورٌ يَائِسَةٌ تَنْبُعُ مِنْ إِنْسَانٍ يَائِسٍ، يَبْحَثُ عَنْ تَفْسِيرِ لُغْزٍ لا يَعْلَمُ أَيْنَ يَبْدَأُ وَلَا أَيْنَ يَنْتَهِي.. قُمْتُ بِالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ (هَانِي) بَعْدَ أَنْ مَنَحْتُهُ رَاتِبَ شَهْرٍ إِضَافِيٍّ، وَهُوَ مَا أَسَرَّهُ كَثِيرًا، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي جَاءَ (عَادِلٌ) وَهُوَ يَرْتَدِي الْجَلَّابِيَّةَ وَالْعِمَامَةَ كَمَا طَلَبْتُ مِنْهُ، وَفِي الْعَصْرِ كُنْتُ قَدْ أَعْدَدْتُ الْأَمْرَ لِمُوَاجَهَتِهِ بِحَفِيدَتِي، كَانَتْ حَفِيدَتِي لَمْ تَعُدْ تَقْبَلُ الِاجْتِمَاعَ بِي فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ أَصْرَرْتُ وَطَلَبْتُ مِنْ (أُمِّ عَلِيٍّ) أَنْ تُخْبِرَهَا بِأَنَّ الْأَمْرَ يَتَعَلَّقُ بِالْبَوَّابِ (عَوْضَ)، وَجَاءَتْ وَجَلَسَتْ عَلَى الْأَرِيكَةِ وَنَادَيْتُ (عَادِلَ) وَكُنْتُ تَرَكْتُهُ يَعْمَلُ فِي رُكْنِ الْحَدِيقَةِ الْبَعِيدِ بِحَيْثُ لَا تَرَاهُ حَفِيدَتِي، دَخَلَ (عَادِلُ) الْمَنْزِلَ مِنْ بَابِهِ الرَّئِيسِيِّ وَاتَّجَهَ نَحْوَنَا فِي بَهْوِ الِاسْتِقْبَالِ، وَهَبَّتْ حَفِيدَتِي وَاقِفَةً وَهِيَ تُطْلِقُ شَهْقَةً قَوِيَّةً وَفَقَدَتِ الْوَعْيَ.

قُلْتُ:

- فَقَدَتِ الْوَعْيَ؟!

أَكَّدَ السَّيِّدُ (شَاكِرٌ):

- نَعَمْ، فَقَدَتِ الْوَعْيَ.

عَقَّبْتُ:

- لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَسَرَّكَ!

قَالَ السَّيِّدُ (شَاكِرٌ) وَصَوْتُهُ بَعِيدٌ:

- أَسَرَّنِي؟ لَقَدْ رَقَصَ قَلْبِي طَرَبًا، أَوْشَكْتُ أَنْ أَرْقُصَ حَوْلَ جَسَدِهَا الْمُلْقَى عَلَى الْأَرْضِ، هَذَا يَعْنِي أَنَّ مُسْأَلَةَ الْبَدِيلِ قَدْ نَجَحَتْ، وَصَدَقَ ظَنِّي بِأَنَّ الْأَمْرَ لَا يَخُصُّ شَخْصَ (عَوْضَ)، أَسْرَعْتُ إِلَيْهَا وَحَمَلْتُهَا بِمَعُونَةِ (عَادِلٍ) إِلَى الْأَرِيكَةِ الَّذِي تَرَكْنَا وَغَادَرَ.

سَأَلْتُهُ:

- وَ(عَادِلٌ)؟

سَيِّدُ (شَاكِرٍ):

- مَاذَا عَنْهُ؟

سَأَلْتُهُ:

- مَاذَا كَانَتْ رَدَّةُ فِعْلِهِ؟

نَظَرَ السَّيِّدُ (شَاكِرٌ) لِأَعْلَى، وَبَدَتْ مَلَامِحُهُ كَأَنَّهُ يُحَاوِلُ تَذَكُّرَ مَا حَدَثَ، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ:

- الْآنَ وَأَنَا أَتَذَكَّرُ مَا حَدَثَ حِينَئِذٍ، أَقُولُ لَقَدْ أَصَابَهُ الْوُجُومُ، وَسَاعَدَنِي فِي رَفْعِهَا لِلْأَرِيكَةِ دُونَ أَنْ يَتَكَلَّمَ، وَغَادَرَ الْمَكَانَ بِدُونِ كَلَامٍ أَوِ اسْتِئْذَانٍ، بَلْ أَذْكُرُ أَنَّهُ كَانَ يَسِيرُ بِبُطْءٍ كَأَنَّهُ شَاخَ فَجْأَةً.

مَعَ قَوْلِهِ هَذَا بَدَأَتْ فِكْرَةٌ مَا تَتَبَلْوَرُ فِي ذِهْنِي بَعْدَ الْغُمُوضِ الشَّدِيدِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَعْدُو تَخْمِينًا يَحْتَاجُ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ لِجَعْلِ الصُّورَةِ وَاضِحَةً، قُلْتُ:

- وَبَعْدَهَا، مَاذَا حَدَثَ؟

* * *

حَسَنًا، لَمْ تَكُنِ الْأُمُورُ كَمَا كَانَتْ مَعَ (عَوْضَ)، حِينَ أَفَاقَتْ (حَسْنَاءُ)، كَانَ أَوَّلَ سُؤَالٍ عَلَى لِسَانِهَا هُوَ:

- أَيْنَ (عَوْضُ)؟

تَظَاهَرْتُ بِالْبَرَاءَةِ وَأَنَا أَرُدُّ السُّؤَالَ بِآخَرَ:

- عَوْضٌ؟ مَنْ (عَوْضٌ)؟ لَعَلَّكِ تَقْصِدِينَ (عَادِلَ)؟

اِمْتَقَعَ وَجْهُهَا حِينَ ذَكَرْتُ اسْمَهُ، وَأَخَذَ الصَّمْتُ لَهُ بُرْهَةً طَوِيلَةً، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهَا، أُحَاوِلُ اسْتِشْفَافَ مَا يَدُورُ فِي رَأْسِهَا، ثُمَّ بِصَوْتٍ خَشِنٍ وَعَرِّ الْمَسَالِكَ، قَالَتْ:

- عَا.. (عَادِلُ).. اِسْمُهُ (عَادِلُ)؟

أَوْمَأْتُ بِرَأْسِي إِيجَابًا، وَاحْنَتَ هِيَ رَأْسَهَا، بَعْدَ ذَلِكَ هَدَأَتِ الْأَحْوَالُ فِي الْمَنْزِلِ، وَلَا أَجِدُ كَلِمَاتٍ غَيْرَ هَذِهِ لِوَصْفِ أَحْوَالِنَا، لَمْ نَعُدْ نَتَشَاجَرُ، وَلَكِنَّ عَيْنَيْهَا تَنْظُرَانِ إِلَيَّ بِاتِّهَامٍ طَوَالَ الْوَقْتِ، كَأَنَّنِي اِرْتَكَبْتُ إِثْمًا مَا أَوْ جَرِيمَةً،

كَمَا أَنَّ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ (عَادِلٍ) قَدْ أَثَارَ حَيْرَتِي، فَهُوَ يَخْتَلِفُ عَمَّا كَانَ مِنْهَا نَحْوَ (عَوْضَ)، وَلَمْ أَجِدْ تَفْسِيرًا لِذَلِكَ، لَاحَظْتُ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أَنَّهُمَا يُخَوِّضَانِ جِدَالًا عَنِيفًا، كَانَا يَتَظَاهَرَانِ بِأَنَّهُمَا لَا يَتَحَدَّثَانِ، فَكُلٌّ مِنْهُمَا يَنْظُرُ فِي اتِّجَاهٍ آخَرَ، تَارَةً هِيَ فِي الْحَدِيقَةِ تَعْبَثُ بِهَاتِفِهَا وَ(عَادِلٌ) مُعْطِيًا ظَهْرَهُ لَهَا، وَيُصْلِحُ أَحْوَاضَ الزُّهُورِ، وَتَسْتَطِيعُ رَغْمَ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ أَنْ تَرَى (عَادِلَ) يَبْدُو أَنَّهُ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ وَهُوَ يُمَارِسُ عَمَلَهُ، وَهِيَ تَفْعَلُ الشَّيْءَ نَفْسَهُ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُمَا يُخَوِّضَانِ حِدَثًا حَارًّا، وَتَارَةً أُخْرَى يُصْلِحُ لَهَا السَّيَّارَةَ، الَّتِي كَثُرَتْ أَعْطَابُهَا وَصَارَ (عَادِلُ) هُوَ الْمُتَعَهِّدُ بِإِصْلَاحِهَا، ذَاتَ مَرَّةٍ يَسْتَبْدِلُ الْإِطَارَ وَمَرَّةً يَتَفَحَّصُ الْمُحَرِّكَ، كَأَنَّهُ تَرَكَ الْمُحَامَاةَ لِيَعْمَلَ فِي إِصْلَاحِ السَّيَّارَاتِ، وَهِيَ تَقِفُ بِقُرْبِهِ تَتَظَاهَرُ بِالِانْتِظَارِ حَتَّى يَفْرُغَ، وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ الِاقْتِرَابَ لِأَسْمَعَ مَا يَقُولَانِهِ، تَوَقَّفَا عَنِ الْحَدِيثِ، أَوِ انْتَقَلَا لِحَدِيثٍ عَامٍّ..

فَشَلَتْ جَمِيعُ مُحَاوَلَاتِي فِي الْوُصُولِ لِحَقِيقَةِ (عَادِلٍ) مِنْ حَفِيدَتِي أَوْ مِنْ مُحَاوَلَةِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ إِلَيْهِمَا، وَبَعْدَ شَهْرٍ مِنْ تَسَلُّمِ (عَادِلٍ) الْعَمَلَ لَدَيَّ، شَعَرْتُ بِأَنَّ صِحَّتِي لَيْسَتْ عَلَى مَا يُرَامُ، ذَهَبْتُ لِلطَّبِيبِ، وَبَعْدَ إِجْرَاءِ الْفُحُوصِ اللَّازِمَةِ، طُلِبَ مِنِّي الرُّجُوعُ بَعْدَ أُسْبُوعٍ، أَوْ سَيُتِمُّ إِبْلَاغِي بِالنَّتَائِجِ هَاتِفِيًّا، وَقَبْلَ انْقِضَاءِ الْأُسْبُوعِ اتَّصَلَ بِي الطَّبِيبُ وَأَصَرَّ عَلَى حُضُورِي لِإِطْلَاعِي عَلَى نَتَائِجِ الْفُحُوصِ.

* * *

7- الشَّكُّ

شَبَّكَ الدُّكْتُورُ (جَادَ اللهِ) كَفَّيْهِ عَلَى مَكْتَبِهِ، وَهُوَ يُفْكِرُ بِعُمْقٍ شَدِيدٍ، يَبْدُو أَنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ بَدايَةٍ لِحَدِيثِهِ، وَلَنْ أُنْكِرَ أَنِّي شَعَرْتُ بِالْقَلَقِ مِمَّا سَيَقُولُهُ، أَطْلَقَ الطَّبِيبُ زَفْرَةً طَوِيلَةً، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)، هَلْ تَتَناوَلُ عَقَاقِيرَ أَوْ أَدْوِيَةً غَيْرَ الَّتِي ذَكَرْتَها فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى؟

دُهِشْتُ مِنْ سُؤَالِهِ، وَلَكِنَّنِي أَجَبْتُهُ عَلَى الْفَوْرِ:

- كَلَّا، كَمَا أَخْبَرْتُكَ، أَنَا لَا أَتَناوَلُ سِوَى أَقْرَاصِ ضَغْطِ الدَّمِ فَقَطْ، أَحْيَانًا فِي حَالَاتِ الْإِصَابَةِ بِنَزْلَةِ بَرْدٍ أَتَناوَلُ بَعْضَ الْأَقْرَاصِ الْمُخَصَّصَةِ لِذَلِكَ.

صَمَتَ هُنَيَّةً ثُمَّ هُنَيَّةً، وَالتَّفْكِيرُ لَا يَتْرُكُهُ، قَالَ:

- هَلْ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُوجَدَ مَصْدَرٌ لِلسُّمُومِ فِي الْمَطْبَخِ، كَأَنْ تَضَعَ أَدْوِيَةً تَسْتَخْدِمُهَا فِي الْحَدِيقَةِ فِي مَكَانٍ مَا مِنَ الْمَطْبَخِ، أَوْ تَسْتَخْدِمُهَا بِدُونِ أَخْذِ الْاحْتِيَاطَاتِ اللَّازِمَةِ كَالْقُفَّازَاتِ وَالْكَمَّامَاتِ مَثَلًا؟

زَادَتْ دَهْشَتِي وَحَيْرَتِي، أَجَبْتُهُ:

- نَحْنُ لَا نَسْتَخْدِمُ أَيَّ سَمَادٍ أَوْ أَدْوِيَةٍ لِلْحَدِيقَةِ، وَحِينَ تَحْتَاجُ الْحَدِيقَةُ عِنَايَةً خَاصَّةً، نَحْضُرُ مُخْتَصًّا، وَهُوَ يَحْضُرُ مَعَهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُهُ لِلْعِنَايَةِ بِهَا، مَاذَا هُنَاكَ يَا دُكْتُورَ (جَادَ اللهِ)؟ لِمَ هَذِهِ الْأَسْئِلَةُ الْغَرِيبَةُ؟

مَسَحَ الطَّبِيبُ وَجْهَهُ، وَالْحَيْرَةُ وَوَجْهُهُ قَرِينَانِ، قَالَ:

- صَدِّقْنِي يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ) أَنَّنِي أَسْأَلُكَ هَذِهِ الْأَسْئِلَةَ لَعَلِّي أَجِدُ تَفْسِيرًا - أَيُّ تَفْسِيرٍ - لِحَالَتِكَ و..

قَاطَعْتُهُ بِحِدَّةٍ أَكْبَرَ:

- أَرْجُوكَ يَا دُكْتُورَ (جَادَ اللهِ)، دَعْ عَنْكَ التَّرَدُّدَ وَأَخْبِرْنِي بِمَا عِنْدَكَ.

نَظَرَ فِي عَيْنَيَّ، بِبُطْءٍ قَالَ:

- عَثَرْنَا عَلَى مَادَّةٍ سَامَّةٍ فِي دَمِكَ، تُؤَثِّرُ عَلَى الْكَبِدِ وَتُؤَدِّي إِلَى الْوَفَاةِ فِي أَشْهُرٍ مَعْدُودَةٍ، وَلَا أَجِدُ تَفْسِيرًا لِكَيْفِيَّةِ وُصُولِ هَذِهِ الْمَادَّةِ إِلَى دَمِكَ!

دُهِشْتُ مِنْ حَدِيثِهِ، بُهِتُ.. رَدَّدْتُ:

- مَادَّةٌ سَامَّةٌ.. فِي دَمِي.. مَتَى؟.. كَيْفَ؟..

أَجَابَنِي وَالْحَيْرَةُ تُرَافِقُ كَلِمَاتِهِ:

- لَيْسَ مُنْذُ وَقْتٍ طَوِيلٍ، رُبَّمَا عَشَرَةَ أَيَّامٍ قَبْلَ قِيَامِكَ بِإِجْرَاءِ الْفُحُوصِ، وَأَنْتَ تَتَنَاوَلُهَا بِشَكْلٍ شِبْهِ يَوْمِيٍّ بِكَمِّيَّاتٍ صَغِيرَةٍ جِدًّا، تَنَاوُلُ جِرَامٍ وَاحِدٍ مِنْهَا كَانَ لَيُؤَدِّي لِوَفَاتِكَ فَوْرًا، وَلَكِنَّ تَنَاوُلَ كَمِّيَّاتٍ صَغِيرَةٍ جِدًّا سَيُؤَدِّي لِشُعُورِكَ بِالْإِجْهَادِ ثُمَّ وَفَاتِكَ - لَا قَدَّرَ اللهُ - خِلَالَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ، بِرَحْمَةِ اللهِ جِئْتَ سَرِيعًا فَوْرَ شُعُورِكَ بِالْإِجْهَادِ وَقُمْتَ بِالْفُحُوصِ الَّتِي أَظْهَرَتِ الْأَمْرَ، وَصَارَ بِالْإِمْكَانِ عِلَاجُكَ وَالتَّخَلُّصُ مِنَ السُّمِّ وَآثَارِهِ، الْمُهِمُّ الْآنَ هُوَ أَنْ نَعْرِفَ مَصْدَرَ السُّمِّ وَكَيْفَ يَصِلُ إِلَيْكَ؟ هَلْ طَرَأَ أَيُّ تَغْيِيرٍ عَلَى وَجَبَاتِكَ أَوْ طَعَامِكَ؟ هَلْ أَصْبَحْتَ تَتَنَاوَلُ أَصْنَافًا لَمْ تَتَنَاوَلْهَا مِنْ قَبْلُ؟ هَلْ تَقُومُ بِنَشَاطٍ أَوْ عَمَلٍ يَجْعَلُكَ تَقْتَرِبُ مِنَ السُّمُومِ أَوْ أَدْوِيَةٍ أَيًّا كَانَ نَوْعُهَا أَوْ مَصْدَرُهَا؟

هَتَفْتُ بِصِدْقٍ وَإِخْلَاصٍ:

- كَلَّا، كَلَّا، كَلَّا، هَذِهِ إِجَابَتِي عَنْ جَمِيعِ أَسْئِلَتِكَ.

زَفَرَ فِي حَيْرَةٍ وَبَعْدَ صَمْتٍ قَالَ:

- هَلْ تُمانِعُ لَوْ كَرَّرْنَا إِجْرَاءَ الْفُحُوصِ؟

هَزَزْتُ رَأْسِي نَفْيًا بِقُوَّةٍ، أَجَبْتُهُ:

- كَلَّا، بَلْ أَرْحَبُ بِذَلِكَ وَأَصِرُّ عَلَيْهِ، أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ هَلْ زَالَ الْأَمْرُ أَمْ لَا؟

قُمْتُ بِعَمَلِ الْفُحُوصِ مِنْ جَدِيدٍ، وَعُدْتُ إِلَى الْبَيْتِ، وَأَوَّلَ مَا فَعَلْتُهُ هُوَ إِجْرَاءُ تَحْقِيقٍ صَارِمٍ مَعَ (أُمِّ عَلِيٍّ) حَوْلَ طَعَامِنَا وَمَصْدَرِهِ، وَقَدْ نَفَتِ الْعَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَدَثَ أَيُّ تَغْيِيرٍ عَلَى طَعَامِنَا وَمَصَادِرِهِ أَوْ طَرِيقَةِ إِعْدَادِهِ، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي جَاءَتْ نَتِيجَةُ الْفُحُوصِ سَرِيعًا وَأَبْلَغَنِي بِهَا الدُّكْتُورُ (جَادَ اللهِ) هَاتِفِيًّا، لَقَدْ تَنَاوَلْتُ السُّمَّ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فِي الْفَتْرَةِ بَيْنَ الْفَحْصِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي، وَطَلَبَ مِنِّي إِرْسَالَ عَيِّنَاتٍ مِنْ وَجَبَاتِي لِلْفَحْصِ، وَافَقْتُ وَأَنَا أَشْعُرُ بِالْحَيْرَةِ وَالْقَلَقِ وَالِاضْطِرَابِ، حَاوَلْتُ اسْتِرْجَاعَ كُلِّ مَا حَدَثَ فِي الْأَيَّامِ، أَيْنَ ذَهَبْتُ؟ مَاذَا تَنَاوَلْتُ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ وَأَيْنَ؟ جَمِيعُ الْإِجَابَاتِ تُؤَكِّدُ اسْتِحَالَةَ اقْتِرَابِي مِنْ مَصْدَرٍ مِنْ مَصَادِرِ السُّمُومِ، لَمْ أَتَنَاوَلْ سِوَى الْقَهْوَةِ بِرِفْقَةِ أَحَدِ الْمَعَارِفِ، وَهُوَ لِقَاءٌ عَابِرٌ جَاءَتْ بِهِ الْأَقْدَارُ دُونَ تَرْتِيبٍ مُسْبَقٍ، كَيْفَ يَصِلُ السُّمُ لِي؟ ثُمَّ حَدَثَ مَا كَادَ أَنْ يُصِيبَنِي بِالْجُنُونِ، كَانَتْ نَتِيجَةُ فَحْصِ وَجَبَاتِ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ سَلْبِيَّةً، لَا يُوجَدُ أَيُّ أَثَرٍ لِلسُّمُومِ فِي طَعَامِي، قَدْ تَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّنِي كُنْتُ أَتَمَنَّى أَنْ يَعْثُرُوا عَلَى سَمٍّ فِي طَعَامِي، كَيْ أَجِدَ تَفْسِيرًا لِمَا يُصِيبُنِي، وَلَكِنَّ عَدَمَ الْعُثُورِ عَلَى السُّمِّ زَادَ دَهْشَتِي وَحَيْرَتِي، وَدَفَعَ بِي إِلَى الشَّكِّ فِي (أُمِّ عَلِيٍّ)، رُبَّمَا هِيَ مَنْ تَضَعُ السُّمَّ، وَحِينَ شَعَرَتْ بِأَنَّنِي عَرَفْتُ مَا تَفْعَلُهُ، تَوَقَّفَتْ، وَلَكِنْ لِمَاذَا؟ لِمَاذَا تَفْعَلُ (أُمُّ عَلِيٍّ) هَذَا؟ نَحْنُ مَعًا مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ

عِشْرِينَ سَنَةً، وَعَلَاقَتُنَا جَيِّدَةٌ وَتَجَاوَزَتْ عِلَاقَةَ الْعَامِلِ وَرَبِّ الْعَمَلِ إِلَى الْأُسْرَةِ، لَا يُوجَدُ مُبَرِّرٌ لِذَلِكَ، وَمَنْ لَهُ مَنْفَعَةٌ مِنْ مَوْتِي؟

وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ أَبْلَغَنِي الدُّكْتُورُ (جَادَ اللهِ) بِالْعثُورِ عَلَى بَعْضِ السُّمِّ فِي عَيِّنَةِ وَجْبَةِ الْإِفْطَارِ، وَطَلَبَ مِنِّي التَّحَقُّقَ مِنَ الْأَمْرِ، هَذِهِ الْمَرَّةَ تَكَتَّمْتُ الْأَمْرَ وَلَمْ أُبِحْ بِهِ لِأَحَدٍ، وَتَظَاهَرْتُ بِتَنَاوُلِ طَعَامِي فِي الْبَيْتِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّنِي أَتناوَلُهُ فِي الْخَارِجِ، وَوَاصَلْتُ إِرْسَالَ عَيِّنَاتٍ مِنْ طَعَامِي، وَلَاحَظْتُ أَنَّ السُّمَّ يُوجَدُ فِي وَجَبَاتِ الْإِفْطَارِ..

* * *

قَاطَعْتُ حَدِيثَهُ بِقَوْلِي:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ).

اِلْتَفَتَ إِلَيَّ وَعَيْنَاهُ تَتَسَاءَلَانِ، قُلْتُ:

- لَمْ تَذْكُرْ حَفِيدَتَكَ! أَلَمْ يُصِبْهَا شَيْءٌ مِمَّا أَصَابَكَ؟

أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ بِإِنْهَاكٍ وَهُوَ يُجِيبُنِي:

- نَعَمْ، لَمْ يُصِبْهَا شَيْءٌ، فَنَحْنُ نَتَشَارَكُ وَجْبَتَي الْغَدَاءِ وَالْعَشَاءِ يَوْمِيًّا، وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَطْ نَتَنَاوَلُ الْإِفْطَارَ مَعًا، فَهِيَ تَخْرُجُ لِلْعَمَلِ كُلَّ يَوْمٍ عِنْدَ السَّاعَةِ السَّابِعَةِ صَبَاحًا، مُكْتَفِيَةً بِشَطِيرَةٍ وَفِنْجَانِ قَهْوَةٍ، وَأَحْيَانًا تَتَنَاوَلُهُمَا فِي الْعَمَلِ، وَكَمَا قُلْتُ الْعُثُورُ عَلَى السُّمِّ يَكُونُ فِي وَجَبَاتِ الْإِفْطَارِ فَقَطْ، وَلَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ مِقْدَارَ مَا أَصَابَنِي مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالشَّكِّ فِي كُلِّ مَنْ حَوْلِي بِاسْتِثْنَاءِ (حَسْنَاءَ)، هِيَ الْوَحِيدَةُ الَّتِي لَمْ تَذْهَبْ إِلَيْهَا شُكُوكِي، (أُمُّ عَلِيٍّ).. (عَادِلٌ)..

وَسِوَاهُمْ.. حَتَّى بَائِعَ الْخُضَرِ شَكَكْتُ فِيهِ، وَكُلُّ مَرَّةٍ أَصْطَدِمُ بِالدَّافِعِ، مَاذَا يَسْتَفِيدُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْ مَوْتِي؟

سَأَلْتُهُ:

- وَأَيْنَ حَفِيدَتُكَ مِمَّا أَصَابَكَ؟

نَفَى رَأْسَهُ شَيْئًا مَا، وَأَوْضَحَ لِسَانَهُ:

- لَا أَحَدَ يَعْلَمُ شَيْئًا مِمَّا أَصَابَنِي، اِحْتَفَظْتُ بِالْأَمْرِ كُلِّهِ لِنَفْسِي، وَزَادَ بَيْتِي كَآبَةً، وَبَدَا الْحُزْنُ وَالْغَمُّ ظَاهِرَيْنِ عَلَيَّ.

* * *

كُنْتُ جَالِسًا فِي حُجْرَةِ مَكْتَبِي الصَّغِيرَةِ، أَفْكُرُ فِي مَا يَحْدُثُ لِي، وَأَفْكَارِي لَا تَنْقَطِعُ تَتَّجِهُ إِلَى (عَادِلٍ) وَعَلَاقَتِهِ بِـ (حَسْنَاءَ)، لَقَدْ تَحَرَّيْتُ عَنْهُ، وَلَمْ أَجِدْ مَا يُثِيرُ الشَّكَّ حَوْلَهُ، فَهُوَ شَابٌّ مُكَافِحٌ وَنَاجِحٌ وَلَيْسَ لَهُ فِي الدُّنْيَا سِوَى أُمِّهِ وَشَقِيقَةٍ تَصْغَرُهُ بِبِضْعِ سِنِينَ، وَالْأَبُ مُتَوَفًّى، عَائِلَةٌ عَادِيَّةٌ بَسِيطَةٌ جِدًّا، قَاطَعَ أَفْكَارِي صَوْتُ طَرَقَاتٍ عَلَى الْبَابِ، أَذِنْتُ لِلطَّارِقِ بِالدُّخُولِ، وَدَخَلَتْ (أُمَّ عَلِيٍّ) بِوَجْهٍ مُكْتَئِبٍ حَزِينٍ، وَرَفَعَتْ كَفَّيْهَا أَمَامِي كَأَنَّهَا تَتَّقِي شَيْئًا مَا، وَقَالَتْ مُتَوَسِّلَةً:

- بِاللهِ عَلَيْكَ، بِاللهِ عَلَيْكَ، بِاللهِ عَلَيْكَ لَا تُقَاطِعْنِي، بِاللهِ عَلَيْكَ اسْمَعْنِي إِلَى النِّهَايَةِ.

قُلْتُ:

- مَاذَا هُنَاكَ يَا (أُمَّ عَلِيٍّ)؟

اِقْتَرَبَتْ مِنِّي، وَعَيْنَاهَا تَسْتَعْطِفَانِ صَمْتِي وَإِنْصَاتِي، وَلِسَانُهَا يَجْرِي بِمَا فِي قَلْبِهَا:

- هُنَاكَ مَكَانٌ - وَاللهُ أَعْلَمُ أَنَّهُ فُنْدُقٌ - مَنْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ يَجِدِ الْخَيْرَ، اللهُ يُسَخِّرُ لَهُ مِنْ خَلْقِهِ مَنْ يُعِينُهُ عَلَى كُرْبَتِهِ، وَيَرْفَعُ الْغَمَّ عَنْهُ.

أَرَدْتُ مُقَاطَعَتَهَا، وَلَكِنَّهَا عَادَتْ تَسْتَعْطِفُ السُّكُوتَ:

- بِاللهِ عَلَيْكَ، بِاللهِ عَلَيْكَ، دَعْنِي أُكْمِلْ.

أَنْصَتُّ لِرَغْبَتِهَا، وَأَشَارْتُ لَهَا كَفِّي بِالْمُوَاصَلَةِ، فَتَابَعَتْ:

- لَيْسُوا دَجَّالِينَ وَلَا سَحَرَةً، وَلَا مَنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَبْغَضُهَا، يَقُولُونَ أَنَّهُ مَكَانٌ مُبَارَكٌ، فَقَطْ اِذْهَبْ إِلَى هُنَاكَ، وَتَمَسَّحْ بِأَيِّ شَيْءٍ مِنَ الْمَكَانِ وَسَيَبْعَثُ اللهُ لَكَ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ يُعِينُكَ عَلَى شِدَّتِكَ، وَيُسَاعِدُكَ عَلَى زَوَالِهَا، لَا أَدْرِي مَاذَا أَصَابَ هَذَا الْبَيْتَ؟ عَيْنٌ حَسُودٍ أَمْ عَمَلُ سَاحِرٍ، حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، بِاللهِ عَلَيْكَ يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ)، اسْمَعْ مِنِّي هَذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ، لَنْ يَضُرَّكَ شَيْءٌ، اِذْهَبْ هُنَاكَ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، لِلرَّاحَةِ أَوْ الْخُروجِ مِن جَوِّ الْبَيْتِ، وَافْعَلْ كَمَا قُلْتُ وَسَتَجِدُ الْفَرَجَ إِنْ شَاءَ اللهُ، لَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ هُنَاكَ، إِلَّا وَجَاءَهُ الْفَرَجُ.

أَوْثَقَ رَجَاؤُهَا رَفْضِي، وَجَرَى لِسَانِي بِرَغْبَتِهَا، فَقُلْتُ:

- حَسَنًا، وَأَيْنَ هَذَا الْفُنْدُقُ أَوِ الْمَكَانُ؟

كَأَنَّهَا تَنْتَظِرُ سُؤَالِي، اِنْقَضَّتْ يَدُهَا عَلَى صَدْرِهَا وَأَخْرَجَتْ وَرِيقَةً، وَبِكِلْتَا يَدَيْهَا مَدَّتْهَا إِلَيَّ وَهِيَ تَقُولُ:

- هَذِهِ هِيَ، هَذِهِ هِيَ.

أَخَذْتُهَا مِنْهَا وَأَنَا أَقُولُ:

- فَلْيَكُنْ يَا (أُمَّ عَلِيٍّ)، أَعِدُكِ أَنَّنِي سَأَنْظُرُ فِي الْأَمْرِ بِجِدِّيَّةٍ، وَأَتَحَيَّنُ الْفُرْصَةَ لِلذَّهَابِ هُنَاكَ.

عَادَتْ تُرْبِتُ عَلَى صَدْرِهَا وَتَقُولُ:

- إِنْ شَاءَ اللهُ لَنْ تَرَى إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَنَّكَ لَنْ تَخْسَرَ شَيْئًا، لَمْ يُخْبِرْنِي أَحَدٌ أَنَّهُ دَفَعَ شَيْئًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ.

أَوْمَأْتُ لَهَا بِرَأْسِي وَغَادَرَتْ مَكْتَبِي وَهِيَ لَا تَكُفُّ عَنِ الدُّعَاءِ لِي وَبِصَلَاحِ حَالِي وَحَالِ بَيْتِي.

أَمْسَكْتُ بِالْوَرِيقَةِ الْمُبْتَلَّةِ بِالْعَرَقِ وَتَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةُ الثُّومِ، لِلنِّسَاءِ أَمَاكِنُ غَرِيبَةٌ فِي حِفْظِ الْمَالِ وَالْأَوْرَاقِ، دَارَتْ هَذِهِ الْخَاطِرَةُ فِي ذِهْنِي وَأَنَا أَمْسَكُ بِهَاتِفِي وَأَبْحَثُ عَنِ الْعُنْوَانِ الَّذِي فِي الْوَرِيقَةِ، وَوَجَدْتُهُ.. لَمْ أُصَدِّقْ مَا رَأَيْتُهُ.. مِنَ الْمُسْتَحِيلِ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْمَكَانُ الْمَقْصُودُ.. هُنَاكَ خَطَأٌ فِي الْعُنْوَانِ حَتْمًا.. هَذَا فُنْدُقٌ ضَخْمٌ فَخْمٌ.. وَحَدَائِقُ غَنَّاءُ وَأَكْوَاخٌ تَصْطَفُّ عَلَى طُولِ الشَّاطِئِ.. لَا رَيْبَ أَنَّ هُنَاكَ خَطَأً مَا.. لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا هُوَ الْفُنْدُقُ الْمَقْصُودُ.. بَحَثْتُ عَنْ فَنَادِقَ أُخْرَى قَرِيبَةٍ مِنَ الْعُنْوَانِ، فَلَمْ أَجِدْ، وَدِدْتُ مُنَادَاةَ (أُمِّ عَلِيٍّ) لِأَقُولَ لَهَا أَنَّ الْعُنْوَانَ بِهِ خَطَأٌ مَا، وَهُنَا تَذَكَّرْتُ أَحَدَ رِجَالِ الْأَعْمَالِ الَّذِي يَهْتَمُّ بِأُمُورِ الدَّجَلِ كَثِيرًا، بَحَثْتُ عَنْ رَقْمِ هَاتِفِهِ فِي قَوَائِمِ الِاتِّصَالِ فِي هَاتِفِي حَتَّى وَجَدْتُهُ، اتَّصَلْتُ بِهِ وَأَجَابَنِي، وَبَعْدَ التَّحِيَّةِ وَتَبَادُلِ الْأَخْبَارِ، سَأَلْتُهُ عَنْ "الْإِشَاعَاتِ" حَوْلَ فُنْدُقٍ مَا، يَجْلِبُ الْخَيْرَ وَالْبَرَكَةَ لِزُوَّارِهِ، أَخْبَرَنِي أَنَّ هَذِهِ الْإِشَاعَاتِ صَحِيحَةٌ، وَلَمْ يُبْدِ مُتَحَمِّسًا لِهَذَا الْأَمْرِ، وَقَالَ إِنَّ تَجْرِبَتَهُ مَعَ هَذَا الْفُنْدُقِ لَمْ تَكُنْ جَيِّدَةً، وَانْتَابَهُ الْحَمَاسُ فَقَالَ:

- أَنَا أَعْرِفُ شَيْخًا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْخٌ، عَمَلٌ نَظِيفٌ وَسَرِيعٌ..

قَاطَعْتُهُ:

- سَيِّدُ (مَكِينُ)، أَنَا أَرْغَبُ فِي ذَلِكَ الْفُنْدُقِ، هَلْ تَعْرِفُ عُنْوَانَهُ؟

جَاءَنِي صَوْتُهُ يَحْمِلُ خَيْبَةَ الْأَمَلِ وَيقُولُ:

- أَمْلِكُهُ.

وَانْتَابَهُ الْحَمَاسُ مِنْ جَدِيدٍ فِي الدِّعَايَةِ لِشَيْخِهِ:

- وَلَكِنْ لَنْ تَجِدَ عِنْدَهُ مَا تَرْغَبُ فِيهِ، صَدِّقْنِي، أَنَّ شَيْخِي هُوَ الْأَفْضَلُ وَ..

قَاطَعْتُهُ مَرَّةً أُخْرَى:

- سَيِّدُ (مَكِينُ)، أَنَا أَرْغَبُ فِي ذَلِكَ الْفُنْدُقِ لِمَسْأَلَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالْعَمَلِ، هَلْ يُمْكِنُكَ أَنْ تُرْسِلَ لِي عُنْوَانَهُ الْآنَ؟

بِقُنُوطٍ.. بِأَسَفٍ.. كَاسِفَ الْبَالِ لِأَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى "زَبُونٍ" جَدِيدٍ لِشَيْخِهِ، أَجَابَنِي:

- سَأُرْسِلُهُ لَكَ فِي رِسَالَةٍ الْآنَ.

تَبَادَلْنَا التَّحِيَّةَ مَعَ وَعْدٍ بِلِقَاءٍ قَرِيبٍ، وَوَضَعْتُ الْهَاتَفَ عَلَى الْمَكْتَبِ، مَا هِيَ إِلَّا ثَوَانٍ وَارْتَفَعَ صَوْتُ الْهَاتِفِ بِرَنِينِ الرَّسَائِلِ، فَتَحْتُ الرِّسَالَةَ فَوَجَدْتُ الْعُنْوَانَ هُوَ نَفْسُهُ الَّذِي أَعْطَتْنِي إِيَّاهُ (أُمُّ عَلِيٍّ)، هُنَا بَحَثْتُ عَنِ الْجِهَةِ الَّتِي تَمْلِكُ الْفُنْدُقَ، وَعَرَفْتُ أَنَّ جَدَّكَ السَّيِّدَ (طَارِقَ) هُوَ مَالِكُهُ وَأَنَّ مُدِيرَهُ هُوَ أَبُوكَ، طَبْعًا جَدُّكَ السَّيِّدُ (طَارِقُ) غَنِيٌّ عَنِ التَّعْرِيفِ، وَلَمْ أَعْرِفْ أَوْ أَفْهَمْ عِلَاقَتَهُ بِمَا يُشَاعُ حَوْلَ فُنْدُقِهِ، وَلَكِنَّنِي كَمَا أَسْلَفْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ نَظِيفُ الْيَدَيْنِ، وَاسْتَوْقَفَتْنِي فِي بَحْثِي عَنْ قِصَّةِ حَيَاةِ جَدِّكَ عِبَارَةٌ لَمْ أَفْهَمْهَا..

8- إِلَى الْفُنْدُقِ

كَانَتْ يَدِي قَدْ مَلَّتْ عِنَاقَ أُخْتِهَا، فَتَرَكْتُهَا وَتَظَاهَرْتُ بِطَرْدِ ذُبَابَةٍ وَهْمِيَّةٍ، وَلِسَانِي يَقُولُ:

- وَمَا هِيَ؟

نَقَرَ سَطْحَ مَكْتَبِي بِأَصَابِعِهِ وَهُوَ يَنْظُرُ إِلَيَّ كَأَنَّهُ يَخْشَى أَنْ تَفُوتَهُ لَمْحَةٌ:

- مَنْ كَتَبَ الْعِبَارَةَ فِي مُوسُوعَةِ رِجَالِ الْأَعْمَالِ، يَقُولُ: "إِنَّ السَّيِّدَ (طَارِقَ) يَشْتَرِي الْبَيْضَةَ بِقِرْشٍ وَيَبِيعُهَا بِنِصْفِ قِرْشٍ وَيَرْبَحُ ثَلَاثَةَ قُرُوشٍ"، هَلْ تَعْرِفُ تَفْسِيرَ قَوْلِهِ هَذَا؟

بَادَلْتُهُ النَّظَرَ.. لَمْ أَتَكَلَّمْ..

* * *

"لَا يَعْرِفُ النَّاسُ عَنْكَ سِوَى أَقَلِّ الْأَشْيَاءِ مِمَّا يُفِيدُكَ أَنْتَ أَنْ يَعْرِفُوهَا"

جَدِّي السَّيِّدُ (طَارِقُ)

* * *

هَزَزْتُ رَأْسِي وَأَجَبْتُهُ بِصِدْقٍ:

- جَدِّي مَنْ لَهُ الْحَقُّ فِي الْحَدِيثِ عَنْ أُمُورِهِ الْخَاصَّةِ وَلَيْسَ أَنَا.

مُتَفَهِّمًا أَوْمَأَ بِرَأْسِهِ بِبُطْءٍ وَعَادَ يَرْوِي..

* * *

قَرَّرْتُ أَنْ أَحْجِزَ أُسْبُوعًا فِي الْفُنْدُقِ، عَلَى أَنْ يَكُونَ هَذَا فِي الصَّيْفِ الْقَادِمِ، أَيْ بَعْدَ سَبْعَةِ أَشْهُرٍ مِنَ الْآنِ، كَانَ الْأَمَلُ يُرَاوِدُنِي أَنْ تَنْتَهِيَ هَذِهِ الْغُمَّةُ، وَأَنْ تَكُونَ أَشْبَهَ بِسَحَابَةِ صَيْفٍ، حَقًّا أَنَّ الْأَمَلَ مِنْ سُيُوفِ الدَّهْرِ.
كَانَتِ الْأَسْعَارُ مُنَاسِبَةً، وَأَسْتَطِيعُ إِلْغَاءَ الْحَجْزِ فِي أَيِّ وَقْتٍ حَتَّى أُسْبُوعٍ مِنَ الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ، وَحَجَزْتُ لِشَخْصِي فَقَطْ، وَمَا أَنْ فَعَلْتُ ذَلِكَ، حَتَّى شَعَرْتُ بِالِارْتِيَاحِ، لَا يَزَالُ أَمَامِي طَرِيقٌ لِلْأَمَلِ أَسْلُكُهُ، وَمَعَ هَذَا رَجَوْتُ اللهَ صَادِقًا أَنْ لَا أَحْتَاجَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ، وَلَكِنَّ مَشِيئَةَ اللهِ وَحِكْمَتَهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

مَضَتِ الْأَيَّامُ بِلَا تَغَيُّرٍ يُذْكَرُ، لَمْ تَعُدْ عِلَاقَتِي بِحَفِيدَتِي كَمَا كَانَتْ، لَمْ أَعْرِفْ سِرَّ (عَوْضَ) وَلَا سِرَّ (عَادِلٍ)، وَلَا كَيْفَ يَأْتِي السُّمُّ إِلَى إِفْطَارِي، وَلَاحَظَ الْجَمِيعُ أَنَّنِي أَتَهَرَّبُ مِنْ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ فِي الْمَنْزِلِ، بَلْ صَارَ الْأَمْرُ إِلَى أَنَّنِي لَا أُطِيقُ بَيْتِي، وَأُحِبُّ مُغَادَرَتَهُ وَالْخُرُوجَ مِنْهُ وَلَا أُحِبُّ دُخُولَهُ وَالْعَوْدَةَ إِلَيْهِ، وَكَرَّرَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) رَجَاءَهَا بِأَنْ أَذْهَبَ إِلَى فُنْدُقِكُمْ وَأَنَا أُؤَكِّدُ لَهَا بِأَنَّنِي سَأَفْعَلُ، حَتَّى كَانَ يَوْمًا لَنْ أَنْسَاهُ.

* * *

كَانَتِ السَّاعَةُ تَقْتَرِبُ مِنَ التَّاسِعَةِ وَقْتَ الْغَدْوَةِ، وَأَنَا فِي طَرِيقِي لِلْجُلُوسِ فِي الْحَدِيقَةِ حِينَ سَمِعْتُ ضَجَّةً عَالِيَةً قَادِمَةً مِنَ الْمَطْبَخِ، هُرِعْتُ إِلَى هُنَاكَ، لِأَجِدَ الْمَشْهَدَ كَالْتَالِي:

صِينِيَّةُ طَعَامِ الْإِفْطَارِ الْخَاصَّةَ بِي عَلَى مَائِدَةِ الْمَطْبَخِ الرُّخَامِيَّةِ، يَبْدُو أَنَّ (أُمَّ عَلِيٍّ) كَانَتْ سَتُحْضِرُهَا لِي فِي الْحَدِيقَةِ، (أُمُّ عَلِيٍّ) عَلَى مَقْعَدٍ بِجِوَارِ الْمَائِدَةِ وَتَضَعُ رَأْسَهَا عَلَى الْمَائِدَةِ، يَبْدُو أَنَّهَا نَائِمَةٌ، وَالْغَرِيبُ أَنَّ الضَّجَّةَ لَمْ تُوقِظْهَا، عِدَّةُ أَطْبَاقٍ وَكُؤُوسٍ عَلَى الْأَرْضِ وَبَعْضُهَا مُحَطَّمٌ وَفِي وَسَطِهَا حَفِيدَتِي (حَسْنَاءُ) فَاقِدَةُ الْوَعْيِ، أَصَابَنِي الْفَزَعُ مِنْ رُؤْيَتِهَا مُلْقَاةً عَلَى الْأَرْضِ، أَسْرَعْتُ إِلَيْهَا أَرْفَعُ رَأْسَهَا عَنِ الْأَرْضِ وَأَنَا أَهْتِفُ بِاسْمِهَا، وَأَثَارَ رُعْبِي الدِّمَاءُ الَّتِي تَنْزِفُ مِنْ رَأْسِهَا، يَبْدُو أَنَّهَا حِينَ سَقَطَتْ أَوْ تَعَثَّرَتْ، ضَرَبَتْ رَأْسَهَا بِرُكْنِ الْمَائِدَةِ الرُّخَامِيَّةِ، أَسْرَعْتُ كَالْمَجْنُونِ أَطْلُبُ الْإِسْعَافَ قَبْلَ أَنْ أَتَنَاوَلَ حَقِيبَةَ الْإِسْعَافِ الْأَوَّلِيَّ مِنْ خِزَانَتِهَا وَأَسْرَعُ إِلَى حَيْثُ (حَسْنَاءُ)، وَأُحَاوِلُ إِيقَافَ النَّزِيفِ بِوَضْعِ الْقُطْنِ وَالشَّاشِ عَلَى مَوْضِعِ الْجُرْحِ، وَأَفَاقَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) مَذْعُورَةً تَسْأَلُ عَمَّا حَدَثَ، وَتُحَاوِلُ مُسَاعَدَتِي فِي إِسْعَافِ (حَسْنَاءُ)، وَأَنَا أَسْأَلُهَا عَمَّا حَدَثَ، طَبْعًا كَانَ حِوَارًا أَشْبَهَ بِحِوَارِ الصُّمِّ، حَتَّى جَاءَتْ عَرَبَةُ الْإِسْعَافِ وَقَامَ الْمُسْعِفُونَ بِحَمْلِ (حَسْنَاءُ) إِلَى عَرَبَةِ الْإِسْعَافِ، هُنَا انْتَبَهْتُ إِلَى كِيسٍ صَغِيرٍ مِنَ الْبِلَاسْتِيكِ تَقْبِضُ عَلَيْهِ (حَسْنَاءُ) بِيَدِهَا بِقُوَّةٍ.. سَحَبْتُ الْكِيسَ مِنْ يَدِهَا وَوَضَعْتُهُ فِي جَيْبِي، وَاسْتَقْلَيْتُ سَيَّارَةَ الْإِسْعَافِ مَعَ حَفِيدَتِي، وَحَاوَلَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) مُرَافَقَتَنَا، وَلَكِنَّنِي أَصْرَرْتُ عَلَيْهَا بِالْبَقَاءِ فِي الْمَنْزِلِ، وَفِي الْمُسْتَشْفَى أَخْبَرَنَا الْأَطِبَّاءُ أَنَّ إِصَابَتَهَا بَسِيطَةٌ وَسَتَتَعَافَى مِنْهَا فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ، وَقَضَتْ أُسْبُوعًا فِي الْمُسْتَشْفَى قَبْلَ أَنْ يُسْمَحَ لَهَا بِالْمُغَادَرَةِ، خِلَالَ ذَلِكَ الْأُسْبُوعِ فِي الْمُسْتَشْفَى، تَنَاوَبَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ)

وَأُمُّهَا الْبَقَاءَ مَعَهَا فِي الْمُسْتَشْفَى، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنَا ذَلِكَ، لِوُجُودِهَا فِي قِسْمِ النِّسَاءِ، وَكُنْتُ أَكْتَفِي بِزِيَارَةٍ قَصِيرَةٍ يَوْمِيَّةٍ لَهَا.

بَعْدَ عَوْدَتِهَا إِلَى الْبَيْتِ وَ..

* * *

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)!

قَاطَعْتُهُ بِكَلِمَاتِي هَذِهِ، وَالْتَفَتَ إِلَيَّ، تَابَعْتُ:

- أَنْتَ لَمْ تَذْكُرْ (عَادِلَ)! أَيْنَ هُوَ مِنْ ذَلِكَ؟

أَجَابَنِي بِعُيُونٍ تَحْدُقُ فِي الْعَدَمِ:

- لَمْ يَكُنْ حَاضِرًا، كَانَ قَدْ أَكْمَلَ شَهْرَيْنِ فِي الْعَمَلِ عِنْدِي، وَاعْتَذَرَ عَنِ الثَّالِثِ، مُعْلِنًا رَغْبَتَهُ فِي الْبَدْءِ بِإِعْدَادِ مَكْتَبِهِ الْخَاصِّ لِيَشْرَعَ فِي مُزَاوَلَةِ عَمَلِهِ كَمُحَامٍ، وَلَمْ يَنْسَ تَذْكِيرِي بِمَا وَعَدْتُهُ، وَأَكَّدْتُ لَهُ الْتِزَامِي بِوَعْدِي، وَغَادَرَ بَعْدَ أَنْ أَوْفَيْتُهُ - كَامِلًا - مَا اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ بِخُصُوصِ الْعَمَلِ عِنْدِي كَبَوَّابٍ.

سَأَلْتُهُ:

- أَلَمْ يُحَاوِلْ زِيَارَةَ حَفِيدَتِكَ أَوِ الْعَوْدَةَ لِزِيَارَتِكَ أَنْتَ بِعُذْرٍ مَا؟

بَعْدَ السُّكُوتِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَلَامِحِهِ، أَجَابَنِي:

- فِي إِحْدَى زِيَارَاتِي لِحَفِيدَتِي فِي الْمُسْتَشْفَى، يَبْدُو أَنَّنِي رَأَيْتُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَلَكِنَّنِي لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ ذَلِكَ، وَالْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ حِينَ جَاءَ لِزِيَارَتِي لِيُخْبِرَنِي بِأَنَّ مَكْتَبَهُ أَصْبَحَ جَاهِزًا لِاسْتِقْبَالِ الْعُمَلَاءِ وَلِتَهْنِئَةِ حَفِيدَتِي عَلَى سَلَامَتِهَا بَعْدَ أَنْ بَلَغَهُ الْحَادِثُ مِنَ "النَّاسِ"، وَيَرْجُو أَنْ أُوفِيَ بِوَعْدِي لَهُ.

سَأَلْتُهُ:

- وَبَعْدَهَا؟

نَفَى كَفَّهُ وَأَيَّدَهَا لِسَانُهُ:

- لَمْ نَلْتَقِ بَعْدَهَا، وَالْتَزَمْتُ بِوَعْدِي، وَقَدَّمْتُهُ لِبَعْضِ رِجَالِ الْأَعْمَالِ، بَلْ أَنَّنِي طَلَبْتُ مِنَ ابْنِي إِحَالَةَ بَعْضِ أَعْمَالِنَا إِلَيْهِ، كَمُسَاعَدَةٍ لَهُ فِي بَدَايَةِ عَمَلِهِ، وَقَدِ اتَّصَلَ بِي، لَا، لَا، لَقَدْ جَاءَ بِنَفْسِهِ يَشْكُرُنِي عَلَى مُسَاعَدَتِي لَهُ، وَأَنَّنِي قَدَّمْتُ لَهُ عَوْنًا كَبِيرًا.

اشْتَاقَتْ كَفَّايَ لِبَعْضِهِمَا، فَتَشَابَكَتَا، فَجَعَلْتُهُمَا مُتَّكِئًا لِجَبْهَتِي، وَأَنَا أَقُولُ:

- وَلَمْ يُحَاوِلْ رُؤْيَةَ حَفِيدَتِكَ فِي الْمَرَّتَيْنِ؟

أَلْقَى عَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةً ذَابِلَةً، أَجَابَنِي:

- لَمْ يَكُنْ فِي حَاجَةٍ لِذَلِكَ، فِي الْمَرَّتَيْنِ تَأْتِي حَفِيدَتِي وَ"تُفَاجَأُ" بِوُجُودِهِ، فَتَجْلِسُ مَعَنَا بِضْعَ دَقَائِقَ وَتَنْصَرِفُ.

سَأَلْتُهُ:

- هَلْ يَلْتَقِيَانِ فِي أَمَاكِنَ أُخْرَى؟

غَارَتِ ابْتِسَامَتُهُ الذَّابِلَةُ لِيَبْدُوَ مَكَانُهَا مَذَاقَ الْحَنْظَلِ، أَجَابَنِي:

- لَا أَظُنُّ ذَلِكَ، لَقَدْ أَحْسَنَتْ أُمُّهَا تَرْبِيَتَهَا، كَمَا أَحْسَنَتْ أُمُّهُ تَرْبِيَتَهُ، وَهَذَا مَا جَعَلَنِي صَادِقًا فِي مُسَانَدَتِهِ، حَتَّى فِي أَوْقَاتِ غِيَابِي عَنِ الْبَيْتِ لَا يَتَظَاهَرَانِ بِالْحَدِيثِ كَعَادَتِهِمَا.

رَفَعْتُ رَأْسِي إِلَيْهِ، سَأَلْتُ:

- وَكَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟

فَرَّ وَجْهُهُ بَعِيدًا عَنِّي، وَلَكِنَّنِي طَارَدْتُهُ بِسُؤَالِي:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)! كَيْفَ عَلِمْتَ أَنَّهُمَا لَا يَتَحَدَّثَانِ فِي غِيَابِكَ؟

فَجْأَةً أَصْبَحَتِ اللَّوْحَةُ الَّتِي تُقَابِلُنِي مَثَارَ اهْتِمَامِهِ، فَنَهَضَ وَذَهَبَ إِلَيْهَا، يَتَأَمَّلُ، وَعَقَدَ كَفَّيْهِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْجَوَابَ، بَعْدَ صَمْتٍ يُصِرُّ عَلَى الْجَوَابِ، قَالَ:

- قُمْتُ بِوَضْعِ آلَةِ مُرَاقَبَةٍ سِرِّيَّةٍ لَا يَعْلَمُ بِأَمْرِهَا سِوَايَ، كَيْ تُرَاقِبَ الْحَدِيقَةَ وَحُجَرَاتِ الْمَنْزِلِ الْمُطِلَّةَ عَلَيْهَا.

بَعْدَ هُنَيَّةٍ، أَرْدَفَ:

- أَنْتَ تَعْلَمُ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ، وَخَوْفَهُ عَلَى مُمْتَلَكَاتِهِ.

حَمَلْتُ كَلِمَاتِي مَغْزًى لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ:

- لَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا الْخَوْفَ ظَهَرَ بَعْدَ بَدْءِ (عَادِلٍ) الْعَمَلَ لَدَيْكَ!

لَمْ يُعَقِّبْ، وَتَكَلَّمَ صَمْتُهُ بِالْحَقِيقَةِ وَافِيَةً، حَثَثْتُهُ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ بِقَوْلِي:

- وَبَعْدُ، مَاذَا حَدَثَ؟

* * *

كُنْتُ جَالِسًا فِي قَاعَةِ الِاسْتِقْبَالِ، أُقَلِّبُ قَنَوَاتِ التِّلْفَازِ بَحْثًا عَنْ شَيْءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ، حِينَ جَاءَتْنِي (أُمُّ عَلِيٍّ) تَمُدُّ يَدَهَا بِكِيسٍ صَغِيرٍ وَتَقُولُ:

- سَامِحْنِي يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ)، أَنَا كَبِرْتُ وَصِرْتُ أَنْسَى كَثِيرًا.

تَنَاوَلْتُ مِنْهَا الْكِيسَ، وَمُسْتَغْرِبًا سَأَلْتُهَا:

- مَا هَذَا؟

شَبَّكَتْ كَفَّيْهَا كَعَادَتِهَا، قَبْلَ أَنْ تُجِيبَنِي:

- وَجَدْتُهُ فِي سَرْوَالِكَ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ وَوَضَعْتُهُ جَانِبًا لِأُعْطِيَكَ إِيَّاهُ، وَنَسِيتُ، وَالْيَوْمَ وَجَدْتُهُ فِي أَحَدِ أَدْرَاجِ الْمَطْبَخِ وَتَذَكَّرْتُهُ وَأَحْضَرْتُهُ لَكَ.

شَكَرْتُهَا وَأَنَا فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْكِيسِ، مَا هُوَ؟ مِنْ أَيْنَ جِئْتُ بِهِ؟ مَا الَّذِي بِدَاخِلِهِ؟ كُنْتُ سَأُلْقِي بِالْأَمْرِ جَانِبًا دُونَ اهْتِمَامٍ، حِينَ تَذَكَّرْتُ أَمْرَ هَذَا الْكِيسِ، أَنَّهُ الْكِيسُ الَّذِي كَانَتْ (حَسْنَاءُ) تُمْسِكُ بِهِ يَوْمَ الْحَادِثَةِ.

أَصْبَحَ الْكِيسُ شُغْلِي الشَّاغِلَ، مَا هُوَ؟ مَاذَا تَفْعَلُ بِهِ (حَسْنَاءُ)؟ لَا يَبْدُو كَدَوَاءٍ، فَهُوَ مَسْحُوقٌ بِلَوْنِ الْكُرْكُمِ، وَلَمْ تَفْقَدْهُ (حَسْنَاءُ) وَلَمْ تَهْتَمَّ بِالسُّؤَالِ عَنْهُ.. هُنَا.. لا أَدْرِي السَّبَبَ.. لَعَلَّهُ الْفُضُولُ.. أَوِ الْفَرَاغُ.. أَيًّا كَانَ السَّبَبُ، فَقَدْ أَرْسَلْتُ الْكِيسَ بِمَا فِيهِ إِلَى الدُّكْتُورِ (جَادَ اللهِ).. وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ أَخْبَرَنِي بِمَا فِيهِ، أَتَعْلَمُ مَاذَا بِهِ؟ ذَاتُ الْمَادَّةِ الَّتِي تُوضَعُ فِي طَعَامِي وَتُؤَدِّي لِمَوْتِي.

* * *

صُدِمْتُ.. ذُهِلْتُ.. ضَاقَتْ بِيَ الدُّنْيَا.. كَانَتِ الْأُمُورُ فِي بَيْتِي أَفْضَلَ مِنْ قَبْلَ وَإِنْ لَمْ تَعُدْ إِلَى سَابِقِ عَهْدِهَا.. جَاءَ مَوْضُوعُ هَذَا الْكِيسِ لِيُعِيدَ الْهَمَّ وَالْغَمَّ إِلَيَّ.. قَدْ تَقُولُ أَنَّ هُنَاكَ أَلْفَ تَفْسِيرٍ لِوُصُولِ هَذَا الْكِيسِ إِلَى يَدِ (حَسْنَاءَ).. لَيْسَ مِنْهَا الرَّغْبَةُ فِي قَتْلِي.. وَلَكِنْ مَاذَا تَقُولُ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّهُ مُنْذُ يَوْمِ الْحَادِثَةِ لَمْ يُوضَعْ سُمٌّ فِي طَعَامِي؟! جَمِيعُ الْعَيِّنَاتِ بِمَا فِيهَا عَيِّنَاتُ طَعَامِ الْإِفْطَارِ صَارَتْ خَالِيَةً تَمَامًا مِنْ أَيِّ شَاذٍّ أَوْ غَرِيبٍ!

لَا أَعْلَمُ مَاذَا أَفْعَلُ؟ كُلُّ مَا رَغِبْتُ فِيهِ هُوَ أَنْ أَتْرُكَ الْبَيْتَ، شَعَرْتُ بِهِ كَزِنْزَانَةٍ تَغُوصُ قُضْبَانُهَا فِي لَحْمِي، لَا أَطِيقُ الْبَقَاءَ فِيهِ.. لَا أُحِبُّ رُؤْيَتَهُ.. لَا أَرْغَبُ فِي رُؤْيَةِ (حَسْنَاءَ) وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا.. لَا أَدْرِي أَيْنَ أَذْهَبُ.. لَا أَرْغَبُ فِي الذَّهَابِ عِنْدَ أَحَدٍ أَعْرِفُهُ.. ثُمَّ تَذَكَّرْتُ فُنْدُقَكُمْ وَأَنِّي قَدْ حَجَزْتُ أُسْبُوعًا.. وَ.. وَأَتَيْتُ إِلَى هُنَا، وَفِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ لِإِقَامَتِي لَمْ أَجْرُؤْ عَلَى التَّمَسُّحِ بِشَيْءٍ كَمَا قَالَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ)، وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي اسْتَجْمَعْتُ شَجَاعَتِي وَوَقَفْتُ أَمَامَ عَلَامَةِ الْفُنْدُقِ مُتَرَدِّدًا قُرَابَةَ السَّاعَةِ، وَلَا أَسْتَغْرِبُ إِنْ ظَنَّ بِي مَنْ رَآنِي الظُّنُونَ، وَاحْتَجْتُ قُوَّةً هَائِلَةً كَيْ أُمْسِكَ بِعَلَامَةِ الْفُنْدُقِ، وَانْهَارَ تَمَامًا.. وَكَانَ مَا كَانَ..

* * *

مَعَ نِهَايَةِ قِصَّتِهِ، كَانَ السَّيِّدُ (شَاكِرُ) قَدِ انْهَارَ تَمَامًا، وَهُرِعْتُ مِنْ مَقْعَدِي إِلَيْهِ، وَأَمْسَكْتُ بِهِ وَأَخَذْتُهُ إِلَى أَرِيكَةٍ قَرِيبَةٍ، تَحَدَّثْتُ عَنِ الِاتِّصَالِ بِطَبِيبٍ، فَأَمْسَكَ بِيَدِي وَهُوَ يَقُولُ بِوَهَنٍ:

- كَلَّا، أَمْهِلْنِي بِضْعَ دَقَائِقَ وَسَأَصِيرُ أَفْضَلَ حَالًا.

رَبَّتُّ عَلَى كَتْفِهِ وَأَنَا أَقُولُ:

- فَلْيَكُنْ، سَآتِيكَ بِكَأْسٍ مِنْ عَصِيرِ اللَّيْمُونِ.

بِضَعْفٍ نَفَتْ يَدَهُ، قَالَ:

- اِجْعَلْهَا فِنْجَانَ قَهْوَةٍ.

قُلْتُ وَالشَّكُّ رَفِيقُ كَلِمَاتِي:

- أَمُتَأَكِّدُ مِنْ ذَلِكَ؟

ظَهَرَتِ ابْتِسَامَةٌ شَاحِبَةٌ.. وَاهِنَةٌ.. تَوَارَتْ بِأَسْرَعَ مِمَّا ظَهَرَتْ، أَجَابَنِي:

- نَعَمْ، أَنَا أَعْرِفُ نَفْسِي جَيِّدًا.

بِسُرْعَةٍ اتَّصَلْتُ بِـ (حَسَنٍ)، طَلَبْتُ مِنْهُ إِحْضَارَ فِنْجَانِ قَهْوَةٍ إِلَى مَكْتَبِي بِسُرْعَةٍ، وَجَلَسْتُ قُبَالَةَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) وَأَنَا أَتَأَمَّلُ فِي حَالِهِ.

كَانَ السَّيِّدُ (شَاكِرُ) جَبَلًا جَرَفَهُ سَيْلُ الْأَحْزَانِ، وَتَرَكَهُ غُصْنًا ذَابِلًا فِي وَادٍ أَجْرَدَ تَحُفُّهُ السَّمَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، بَعْدَ دَقَائِقَ دَخَلَ (حَسَنٌ) الْمَكْتَبَ حَامِلًا فِنْجَانَ الْقَهْوَةِ بَعْدَ أَنْ طَرَقَ الْبَابَ، أَشَرْتُ لَهُ بِأَنْ يَضَعَ الْفِنْجَانَ أَمَامَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) وَيَنْصَرِفَ، وَكَانَ قَدْ شَعَرَ بِأَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا مَا، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى قَلْبِهِ مُخْفِيًا إِبْهَامَهُ، فِي إِشَارَةٍ خَاصَّةٍ مِنَ الْإِشَارَاتِ الْمُتَعَارَفِ عَلَيْهَا بَيْنَ الْعَامِلِينَ فِي الْفُنْدُقِ، وَتَعْنِي "هَلِ اتَّصَلَ بِطَبِيبٍ؟"، حَكَكْتُ وَجْنَتِي بِسَبَّابَتِي بِمَعْنَى "لَا"..

انْتَظَرْتُ حَتَّى اسْتَعَادَ السَّيِّدُ (شَاكِرُ) حَالَتَهُ الطَّبِيعِيَّةَ، وَفَرَغَ مِنْ تَنَاوُلِ قَهْوَتِهِ.. تَنَحْنَحْتُ.. تَكَلَّمْتُ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)..

نَظَرَ إِلَيَّ، فَتَابَعْتُ:

- ثُمَّ.. مَاذَا بَعْدَ؟

جَاوَبَتْنِي مَلَامِحُهُ بِالْجُمُودِ.. وَعَيْنَاهُ فِي عَيْنَيَّ تَبْحَثَانِ عَنْ شَيْءٍ لَا تَجِدَانِهِ.. يَائِسَتَانِ تَنْظُرَانِ إِلَى شَيْءٍ كَانَ هُنَا ثُمَّ مَاتَ.. وَجَاءَنِي صَوْتُهُ بَعِيدًا.. أَنِينًا فِي لَيْلَةِ انْكِسَارٍ.. تَائِهًا بَيْنَ الصَّمْتِ وَالْخُفُوتِ:

- أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ.. مَاذَا حَلَّ بِي؟.. مَاذَا حَلَّ بِحَفِيدَتِي؟.. مَاذَا حَلَّ بِبَيْتِي؟.. أَهُوَ سِحْرٌ أَمْ حَسَدٌ أَمْ عِقَابٌ إِلَهِيٌّ لِذَنْبٍ ارْتَكَبْتُهُ وَنَسِيتُهُ؟.. لِمَاذَا يَحْدُثُ كُلُّ هَذَا؟.. لِمَاذَا تُرِيدُ حَفِيدَتِي قَتْلِي؟.. لِمَاذَا؟.. أَمْسَكْتُ بِالدَّلِيلِ بِيَدَيَّ وَلَكِنَّ قَلْبِي يَرْفُضُهُ.. لَا يُصَدِّقُهُ.. حَفِيدَتِي.. (حَسْنَاءُ).. لَا يُمْكِنُ أَنْ تُؤْذِيَنِي يَوْمًا.. الْوَاقِعُ يُصَدِّقُ وَقَلْبِي يُنْكِرُ.. مَنْ (عَوْضُ)؟.. مَنْ (عَادِلُ) هَذَا؟ وَمَا الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَفِيدَتِي؟.. وَهَلْ مَا بَيْنَهُمَا لَهُ عِلَاقَةٌ بِقَتْلِي؟.. هَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُجِيبَنِي عَنْ هَذَا كُلِّهِ؟..

* * *

9- دَوَافِعُ لَا تَسْتَحِقُّ

لَنْ أُنْكِرَ أَنَّ حَمَاسِي قَدْ خَفَتَ كَثِيرًا بِخُصُوصِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ أَوِ الْمَسْأَلَةِ، وَلَكِنْ مَا أَبْقَى جَذْوَةَ الْحَمَاسِ مُشْتَعِلَةً فِي قَلْبِي هُوَ غِيَابُ الْمَنْطِقِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَصْبِحَ الْحَفِيدَةُ عَدُوًّا لِجَدِّهَا بَيْنَ لَيْلَةٍ وَضُحَاهَا، بَلْ وَتُفَكِّرُ فِي قَتْلِهِ، لَنْ تَفْعَلَ هَذَا لِسَبَبٍ بَسِيطٍ، لَا بُدَّ مِنْ سَبَبٍ قَوِيٍّ يَمْتَدُّ تَأْثِيرُهُ عَبْرَ السِّنِينَ، يُغَذِّي خِلَالَهَا الْحِقْدَ وَالْكُرْهَ فِي قَلْبِهَا، حَتَّى تَصِلَ إِلَى لَحْظَةٍ حَاسِمَةٍ تُقَرِّرُ فِيهَا التَّخَلُّصَ مِنْ جَدِّهَا، وَخِلَالَ هَذِهِ السِّنِينَ لَا بُدَّ أَنْ تَظْهَرَ عَلَامَةٌ هُنَا أَوْ هُنَاكَ.. هَفْوَةٌ.. أَيُّ شَيْءٍ يُظْهِرُ هَذَا الْحِقْدَ، هَلْ ظَهَرَ شَيْءٌ مِنْهَا وَخَفِيَ عَنْ جَدِّهَا؟ رُبَّمَا ظَهَرَ وَلَمْ يَرَهُ الْجَدُّ، لَقَدْ حَجَبَهُ الْحُبُّ الْعَمِيقُ فِي قَلْبِهِ عَنْهُ!

هُنَاكَ ثَلَاثَةُ حَوَادِثَ فِي حَيَاةِ الْفَتَاةِ قَدْ تَغْرِسُ فِي قَلْبِهَا الْكُرْهَ، الْأُولَى هِيَ رَفْضُ مَنْ تَقَدَّمَ لِلزَّوَاجِ مِنْهَا فِي الْجَامِعَةِ، لَا شَكَّ أَنَّ هَذَا أَزَاحَ لِلضَّغِينَةِ مَكَانًا فِي قَلْبِهَا نَحْوَ جَدِّهَا، أَبَاهَا مَنْ رَفَضَ، وَلَكِنْ مِمَّا اسْتَنْبَطْتُهُ أَنَّ الْجَدَّ هُوَ صَاحِبُ الْقَرَارِ وَالتَّأْثِيرِ فِي الْأَمْرِ، وَلِقَبُولِ هَذَا الِاحْتِمَالِ أَحْتَاجُ إِلَى قِصَّةِ حُبٍّ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ، قِصَّةِ حُبٍّ عَمِيقَةٍ.. عَنِيفَةٍ.. قِصَّةِ حُبٍّ عَاشَتْ عَبْرَ السِّنِينَ..

الْحَادِثَةُ الثَّانِيَةُ، هِيَ وَفَاةُ أَبِيهَا، هَلْ لِجَدِّهَا يَدٌ فِي مَوْتِ أَبِيهَا؟ الْمَنْطِقُ يَقُولُ هَذَا مُحَالٌ، وَيَبْقَى هُنَاكَ احْتِمَالٌ أَنَّهَا تَحْمِلُ جَدَّهَا مَوْتَ وَالِدِهَا لِسَبَبٍ مَا، الشَّوَاهِدُ تَنْفِي هَذَا الِاحْتِمَالَ، هَلْ هِيَ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الْقَادِرَةِ عَلَى التَّحَكُّمِ بِانْفِعَالَاتِهَا وَإِخْفَاءِ سَرِيرَتِهَا؟..

الْحَادِثَةُ الثَّالِثَةُ، زَوَاجُ أُمِّهَا، هَلْ كَانَ زَوَاجُ أُمِّهَا بِرَغْبَةٍ مِنْهَا، أَمْ أُكْرِهَتْ عَلَى ذَلِكَ الزَّوَاجِ لِسَبَبٍ أَوْ لِآخَرَ؟ مِنْ قِبَلِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ)! أَنَّهُ يُظْهِرُ نَفْسَهُ بَرِيئًا،

وَلَكِنَّهُ دَائِمًا يَبْدُو ظَاهِرًا فِي خَلْفِيَّةِ كُلِّ حَادِثَةٍ، هَلْ هَذَا مَا جَعَلَ نَارَ الْحِقْدِ تَضْطَرِمُ فِي قَلْبِهَا عَلَى جَدِّهَا! هَلْ يَسْتَحِقُّ الْأَمْرُ ذَلِكَ؟ هَذَا الِاحْتِمَالُ يَعْتَمِدُ عَلَى الْعَلَاقَةِ الَّتِي تُرْبِطُهَا بِأُمِّهَا وَلَيْسَ عَلَى الْحُبِّ ذَاتِهِ..

طَبْعًا تُوجَدُ عَشَرَاتُ الاحْتِمَالَاتِ الْأُخْرَى.. سِرٌّ لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهَا.. الْمَالُ.. الْجُنُونُ..

(عَوْضُ) وَ(عَادِلُ)؟.. لَا شَكَّ أَنَّ عَلَاقَتَهُمَا بِالْأَمْرِ سَتَبْدُو وَاضِحَةً جَلِيَّةً إِذَا عُرِفَ السَّبَبُ..

وَمَعَ بَدْءِ تَحَرِّيَّاتِي تَهَاوَتْ جَمِيعُ هَذِهِ الِاحْتِمَالَاتِ كَقِطَعِ الدُّومِينُو..

الْفَتَاةُ تَحْيَا حَيَاةً رَتِيبَةً، تَنْحَصِرُ فِي عَمَلِهَا وَمَنْزِلِ جَدِّهَا، رَتِيبَةً حَتَّى أَنَّكَ تَسْتَطِيعُ تَحْدِيدَ السَّاعَةِ لِنَشَاطِهَا، السَّابِعَةَ تَغَادِرُ بَوَّابَةَ مَنْزِلِ جَدِّهَا، السَّابِعَةَ وَالنِّصْفَ تَدْخُلُ الْمُؤَسَّسَةَ النِّسَائِيَّةَ لِتُبَاشِرَ عَمَلَهَا، الثَّانِيَةَ وَالنِّصْفَ تَغَادِرُهَا لِتَدْخُلَ بَوَّابَةَ الْمَنْزِلِ السَّاعَةَ الثَّالِثَةَ، يَوْمَ الْخَمِيسِ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنَ الْمُؤَسَّسَةِ تَذْهَبُ لِلتَّسَوُّقِ، لِتَعُودَ إِلَى الْمَنْزِلِ السَّاعَةَ الْخَامِسَةَ وَالنِّصْفَ، عَصْرَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنَ الثَّالِثَةِ إِلَى الْخَامِسَةِ يَجْمَعُهَا لِقَاءٌ بِصَدِيقَاتِهَا فِي مَنْزِلِهَا أَوْ مَنْزِلِ إِحْدَى صَدِيقَاتِهَا، حَيَاةٌ رَتِيبَةٌ جِدًّا، وَلَمْ يَشْهَدْ أَحَدٌ يَوْمًا عَلَاقَةً خَاصَّةً جَمَعَتْهَا بِشَخْصٍ مَا، ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى.. وَلَمْ تَرَ عَيْنٌ انْفِعَالًا غَيْرَ تَقْلِيدِيٍّ أَوْ مُعْتَادٍ نَحْوَ شَخْصٍ أَوْ شَيْءٍ مَا..

هَذَا دَفَعَنِي لِلسَّعْيِ إِلَى لِقَائِهَا، لِمَعْرِفَةِ طَبِيعَتِهَا الشَّخْصِيَّةِ بِنَفْسِي، لِذَلِكَ وَجَدْتُ نَفْسِي عِنْدَ السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ قَبْلَ الْغُرُوبِ جَالِسًا فِي بَهْوِ الِاسْتِقْبَالِ فِي مَنْزِلِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) أَنْتَظِرُ نُزُولَهَا، وَجَاءَتْ..

حَقًّا هِيَ جَمِيلَةٌ وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أَوْحَى بِهِ كَلَامُ جَدِّهَا، وَلَكِنَّنِي أَقُولُ أَنَّهُ جَمَالٌ مُمَيَّزٌ، لَقَدْ عِشْتُ حَيَاتِي فِي فُنْدُقٍ وَرَأَيْتُهُ وَهُوَ يَتَطَوَّرُ وَيَتَغَيَّرُ وَالنَّاسُ تَأْتِيهِ مِنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ وَمِنْ مُخْتَلِفِ الْبِلَادِ وَالْأَصْقَاعِ، وَرَأَيْتُ الْجَمَالَ بِمُخْتَلِفِ أَشْكَالِهِ وَأَنْوَاعِهِ، رَأَيْتُ جَمَالَ الْأَجْنَاسِ وَالْأَعْرَاقِ مِنْ عَرَبٍ وَتُرْكٍ وَأُورُوبِيِّينَ وَأَفَارِقَةٍ وَأَسْيَوِيِّينَ وَسِوَاهُمْ، وَرَأَيْتُ الْجَمَالَ الْهَادِئَ الَّذِي لَا تَمَلُّ الْعَيْنُ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، وَالْجَمَالَ الْعَنِيفَ كَشَمْسِ صَيْفٍ لَاهِبَةٍ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُطِيلَ النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَرَأَيْتُ الْجَمَالَ الطَّبِيعِيَّ وَالْجَمَالَ الَّذِي تَمَّ شِرَاؤُهُ بِجِبَالٍ مِنَ الْمَالِ، وَرَأَيْتُ الْجَمَالَ الَّذِي يَنْبُعُ مِنَ الرُّوحِ فَيَكْسِبُ صَاحِبَهُ جَمَالًا لَا تَمْلِكُهُ مَلَامِحُهُ، وَرَأَيْتُ جَمَالًا فَاتِنًا وَلَكِنَّهُ مَيِّتٌ هَامِدٌ لَا يُحَرِّكُ فِي مَنْ يَرَاهُ سَاكِنًا، كَجَمَالِ عَرُوسٍ مِنْ عَرَائِسِ الْعَرْضِ الْبِلَاسْتِيكِيَّةِ فِي الْمَتَاجِرِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ تَخْتَلِفُ حَتْمًا.. كَأَنَّهَا أَخَذَتْ مِنْ كُلِّ جَمَالٍ حَفْنَةً وَمِنْ كُلِّ مَلْمَحٍ جَمِيلٍ لَمْسَةً، وَاغْتَرَفَتْ مِنْ جَمَالِ الرُّوحِ، فَلَمْ يُكْثِرْ عَلَيْهَا اللَّقَبُ الَّذِي أَطْلَقَهُ جَدُّهَا عَلَيْهَا "جَمِيلَةُ الْجَمِيلَاتِ".. وَالْغَرِيبُ أَنْ لَا يَطْرُقَ بَابَهَا كُلَّ حِينٍ مَنْ يَرْغَبُ فِي الزَّوَاجِ مِنْهَا..

رَحَّبَتْ بِي وَهِيَ تَدْعُونِي لِلْجُلُوسِ، جَلَسْتُ وَأَخْرَجْتُ بِطَاقَتِي التَّعْرِيفِيَّةَ وَمَدَدْتُهَا إِلَيْهَا، تَنَاوَلَتْهَا وَنَظَرَتْ إِلَيْهَا، لَمْ تَضَعْهَا كَعَادَةِ الْأَكْثَرِيَّةِ، الَّذِينَ يَكْتَفُونَ بِقِرَاءَةٍ سَرِيعَةٍ ثُمَّ يَضَعُونَهَا جَانِبًا، بَلْ قَرَنَتْ حَاجِبَيْهَا كَأَنَّهَا تُحَاوِلُ أَنْ تَتَذَكَّرَ شَيْئًا مَا أَوْ أَنَّ الْبِطَاقَةَ تُذَكِّرُهَا بِشَيْءٍ لَا تَذْكُرُ مَا هُوَ، رَحَّبَتْ بِي مِنْ جَدِيدٍ وَهِيَ تَضَعُ الْبِطَاقَةَ جَانِبًا وَالشُّرُودُ فِي مَلَامِحِهَا.

كَانَ عَمَلُ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) هُوَ وَسِيلَتِي لِفَتْحِ الْحَدِيثِ مَعَهَا، وَقَدْ تَحَدَّثْتُ كَثِيرًا وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَدْفَعَ الْحَدِيثَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ إِلَى جَوَانِبِ حَيَاتِهَا الشَّخْصِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَتَفَادَى الْغَوْصَ فِي تَفَاصِيلِ حَيَاتِهَا، حَتَّى قَاطَعَتْنِي وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيَّ بِتَمَعُّنٍ:

- سَيِّدُ (طَارِقُ)، جَدِّي تَرَكَ مَجَالَ الْأَعْمَالِ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ لِيُفْسِحَ الْمَجَالَ لِابْنَيْهِ، أَبِي (رَحِمَهُ اللهُ) وَعَمِّي، فَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ؟

كَانَ سُؤَالُهَا اسْتِنْكَارًا لَطِيفًا لِأَسْئِلَتِي الَّتِي تَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْعَمَلِ رَغْمَ لَبَاقَتِهَا، أَجَبْتُهَا:

- يَمُوتُ الزَّمَّارُ وَيَدَاهُ تَلْعَبَانِ، وَكَوْنِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) تَرَكَ الْعَمَلَ، فَإِنَّ عَلَاقَاتِهِ وَمَعَارِفَهُ لَا تَزَالُ قَائِمَةً، وَالْعَلَاقَاتُ هِيَ رَأْسُ مَالٍ حَقِيقِيٍّ فِي مَجَالِ الْأَعْمَالِ.

- حَقًّا.

قَالَتْهَا وَشَيْءٌ أَشْبَهُ بِالسُّخْرِيَةِ فِي صَوْتِهَا، وَمَدَّتْ يَدَهَا تَتَنَاوَلُ بِطَاقَتِي مِنْ جَدِيدٍ لِتَنْظُرَ إِلَيْهَا وَأَنَا أَقُولُ:

- حَقًّا يَا آنِسَةُ (حَسْنَاءَ)، حَقًّا.

كَانَ تَعْلِيقُهَا عَلَى كَلَامِي وَهِيَ تَتَأَمَّلُ الْبِطَاقَةَ هُوَ:

- لَقَدْ حَقَّقْتُمْ نَجَاحًا وَشُهْرَةً لَا بَأْسَ بِهَا.

عَقَّبْتُ فِي حَمَاسٍ:

- إِنَّ شُهْرَةَ فُنْدُقِنَا وَاسِعَةٌ جِدًّا، وَهُوَ مِنْ سِلْسِلَةِ فَنَادِقَ حَوْلَ الْعَالَمِ، وَنَسْعَى دَائِمًا لِلْحِفَاظِ عَلَى السَّبْقِ وَالنَّجَاحِ، لِهَذَا جِئْتُ الْيَوْمَ لِنَسْتَفِيدَ مِنْ خِبْرَاتِ وَعَلَاقَاتِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ).

ابْتِسَامَتُهَا أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَقْصِدُ مَا عَنَيْتُهُ بِجَوَابِي، وَرَغْمَ أَنِّي رَأَيْتُ ابْتِسَامَتَهَا كَلَمْحِ الْبَصَرِ قَبْلَ أَنْ أَغْضَضَ بَصَرِي، إِلَّا أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ الْقَوْلَ بِأَنَّ جَمَالًا آخَرَ ظَهَرَ عَلَيْهَا.

فُوجِئْتُ بِصَوْتِهَا يَصِيرُ حَازِمًا، وَرَأَيْتُ خَيَالَهَا بِطَرَفِ عَيْنِي يَمِيلُ نَحْوِي، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهَا، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ تَلْتَقِي أَعْيُنُنَا، وَهِيَ تَقُولُ:

- سَيِّدُ (طَارِقُ).. دَعْ عَنْكَ اللَّفَّ وَالدَّورَانَ، مَاذَا تُرِيدُ؟

كَانَتْ ذَكِيَّةً، وَمِنَ الْخَطَأِ إِنْكَارُ هَذَا الْجَانِبِ أَوْ تَجَاهُلُهُ، وَيَبْدُو أَنَّهَا تَذَكَّرَتْ مَا نَبَشَتْهُ بِطَاقَتِي فِي ذَاكِرَتِهَا، لِذَلِكَ نَزَلْتُ عِنْدَ رَغْبَتِهَا، وَبَادَلْتُهَا بِالْمِثْلِ، مِلْتُ نَحْوَهَا، وَأَنَا أَقُولُ بِجِدِّيَّةٍ جَعَلَتْ مَا قَبْلَهَا أَطْلَالًا:

- أُرِيدُ إِجَابَةَ بُضْعَةِ أَسْئِلَةٍ.

لَمْ تَتَكَلَّمْ وَانْتَظَرَتْ مِنِّي أَنْ أُكْمِلَ، فَأَكْمَلْتُ:

- فِي يَوْمِ الْحَادِثَةِ الَّتِي وَقَعَتْ لَكِ فِي مَطْبَخِ مَنْزِلِكُمْ، لِمَاذَا عُدْتِ إِلَى الْمَنْزِلِ بَعْدَ أَنْ غَادَرْتِيهِ؟

كَانَ جَوَابُهَا أَنْ اعْتَدَلَتْ فِي مَجْلِسِهَا، وَنَظَرَتْ عَبْرَ النَّوَافِذِ الْفَرَنْسِيَّةِ الَّتِي تُطِلُّ مِنْهَا بَهْوُ الِاسْتِقْبَالِ عَلَى الْحَدِيقَةِ، ثُمَّ قَالَتْ:

- وَأَنَا لَدَيَّ سُؤَالَانِ.

وَالْتَفَتَتْ إِلَيَّ وَهِيَ تُوَاصِلُ:

- كَيْفَ عَرَفْتَ بِأَمْرِ الْحَادِثَةِ؟ وَبِأَيِّ حَقٍّ تَسْأَلُنِي الْإِجَابَةَ؟

أَجَبْتُهَا وَقَدْ حَرَصْتُ عَلَى إِحْدَاثِ أَكْبَرِ قَدْرٍ مُمْكِنٍ مِنَ الصَّدْمَةِ:

- السُّؤَالَانِ جَوَابُهُمَا وَاحِدٌ، رَجُلٌ أَنْتِ كُلُّ دُنْيَاهُ وَيُحِبُّكِ أَكْثَرَ مِنْ كُلِّ الْوُجُودِ، بَلْ وَأَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَيُؤْمِنُ تَمَامًا أَنَّكَ تَرْغَبِينَ فِي قَتْلِهِ، هَذَا الرَّجُلُ هُوَ.. جَدُّكِ.

نَظَرَةُ الذُّهُولِ وَالارْتِيَاعِ عَلَى وَجْهِهَا، هَدَمَتِ الْجَانِبَ النَّفْسِيَّ فِي حُزْمَةِ الاِحْتِمَالَاتِ الَّتِي أَحْمِلُهَا، وَسَمِعْتُهَا تَقُولُ بِذُهُولٍ:

- ج.. جَدِّي.. جَدِّي يَظُنُّ أَنِّني.. أَرْغَبُ.. فِي قَتْلِهِ! ك.. كَيْفَ؟.. لِمَاذَا؟

رَاقَبْتُ انْفِعَالَهَا وَلَمْ يَنْجَحِ الْإِشْفَاقُ فِي أَنْ يَغْزُوَ قَلْبِي، أَوْ يَنْزَعَ الْعُنْفُوَانَ مِنْ انْفِعَالَاتِي، وَوَجَدْتُ نَفْسِي أَقُولُ بِنَفْسِ النَّبْرَةِ:

- آنِسَةُ (حَسْنَاءَ)..

تَنْظُرُ إِلَيَّ كَأَنَّهَا تَرَانِي لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَلَا يَزَالُ وَجْهُهَا يَحْمِلُ انْفِعَالَهُ، فَأَرْدَفْتُ:

- لَمْ تُجِيبِي سُؤَالِي.

اِكْتَفَيْتُ بِهَذَا وَتَرَكْتُ لَهَا مِنَ الْوَقْتِ مَا يَكْفِيهَا، حَتَّى ذَهَبَ عَنْهَا الرَّوْعُ، وَخَرَجَ صَوْتُهَا مُتَعَثِّرًا:

- أَنَا.. أَنَا لَمْ أَعْلَمْ بِأَنَّ هُنَاكَ مَنْ يُحَاوِلُ قَتْلَ جَدِّي.

قُلْتُ:

- حَسَنًا، مَاذَا عَنْ حَادِثَةِ الْمَطْبَخِ؟

أَدَارَتْ رَأْسَهَا تَنْظُرُ عَبْرَ النَّوَافِذِ، أَجَابَتْ:

- أَذْكُرُ مَا حَدَثَ ذَلِكَ الْيَوْمَ جَيِّدًا وَلَمْ أُفَكِّرْ لِلَحْظَةٍ أَنَّ لَهُ عِلَاقَةً بِجَدِّي، كُنْتُ نَسِيتُ بَعْضَ أَوْرَاقِ عَمَلِي، وَعُدْتُ لِلْمَنْزِلِ وَبِخِلَافِ الْعَادَةِ أَوْقَفْتُ سَيَّارَتِي عَلَى الطَّرِيقِ أَمَامَ الْمَنْزِلِ، كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ هَذَا أَسْرَعُ، بَدَلًا مِنْ فَتْحِ الْبَوَّابَةِ

وَإِغْلَاقِهَا، خَاصَّةً وَالْبَوَّابُ لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا فِي هَذَا الْوَقْتِ، وَأَسْرَعْتُ إِلَى حُجْرَتِي وَتَنَاوَلْتُ الْأَوْرَاقَ وَهَبَطْتُ مُسْرِعَةً حِينَ تَذَكَّرْتُ أَمْرًا، لَقَدْ أَخْبَرْتُ (أُمَّ عَلِيٍّ) أَنَّنِي لَنْ أَذْهَبَ لِلتَّسَوُّقِ كَعَادَتِي كُلَّ خَمِيسٍ، وَلَكِنَّنِي عَدَلْتُ عَنْ هَذَا، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أُخْبِرَهَا بِذَلِكَ كَيْ لَا تَنْتَظِرَنِي مَعَ جَدِّي عَلَى الْغَدَاءِ، دَخَلْتُ الْمَطْبَخَ لِأَجِدَ (أُمَّ عَلِيٍّ) شِبْهَ نَائِمَةٍ، جَالِسَةً إِلَى طَاوُلَةِ الْمَطْبَخِ الرُّخَامِيَّةِ، وَتَتَكِئُ بِرَأْسِهَا عَلَى كَفَّيْهَا وَتَبْدُو غَارِقَةً فِي النَّوْمِ، وَامْرَأَةً أُخْرَى تُعْطِينِي ظَهْرَهَا تَقُومُ بِعَمَلِ مَا فِي صِينِيَّةِ الطَّعَامِ عَلَى الطَّاوُلَةِ الرُّخَامِيَّةِ، طَبْعًا كَانَ كُلُّ مَا تَفَوَّهَتْ بِهِ هُوَ "مَرْحَبًا"، هُنَا لَا أَعْلَمُ مَاذَا حَدَثَ؟ يَبْدُو أَنَّنِي أَفْزَعْتُ الْمَرْأَةَ، فُوجِئْتُ بِهَا تَسْتَدِيرُ لِأَجِدَهَا فِي عُمُرِ (أُمِّ عَلِيٍّ) تَقْرِيبًا، وَتَدْفَعُنِي جَانِبًا، وَتَتَجَاوَزُنِي كَيْ تَخْرُجَ، لَمْ أَفْهَمْ مَاذَا أَصَابَهَا؟ وَمَدَدْتُ يَدِي لِأُمْسِكَ يَدَهَا لِأَسْتَوْقِفَهَا، وَإِذَا بِهَا تَسْتَدِيرُ وَبِكُلِّ قُوَّتِهَا تَدْفَعُنِي لِلْخَلْفِ، لِأَسْقُطَ وَرَأْسِي يَضْرِبُ حَافَّةَ الطَّاوُلَةِ الرُّخَامِيَّةِ، وَحَدَثَ مَا حَدَثَ بَعْدَهَا، وَحِينَ خَرَجْتُ مِنَ الْمُسْتَشْفَى، سَأَلْتُ (أُمَّ عَلِيٍّ) عَنِ الْمَرْأَةِ، فَقَالَتْ إِنَّهَا لَمْ تَظْهَرْ مُنْذُ يَوْمِ الْحَادِثَةِ، لَمْ أُهْتَمَّ بِالْأَمْرِ، لَا شَكَّ أَنَّ الْمَرْأَةَ شَعَرَتْ بِالْفَزَعِ حِينَ رَأَتْنِي أَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ وَمُصَابَةً فِي رَأْسِي، فَذَهَبَتْ إِلَى غَيْرِ رَجْعَةٍ، هَذَا كُلُّ مَا حَدَثَ يَوْمَ الْحَادِثَةِ وَمَا تَلَاهُ.

هُنَاكَ كَثِيرٌ مِنَ التَّفَاصِيلِ فِي رِوَايَتِهَا تَبْدُو نَاقِصَةً، وَبَعْضُهَا غَيْرُ مَنْطَقِيٍّ، سُلُوكُ الْمَرْأَةِ الْغَرِيبَةِ وَمُحَاوَلَتُهَا الْفِرَارَ، أَلَمْ يُثِرْ فِيهَا الشُّكُوكَ؟

سَأَلْتُهَا:

- أَلَا تَعْرِفِينَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ؟

أَشَاحَتْ بِوَجْهِهَا، أَجَابَتْنِي:

- نَعَمْ، لَا أَعْرِفُهَا، كَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَرَاهَا.

شَيْءٌ مَا فِي الْتِفَاتَتِهَا.. فِي كَلَامِهَا.. أَلْمَحَ بِأَنَّهَا لَمْ تَقُلِ الْحَقِيقَةَ، وَانْتَقَلْتُ إِلَى سُؤَالٍ آخَرَ:

- وَمَاذَا عَنِ الْكِيسِ وَمَا فِيهِ؟

عَادَتْ تَنْظُرُ إِلَيَّ.. وَبِدَهْشَةٍ.. بِتَقْطِيبَةٍ.. رَدَّتْ:

- كِيسٌ؟ أَيُّ كِيسٍ؟ عَمَّا تَتَحَدَّثُ؟

قُلْتُ وَأَنَا أَتَفَرَّسُ فِي وَجْهِهَا مَلِيًّا لَعَلِّي أَلْتَقِطُ شَيْئًا:

- الْكِيسُ الصَّغِيرُ الَّذِي كُنْتِ تُمْسِكِينَ بِهِ بِقُوَّةٍ وَأَنْتِ فَاقِدَةُ الْوَعْيِ، الْكِيسُ الَّذِي يَحْتَوِي مَادَّةً بِلَوْنِ الْكُرْكُمِ؟

الْحَيْرَةُ عَلَى وَجْهِهَا.. فِي كَلِمَاتِهَا.. أَخْبَرَتْ عَنْ صِدْقِهَا، قَالَتْ:

- كِيسٌ؟ لَا أَعْلَمُ عَنْ أَيِّ كِيسٍ تَتَحَدَّثُ؟ لَا أَذْكُرُ أَمْرَ هَذَا الْكِيسِ مُطْلَقًا.

هَلْ هِيَ مُمَثِّلَةٌ بَارِعَةٌ؟ حَيْرَتُهَا صَادِقَةٌ وَلَكِنَّ إِنْكَارَهَا أَمْرَ الْكِيسِ تَمَامًا، بَثَّ شَيْئًا مِنَ الشَّكِّ فِي دَاخِلِي، وَانْتَقَلْتُ إِلَى السُّؤَالِ الثَّانِي، سَأَلْتُ:

- كَيْفَ سَاءَتْ عِلَاقَتُكِ بِجَدِّكَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا؟

نَهَضَتْ عَلَى قَدَمَيْهَا وَهِيَ تُشِيحُ بِوَجْهِهَا وَتَقُولُ:

- لَا أَرْغَبُ فِي إِجَابَةِ سُؤَالِكَ هَذَا.

وَالْتَفَتَتْ إِلَيَّ وَهِيَ تُكْمِلُ:

- أَعْذِرْنِي، أَشْعُرُ بِالتَّعَبِ الْآنَ، وَسَأَضْطَرُّ إِلَى إِنْهَاءِ لِقَائِنَا هَذَا.

هَذَانِ السُّؤَالَانِ كَانَا بَدَايَةً فَقَطْ، وَفِي جُعْبَتِي الْكَثِيرُ مِنَ الْأَسْئِلَةِ، لَكِنَّنِي نَهَضْتُ مِنْ عَلَى الْأَرِيكَةِ، وَأَنَا أَقُولُ:

- لَا بَأْسَ، أَغْفِرِي لِي إِزْعَاجَكِ، وَلَكِنْ لِي طَلَبٌ أَخِيرٌ، أَرْجُو أَنْ تُوَافِقِي عَلَيْهِ.

اسْتَفْسَرَتْ مَلَامِحُهَا عَنْ طَلَبِي بَدَلًا مِنْ لِسَانِهَا، فَقُلْتُ:

- هَلْ يُمْكِنُنِي الْحَدِيثُ إِلَى (أُمِّ عَلِيٍّ)؟

أَشَارَتْ بِيَدِهَا وَهِيَ تَقُولُ:

- سَتَجِدُهَا فِي الْمَطْبَخِ، مِنْ هَذَا الْبَابِ ثُمَّ إِلَى يَسَارِكَ.

* * *

10- فِي ضِيَافَةِ (أُمِّ عَلِيٍّ)

كَانَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) شَخْصًا بَسِيطًا لِلْغَايَةِ، رَحَّبَتْ بِي وَقَدَّمَتْ لِي مَقْعَدًا وَأَصَرَّتْ عَلَى تَقْدِيمِ فِنْجَانِ قَهْوَةٍ آخَرَ رَغْمَ عُزُوفِي عَنْ ذَلِكَ، وَجَلَسْنَا إِلَى الْمَائِدَةِ الرُّخَامِيَّةِ، لَا شَكَّ أَنَّهَا الْمَائِدَةُ الَّتِي وَقَعَتْ عِنْدَهَا الْحَادِثَةُ، فَلَا يُوجَدُ سِوَاهَا، وَرَفٌّ رُخَامِيٌّ يَمْتَدُّ عَلَى جَوَانِبِ الْجُدْرَانِ الْأَرْبَعَةِ، وَيَحْمِلُ أَدَوَاتِ الْمَطْبَخِ مِنْ أَطْبَاقٍ وَمَوَاقِدَ الطَّهْيِ وَأَحْوَاضِ الْمَاءِ، وَتَحْتَهُ رُفُوفٌ أُخْرَى مِنْ نَفْسِهِ تَحْمِلُ الْمَزِيدَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى خَزَانَاتٍ خَشَبِيَّةٍ مُعَلَّقَةٍ عَلَى الْجُدْرَانِ، كَانَ مَطْبَخًا تَقْلِيدِيًّا عَلَى النَّمَطِ الْقَدِيمِ، وَالْمَائِدَةُ الرُّخَامِيَّةُ كَانَتْ مُحَاوَلَةً فَاشِلَةً لِإِدْخَالِ الْحَدَاثَةِ عَلَيْهِ.

أَمْسَكْتُ بِفِنْجَانِ الْقَهْوَةِ مُجَامَلَةً وَرَاغِبًا عَنْهُ، وَاسْتَهْلَلْتُ حَدِيثِي بِالسُّؤَالِ عَنِ الْمَرْأَةِ الْغَامِضَةِ، فَأَجَابَتْ:

- لَا أَعْرِفُهَا، كُنْتُ أَقُومُ بِعَمَلٍ لَا أَذْكُرُهُ، سَامَحَنِي اللهُ، كُنْتُ زَرَعْتُ بَعْضَ الْبَقْدُونِسِ هُنَاكَ، وَذَهَبْتُ أَحْضِرُ شَيْئًا مِنْهُ حِينَ وَجَدْتُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْمِسْكِينَةَ وَاقِفَةً عَلَى الْبَابِ الْخَلْفِيِّ تَنْظُرُ عَبْرَهُ إِلَى الْمَنْزِلِ، سَأَلْتُهَا مَاذَا تُرِيدُ، فَطَلَبَتْ شُرْبَةَ مَاءٍ، دَعَوْتُهَا إِلَى الدَّاخِلِ وَقَدَّمْتُ لَهَا الْمَاءَ وَرَدَّتِ الطَّعَامَ، كَانَ مَجِيئُهَا رَحْمَةً مِنَ اللهِ بِي.

سَأَلْتُهَا وَأَنَا آخُذُ رَشْفَةً عَلَى مَضَضٍ:

- بَابٌ خَلْفِيٌّ، هَلْ هُنَاكَ بَابٌ آخَرُ لِلْمَنْزِلِ؟

وَضَعَتْ أَمَامِي طَبَقًا مِنَ التَّمْرِ وَآخَرَ بِهِ قِطَعٌ صَغِيرَةٌ مِنَ الشُّكُولَاتَةِ، أَجَابَتْنِي:

- نَعَمْ، هُنَاكَ بَابٌ حَدِيدِيٌّ صَغِيرٌ فِي الْخَلْفِ، لَا نَسْتَخْدِمُهُ إِلَّا نَادِرًا، وَهُوَ مُغْلَقٌ دَائِمًا.

لَمْ يَغِبْ عَنِّي سِلْسِلَةُ مَفَاتِيحَ مُعَلَّقَةٌ عَلَى الْجِدَارِ إِلَى يَسَارِي، لَا شَكَّ أَنَّ مِفْتَاحَ الْبَابِ الَّذِي تَتَحَدَّثُ عَنْهُ ضِمْنَهَا.

وَضَعْتُ فِنْجَانَ الْقَهْوَةِ، سَأَلْتُهَا:

- كُنْتِ تَقُولِينَ أَنَّ مَجِيءَ تِلْكَ الْمَرْأَةِ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ، كَيْفَ؟

سَكَبَتْ بَعْضَ الْمَاءِ الْبَارِدِ مِنْ إِبْرِيقٍ مِنَ الْخَزَفِ فِي كَأْسٍ زُجَاجِيٍّ، وَهِيَ تُجِيبُنِي:

- مُنْذُ مَجِيئِهَا كَانَتْ تَنْتَابُنِي مَوْجَاتُ إِغْمَاءٍ، فَكَانَتْ تَأْخُذُنِي لِأَسْتَرِيحَ عَلَى مَقْعَدٍ فِي الْمَطْبَخِ.

انْتَابَنِي شَكٌّ حَوْلَ هَذِهِ النُّقْطَةِ، فَأَلْقَيْتُ بِسُؤَالٍ آخَرَ:

- فِي أَيِّ وَقْتٍ كَانَتْ تَنْتَابُكِ هَذِهِ الْإِغْمَاءَةُ؟

وَضَعَتْ طَبَقًا مِنَ الْمَعْجَنَاتِ أَمَامِي، هَذِهِ الْمَرْأَةُ تَحْسِبُنِي خَرُوفَ الْعِيدِ، وَيَجِبُ أَنْ أَخْرُجَ مِنْ عِنْدِهَا سَمِينًا أَسْتَحِقُّ الذَّبْحَ، دَارَتْ هَذِهِ الْخَاطِرَةُ فِي ذِهْنِي وَأَنَا أَسْمَعُهَا تُجِيبُنِي:

- وَأَنَا أُعِدُّ إِفْطَارَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، فَأُفِيقُ لِأَجِدَهَا - جَزَاهَا اللهُ كُلَّ خَيْرٍ - قَدْ أَكْمَلَتْ إِعْدَادَ الْإِفْطَارِ، فَأَحْمِلُهُ لِلسَّيِّدِ (شَاكِرَ).

سَأَلْتُ:

- هَلْ تَطْهُو الطَّعَامَ؟

كَانَ جَوَابُهَا نَفْيًا وَإِنْكَارًا.. كَأَنَّهَا لَا تَقْبَلُ مُجَرَّدَ تَخَيُّلِ الْأَمْرِ:

- لَا، لَا، لَا، لَا أَحَدَ يَطْهُو طَعَامَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) وَيُحْضِرُهُ سِوَايَ، فَأَنَا أَعْلَمُ مَا يُنَاسِبُهُ، لَا يَعْدُو مَا كَانَتْ تَقُومُ بِهِ عَنْ وَضْعِ الْأَطْبَاقِ الْجَاهِزَةِ فِي الصِّينِيَّةِ الْكَبِيرَةِ، وَضْعُ فِنْجَانِ الْقَهْوَةِ مَعَ الْإِبْرِيقِ فِي صِينِيَّةٍ صَغِيرَةٍ، أَشْيَاءٌ كَهَذِهِ.

قُلْتُ:

- هَلْ لَا زِلْتِ تُعَانِينَ مِنَ الْإِغْمَاءِ؟

رَفَعَتْ يَدَيْهَا كَأَنَّهَا تَدْعُو، أَجَابَتْ:

- الْحَمْدُ لِلَّهِ، بَعْدَ يَوْمِ الْحَادِثَةِ الْمَشْئُومَةِ لَمْ تَأْتِنِي مُطْلَقًا.

هَذِهِ الْمَرْأَةُ لَيْسَتْ بَسِيطَةً، بَلْ سَاذَجَةً، حَتَّى أَنَّ السَّذَاجَةَ لَتَفْتَخِرُ بِهَا، وَتَتَّخِذُهَا رَمْزًا لَهَا، تَجَاوَزْتُ هَذِهِ الْأَفْكَارَ، وَمِنْ جُعْبَةِ السُّؤَالَاتِ الَّتِي لَا تَزَالُ تَحْوِي الْكَثِيرَ، أَخْرَجْتُ وَاحِدًا وَرَمَيْتُهَا بِهِ:

- وَالْمَرْأَةُ، هَلْ تَعْلَمِينَ اسْمَهَا وَعُنْوَانَهَا؟ هَلْ لَا تَزَالُ تَأْتِي إِلَيْكِ؟

أَلْقَتْ بِنَفْسِهَا عَلَى الْمَقْعَدِ الْآخَرِ إِلَى يَمِينِي، وَأَنْبَأَتْ كَفَّاهَا عَنْ جَهْلِهَا، وَنَطَقَ لِسَانُهَا:

- لَا أَعْلَمُ عَنْهَا إِلَّا الْقَلِيلَ، أُنَادِيهَا بِـ (أُمِّ جَمِيلٍ)، وَتَأْتِي إِلَى هَذَا الْحَيِّ تَبْحَثُ عَنْ عَمَلٍ، لِأَنَّ هَذَا الْحَيَّ أَكْثَرُ سُكَّانِهِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ لَا أَعْلَمُ شَيْئًا.

صَمْتَهَا دَفَعَنِي لِتَكْرَارِ السُّؤَالِ الثَّانِي:

- هَلْ لَا تَزَالُ تَأْتِي إِلَيْكِ؟

يَبْدُو أَنَّهَا تَذَكَّرَتْ شَيْئًا مَا، نَهَضَتْ وَهِيَ تُجِيبُنِي:

- لَا، مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمْ أَرَهَا مُطْلَقًا، قَلْبِي مَشْغُولٌ عَلَى هَذِهِ الْمَسْكِينَةِ، لَعَلَّهَا وَجَدَتْ لِنَفْسِهَا عَمَلًا فِي أَحَدِ الْمَنَازِلِ.

يَبْدُو أَنَّهَا تَذَكَّرَتْ نَوْعًا مِنَ الْحَلْوَى قَدْ نَسِيَتْهُ، لَقَدْ حَمَلَتْ طَبَقًا مِنْ تِلْكَ الْمُخَصَّصَةِ لِلْحَلْوَى وَأَخَذَتْ تَمْلَأُهُ مِنْ عُلْبَةٍ أَخْرَجَتْهَا مِنْ إِحْدَى الْخَزَانَاتِ، وَعَادَتْ تَضَعُ الطَّبَقَ أَمَامِي، وَهِيَ تَقُولُ:

- لَاحَظْتُ عُزُوفَكَ عَنِ الْقَهْوَةِ، هَذِهِ حَلْوَى يَحْضُرُهَا السَّيِّدُ (شَاكِرُ) مَعَهُ مِنَ الْخَارِجِ، وَتَجْعَلُ مَذَاقَ الْقَهْوَةِ رَائِعًا.

تَنَاوَلْتُ قِطْعَةً وَتَذَوَّقْتُهَا، كَانَتْ صَادِقَةً، وَلَكِنَّهَا حَلْوَى مَأْلُوفَةٌ لِي، لَقَدْ أَثَارَتْ يَوْمًا أَزْمَةً كَبِيرَةً بَيْنَ (سَعِيدٍ) وَالسَّاعِي وَمُدِيرِ الْمَشْرُوبَاتِ فِي الْفُنْدُقِ، (سَعِيدٌ) يُصِرُّ عَلَى تَقْدِيمِهَا لَهُ مَعَ قَهْوَتِهِ، وَالسَّاعِي لَا شَأْنَ لَهُ، وَمُدِيرُ الْمَشْرُوبَاتِ يَقُولُ أَنَّ هَذِهِ خَارِجَ قَائِمَةِ الْأَشْيَاءِ الْمُخَصَّصَةِ لِلْمُوَظَّفِينَ وَالْعَامِلِينَ، طَبْعًا انْتَهَى الْأَمْرُ بِتَقْدِيمِ عُلْبَةٍ مِنْ هَذِهِ الْحَلْوَى لِـ (سَعِيدٍ)، بِشَرْطِ أَنْ يَنْسَى أَمْرَهَا تَمَامًا، كَمَا أَخْبَرْتُكَ سَابِقًا، (سَعِيدٌ) سَيَظْهَرُ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ أَوْ بِأُخْرَى.

حَقًّا أَصْبَحَ مَذَاقُ الْقَهْوَةِ رَائِعًا، حَتَّى أَنَّنِي تَنَاوَلْتُ الْفِنْجَانَ حَتَّى الرَّشْفَةِ الْأَخِيرَةِ.

لَمْ يَعُدْ لَدَيَّ سِوَى بُضْعَةِ أَسْئِلَةٍ عَنْ (حَسْنَاءَ) وَعَلَاقَاتِهَا، وَطَبِيعَةِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جَدِّهَا، وَمِنْ نَافِلَةِ الْقَوْلِ أَنَّ (أُمَّ عَلِيٍّ) لَمْ تَضِفْ جَدِيدًا، لَقَدْ أَعَادَتْ عَلَيَّ مَا سَمِعْتُهُ، وَطَبْعًا زَادَتْ عَلَيْهِ مَوْضُوعَ الْحَسَدِ وَالْعَيْنِ الَّتِي لَا تُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، كُنْتُ قَدْ نَهَضْتُ وَأَنَا أَشْكُرُ (أُمَّ عَلِيٍّ) عَلَى حُسْنِ ضِيَافَتِهَا، لِتَدْخُلَ (حَسْنَاءُ) الْمَطْبَخَ، أَلْقَتْ نَظْرَةً سَرِيعَةً عَلَيْنَا وَعَلَى الْمَائِدَةِ وَمَا عَلَيْهَا، قَبْلَ أَنْ تَقُولَ:

- سَيِّدُ (طَارِقُ)، إِذَا تَمَلَّك ًبَعْضَ الْوَقْتِ، فَأَرْجُو مِنْكَ مُوَافَاتِي فِي بَهْوِ الضِّيُوفِ.

كَانَ طَلَبُهَا أَمْرًا تَمَّ تَغْلِيفُهُ فِي صُورَةِ طَلَبٍ مُهَذَّبٍ، قُلْتُ:

- لَقَدْ أَتَممْتُ مَهَمَّتِي هُنَا.

وَالْتَفَتُّ إِلَى (أُمِّ عَلِيٍّ) أُكَرِّرُ شُكْرِي لَهَا، وَسَطَ دَعَوَاتِهَا لِي بِالتَّوْفِيقِ، وَعُدْتُ إِلَى مَجْلِسِي السَّابِقِ مَعَ (حَسْنَاءَ) فِي بَهْوِ الضِّيُوفِ، وَبَدَأَتْ هِيَ بِسُؤَالِي:

- هَلْ تَعْلَمُ أَيْنَ يُقِيمُ جَدِّي حَالِيًّا؟

صَدَدْتُ السُّؤَالَ بِمِثْلِهِ:

- وَلِمَ لَا تُهَاتِفِينَهِ، وَتَعْلَمِي مِنْهُ مَكَانَهُ؟

ضِيقٌ.. انْزِعَاجٌ.. وَأَدَارَتْ رَأْسَهَا بَعِيدًا عَنِّي، قَالَتْ:

- لَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ.

وَعَادَتْ تَنْظُرُ إِلَيَّ، سَأَلَتْ:

- هَلْ يُقِيمُ فِي فُنْدُقِكُمْ؟

أَجَبْتُهَا وَأَنَا أَنْظُرُ عَبْرَ النَّوَافِذِ الْفَرَنْسِيَّةِ إِلَى الْحَدِيقَةِ الَّتِي بَدَأَتْ تَغْرَقُ فِي الظَّلَامِ:

- آنِسَةُ (حَسْنَاءَ)، لَنْ أُجِيبَ هَذَا السُّؤَالَ، سَوَاءٌ كَانَ فِي الْفُنْدُقِ أَمْ لَا، كَوْنُهُ لَا يَسْمَحُ لِأَحَدٍ بِالْوُصُولِ إِلَيْهِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يُعْرَفَ مَكَانُهُ.

بِطَرَفِ عَيْنِي رَأَيْتُهَا تَنْهَضُ وَتَسِيرُ لِتَدْخُلَ بُؤْرَةَ تَرْكِيزِ نَظَرِي، وَتَقِفُ تَنْظُرُ إِلَى الْحَدِيقَةِ، صَامِتَةً لَا تَتَكَلَّمُ، لَا أَدْرِي لِمَاذَا جَاءَنِي شُعُورٌ بِأَنَّهَا سَتَجْذِبُ الطَّرَفَيْنِ الْمُنْسَدِلَيْنِ مِنْ ثَوْبِهَا عَلَى الْجَانِبَيْنِ لِتَضَعَهُمَا مَعَ يَدَيْهَا وَرَاءَ

ظَهْرِهَا، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ، أُضِيئَتِ الْأَنْوَارُ فَجْأَةً، كَأَنَّهَا إِشَارَةٌ لَهَا بِأَنْ تَتَكَلَّمَ، وَبَدَأَتْ بِسُؤَالٍ:

- سَيِّدُ (طَارِقُ)، هَلْ تَعْلَمُ كَيفَ نَشَأْتُ؟

كَانَ سُؤَالًا اسْتِفْتَاحِيًّا، فَلَمْ أُكَلِّفْ نَفْسِي بِالْجَوَابِ، وَتَابَعَتْ هِيَ وَمَسْجِدٌ قَرِيبٌ يُعْلو بِأَذَانِ الْمَغْرِبِ:

- لَقَدْ نَشَأْتُ فِي كَنَفِ أُمِّي، نَعَمْ كَانَ وَالِدِي حَاضِرًا، بِعَطْفِهِ وَحَنَانِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَلَكِنْ أَشْعُرُ أَنَّ حَيَاتِي كَانَتْ مَعَ أُمِّي، مَعَهَا جَلَسْتُ عَلَى السَّجَّادَةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ لِتُعَلِّمَنِي الصَّلَاةَ، وَأَنَا لَمْ أَدْخُلِ الْمَدْرَسَةَ بَعْدُ، وَيَدُهَا بِيَدِي وَهِيَ تَأْخُذُنِي لِلْمَدْرَسَةِ وَتُعِيدُنِي مِنْهَا، وَالْفِرَاشُ حَيْثُ كُنَّا نَرْتَمِي لِتُشَرِّحَ لِي دُرُوسِي، تَكْشِيرَتُهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ وَهِيَ تُعْطِينِي مَوْعِظَةً عَنِ الْحَيَاةِ، لَقَدْ نَشَأْتُ عَزِيزَةً كَرِيمَةً، وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ حُرَّةً مُسْتَقِلَّةً فِي حَيَاتِي وَقَرَارَاتِي، حُرِّيَّةً وَاسْتِقْلَالِيَّةً زَرَعَهَا وَالِدَايَ، وَحَرَصَا عَلَى أَنْ تَكُونَ فِي نِطَاقِ الدِّينِ وَالْأَخْلَاقِ...

قَطَعَتْ حَدِيثَهَا لِتَلْتَفِتَ إِلَيَّ وَهِيَ تَقُولُ:

- هَلْ تَعْلَمُ مَنْ زَوَّجَ أُمِّي؟

طَفَا السُّؤَالُ عَلَى وَجْهِي، مُمَّا أَرَاحَ لِسَانِي مِنْ عَنَاءِ النُّطْقِ بِهِ، فِي حِينِ أَجَابَتْ هِيَ سُؤَالَهَا وَوَجْهُهَا ابْتِسَامَةٌ كَبِيرَةٌ:

- أَنَا، أَنَا مَنْ قُمْتُ بِذَلِكَ.

بِالتَّأْكِيدِ هِيَ.. هِيَ فَعَلَتْهَا لِتُخْرِجَ دَافِعًا آخَرَ مِنَ الدَّوَافِعِ الَّتِي أَمْلِكُهَا..

وَعَادَتْ تَسْتَدِيرُ لِتَنْظُرَ إِلَى الْحَدِيقَةِ، وَهَذِهِ الْمَرَّةَ فَعَلَتْ مَا تَوَقَّعْتُهُ مِنْهَا مِنْ قَبْلُ، جَذَبَتْ يَدَاهَا الْجُزْءَيْنِ الْمُنْسَدِلَيْنِ مِنْ ثَوْبِهَا عَلَى الْجَانِبَيْنِ إِلَى مَا وَرَاءَ

ظَهْرِهَا، وَأَبْقَتْ يَدَيْهَا عِنْدَ أَسْفَلِ خَاصِرَتِهَا مِنَ الْخَلْفِ، مِمَّا مَنَحَ ثَوْبَهَا شَكْلًا جَدِيدًا وَصَارَتْ وِقْفَتُهَا تَشِعُّ هَيْبَةً وَشُمُوخًا، حَتَّى أَنَّنِي وَجَدْتُ مَسْأَلَةَ فَقْدَانِهَا الْوَعْيَ أَمْرًا غَرِيبًا..

رُبَّمَا يَبْدُو مِنْ وِقْفَتِهَا وَحَدِيثِهَا أَنَّهَا مُتَأَثِّرَةٌ بِأَبْطَالِ الْقَصَصِ وَالرِّوَايَاتِ وَالْأَفْلَامِ، طَرَدْتُ هَذِهِ الْخَاطِرَةَ مِنْ ذِهْنِي وَعُدْتُ أُصْغِي إِلَيْهَا وَهِيَ تُكْمِلُ:

- كَانَتْ مَعْرِفَتُهَا بِالرَّجُلِ قَدِيمَةً، مُنْذُ أَنْ كَانَا جَارَيْنِ، وَهُوَ رَاغِبٌ فِيهَا، أَحْسِبُ مَا فَعَلْتُهُ أَنَّهُ مُجَامَلَةٌ لِأُمِّي، لَمْ أُحِبَّ أَنْ تَبْقَى لِرِعَايَتِي، وَتَحْرِمَ نَفْسَهَا مِنَ الْحَيَاةِ بَعْدَ وَفَاةِ أَبِي.. لَنْ أُنْكِرَ دَوْرَ أَبِي فِي ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ ظَاهِرًا وَلَكِنَّهُ مَحْسُوسٌ، فَهُوَ مَشْغُولٌ دَائِمًا، وَفِي لَحَظَاتِ حُضُورِهِ الْقَلِيلَةِ يُحَاوِلُ تَعْوِيضَ فَتَرَاتِ غِيَابِهِ الطَّوِيلَةِ، وَكَمَا تَعْلَمُ هَذَا صَعْبٌ تَحْقِيقُهُ، الْمَهْمُ.. فِي الْجَامِعَةِ تَقَدَّمَ إِلَى خِطْبَتِي أَحَدُ زُمَلَائِي، وَهُنَا حَدَثَ مَا غَيَّرَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي ذَاتِي، كَمَا قُلْتُ نَشَأْتُ حُرَّةً وَمُسْتَقِلَّةً فِي حَيَاتِي، هُنَا فُوجِئْتُ بِأَنَّ الْجَمِيعَ يَتَدَخَّلُ فِي أَمْرِ زَوَاجِي وَيَتَّخِذُ الْقَرَارَاتِ نِيَابَةً عَنِّي وَدُونَ مُشَاوَرَتِي أَوِ الرُّجُوعِ إِلَيَّ، أَبِي.. أُمِّي.. جَدِّي.. بَلْ حَتَّى الْأَصْدِقَاءُ وَالْجِيرَانُ، هُمْ قَرَّرُوا أَنَّ ذَلِكَ الشَّابَّ...

هُنَا قَاطَعْتُهَا بِقَوْلِي:

- عَادِلُ!

* * *

11- عَادِلُ

اِسْتَدَارَتْ عَلَى إِثْرِ كَلِمَتِي تَنْظُرُ إِلَيَّ، وَقَدْ غَابَتِ الْانْفِعَالَاتُ عَنْ وَجْهِهَا، وَأَعْطَى لِسَانُهَا لِلسُّكُوتِ هُنَيَّةً، قَبْلَ أَنْ يَقُولَ:

- نَعَمْ، (عَادِلُ)..

وَسَارَتْ بِتُؤَدَةٍ إِلَى مَجْلِسِهَا عَلَى الْأَرِيكَةِ، كَأَنَّهَا تَقِيسُ الْمَسَافَةَ بَيْنَ النَّوَافِذِ وَالْأَرِيكَةِ، وَاتَّخَذَتْ مَجْلِسَهَا قَبْلَ أَنْ تُكْمِلَ:

- قَرَّرُوا أَنَّ (عَادِلَ) لَا يَصْلُحُ زَوْجًا لِي، وَأَنَا قَرَّرْتُ.. مَا دَامَ الزَّوَاجُ أَمْرًا لَا أَمْلِكُ فِيهِ حُرِّيَّتِي وَقَرَارِي، فَهُوَ أَمْرٌ لَا حَاجَةَ لِي بِهِ فِي حَيَاتِي.

جَاءَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) تَحْمِلُ فِي يَدِهَا صِينِيَّةً عَلَيْهَا إِبْرِيقٌ وَكُؤُوسٌ وَعَلَى ذِرَاعِهَا سَجَّادَةٌ صَغِيرَةٌ لِلصَّلَاةِ، وَضَعَتِ الصِّينِيَّةَ عَلَى الطَّاوُلَةِ، وَوَضَعَتِ السَّجَّادَةَ عَلَى ذِرَاعِ الْأَرِيكَةِ الَّتِي أَجْلِسُ عَلَيْهَا، وَقَالَتْ لَهَا (حَسْنَاءُ) بِأَنَّهَا سَتَسْكُبُ الْمَشْرُوبَ بِنَفْسِهَا، وَانْصَرَفَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) وَقَبْلَ أَنْ تَصِلَ يَدُ (حَسْنَاءُ) إِلَى الْإِبْرِيقِ، أَعْرَبْتُ عَنْ عَدَمِ مَقْدِرَتِي لِتَنَاوُلِ أَيِّ شَيْءٍ، يَبْدُو أَنَّ مَهَمَّةَ (أُمِّ عَلِيٍّ) فِي هَذَا الْبَيْتِ هِيَ الْحِرْصُ عَلَى امْتِلَاءِ الْمَعِدَةِ طَوَالَ الْوَقْتِ، وَعَدَمُ تَرْكِ الْمَجَالِ لِشَيْءٍ مِنَ الْهَوَاءِ بِالدُّخُولِ إِلَيْهَا، كَأَنَّ (حَسْنَاءُ) أَدْرَكَتْ بِمَا أَفْكَرُ فِيهِ، فَظَهَرَتْ عَلَى ثَغْرِهَا ابْتِسَامَةٌ وَأَدَّتْهَا بِسُرْعَةٍ، وَاعْتَدَلَتْ فِي مَجْلِسِهَا وَهِيَ تُصْلِحُ غِطَاءَ رَأْسِهَا، ثُمَّ اسْتَدَارَتْ إِلَيَّ تُكْمِلُ كَأَنْ لَمْ يُقَاطِعْنَا أَحَدٌ:

- إِذًا يَا سَيِّدُ (طَارِقُ)، هَلْ تَرَى هَذَا سَبَبًا كَافِيًا كَيْ أُفَكِّرَ فِي قَتْلِ جَدِّي؟

أَجَبْتُهَا بِهُدُوءٍ:

- هَذَا يَعْتَمِدُ عَلَى أَثَرِ الْقَرَارِ الَّذِي اتَّخَذْتِهِ عَلَى نَفْسِكِ، وَالْمَشَاعِرِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي نَشَأَتْ نَحْوَ جَدِّكِ.

صَارَ وَجْهُهَا عَيْنَيْنِ تَنْظُرَانِ إِلَيَّ، وَبِصَوْتٍ بَارِدٍ تَكَلَّمَتْ:

- أَنْتَ تُصِرُّ عَلَى اِتِّهَامِي بِمُحَاوَلَةِ قَتْلِ جَدِّي!

تَفَادَيْتُ هَذِهِ النُّقْطَةَ بِقَوْلِي:

- مَا أُحَاوِلُ فِعْلَهُ الْآنَ هُوَ رَسْمُ صُورَةٍ وَاضِحَةٍ، وَمَعْرِفَةُ مَوْضِعِ وَحَقِيقَةِ كُلِّ شَيْءٍ فِيهَا، وَمَا أَخْبَرْتِنِي بِهِ لَا يُفَسِّرُ طَبِيعَةَ الْعَلَاقَةِ بَيْنَكِ وَبَيْنَ (عَادِلٍ)، وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي كَانَتْ تَدُورُ بَيْنَكُمَا.

مَرَّتْ لَحْظَةُ صَمْتٍ قَصِيرَةٍ، قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ شَبَحُ ابْتِسَامَةٍ عَلَى وَجْهِهَا، وَهِيَ تَقُولُ:

- لَقَدْ أَخْبَرَكَ جَدِّي بِكُلِّ شَيْءٍ.. عُمُومًا كَلَامُكَ هَذَا طَمْأَنَنِي عَلَيْهِ، الْأَحَادِيثُ شَخْصِيَّةٌ وَلَا تَهُمُّ سِوَايَ، وَإِذَا أَحْبَبْتَ أَنْ تَعْرِفَهَا فَهِيَ تَدُورُ حَوْلَ أَمْرٍ وَاحِدٍ..

اِرْتَفَعَ صَوْتُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْقَرِيبِ، لِيَحُثَّنِي عَلَى الْإِسْرَاعِ لِلْحَاقِ بِالصَّلَاةِ، فِي حِينِ تَابَعَتْ هِيَ:

- كُنْتُ أَلُومُهُ دَائِمًا عَلَى تَرَاجُعِهِ وَانْسِحَابِهِ السَّرِيعِ مِنَ الْمُوَاجَهَةِ مَعَ عَائِلَتِي، أَخَذَ الرَّفْضَ وَرَحَلَ بِهِ، لَمْ يُحَاوِلْ أَنْ يُغَيِّرَ رَأْيَهُمْ وَقَرَارَهُمْ، لَمْ يُحَاوِلِ الْوُقُوفَ مَعِي، حِينَئِذٍ كُنْتُ سَأَقِفُ إِلَى جِوَارِهِ حَتْمًا، وَلَكِنَّنِي شَعَرْتُ أَنَّهُ خَذَلَنِي، سَاعَدَهُمْ فِي وَأْدِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِسُرْعَةٍ.

سَأَلْتُهَا وَأَنَا أَتَأَهَّبُ لِلنُّهُوضِ:

- وَهَلْ أَعْطَاكَ تَفْسِيرًا لِعَدَمِ إِصْرَارِهِ عَلَى الْمُضِي فِي أَمْرِ الزَّوَاجِ؟

نَبْرَةُ صَوْتِهَا دَفَعَتْنِي لِلنَّظَرِ إِلَيْهَا، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ رَأَيْتُ نِيرَانَ الْغَضَبِ فِي عَيْنَيْهَا وَوَهْجَهَا عَلَى وَجْنَتَيْهَا، وَهِيَ تَقُولُ:

- يَقُولُ إِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى حَقٍّ، هُوَ شَابٌّ فِي السَّنَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْجَامِعَةِ، لَا يَمْلِكُ شَيْئًا، وَيَنْتَظِرُهُ بَعْدَهَا رِحْلَةٌ شَاقَّةٌ لِلْبَحْثِ عَنْ عَمَلٍ، وَعَائِلَةٌ بَسِيطَةُ الْحَالِ تَتَكَوَّنُ مِنْ أُمِّهِ وَأُخْتِهِ، يَنْتَظِرُونَ مِنْهُ أَنْ يَرْفَعَ الْعِبْءَ عَنْ كَاهِلِ أُمِّهِ وَيَعِيلَهُمْ.

كَانَ مَنْطِقُ الشَّابِّ عَقْلَانِيًّا وَصَحِيحًا، وَيُظْهِرُ رَجَاحَةَ عَقْلِهِ، وَحُسْنَ تَرْتِيبِ الْأَوْلَوِيَّاتِ، وَقَفْتُ عَلَى قَدَمَيَّ وَأَنَا أَشْكُرُهَا عَلَى ضِيَافَتِهَا وَأَعْتَذِرُ عَنْ إِزْعَاجٍ مَا قَدْ أَكُونُ فَعَلْتُهُ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، وَتَمَنَّيْتُ أَنْ يَبْقَى الْبَابُ مَفْتُوحًا إِذَا دَعَتِ الْحَاجَةُ لِزِيَارَةٍ أُخْرَى، كَانَ رَدُّهَا مُهَذَّبًا وَمُرَحِّبًا وَهِيَ تَقُودُنِي إِلَى بَابِ الْمَنْزِلِ، حِينَ جَاءَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) تَسْأَلُ عَنْ بَقَائِي إِلَى حِينِ تَقْدِيمِ وَجْبَةِ الْعَشَاءِ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ تَرَى النَّاسَ بُطُونًا فَقَطْ، بَسَاطَتُهَا وَسَذَاجَتُهَا تَمْتَزِجَانِ مَعًا لِتَصْنَعَ مِنْهَا بَرَاءَةً نَدُرَ وُجُودُهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ، اعْتَذَرْتُ لَهُمَا، وَكُنْتُ أَقْتَرِبُ مِنَ الْبَوَّابَةِ الْحَدِيدِيَّةِ لِأُغَادِرَ الْمَنْزِلَ، حِينَ جَاءَنِي صَوْتُ (حَسْنَاءَ) تُنَادِينِي.. تَوَقَّفْتُ.. الْتَفَتُّ.. انْتَظَرْتُهَا وَهِيَ تَقْتَرِبُ مِنِّي، كَانَ مِصْبَاحُ الْحَدِيقَةِ خَلْفَهَا، فَلَمْ أَتَبَيَّنْ مَلَامِحَهَا جَيِّدًا، وَجَاءَنِي صَوْتُهَا مُتَهَدِّجًا كَأَنَّهَا عَلَى وَشْكِ الْبُكَاءِ:

- سَيِّدُ (طَارِقُ).. حِينَ تَرَى جَدِّي.. أَخْبِرْهُ.. أَنَّنِي غَاضِبَةٌ مِنْهُ.. غَاضِبَةٌ جِدًّا..

وَأَصْبَحَتْ نَبْرَةُ الْبُكَاءِ وَاضِحَةً وَهِيَ تُكْمِلُ:

- وَلَكِنَّنِي أُحِبُّهُ وَلَمْ وَلَنْ أُفَكِّرَ فِي إِيذَائِهِ.
وَجَدَ التَّعَاطُفُ وَجْهِي أَرْضًا صَلْدَةً، فَلَمْ يَتْرُكْ فِيهِ أَثَرًا، وَاكْتَفَى بِالْمُرُورِ بِأَعْمَاقِي كَهَبَّةِ نَسِيمٍ عَابِرَةٍ، قُمْتُ بِهَزِّ رَأْسِي وَأَنَا أَقُولُ:
- سَأَفْعَلُ.. حِينَ أَرَاهُ..
أَدْرَكْتُ الرَّكْعَةَ الْأَخِيرَةَ مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ فِي الْمَسْجِدِ، فَرَغْتُ مِنَ الصَّلَاةِ وَأَخَذْتُ أَتَأَمَّلُ مَحْتُوَيَاتِ الْمَسْجِدِ الْبَسِيطَةَ، كُنْتُ أَرْغَبُ فِي لِقَاءِ (عَادِلٍ)، وَلَكِنَّ صِفَتِي غَيْرَ الرَّسْمِيَّةِ، جَعَلَتْ هَذَا أَمْرًا عَسِيرًا، الْعَمَلُ بِلاَ صِفَةٍ رَسْمِيَّةٍ، يَجْعَلُ عَمَلَنَا شَاقًّا، لِهَذَا نَعْتَمِدُ عَلَى اللُّطَفِ وَالْكِيَاسَةِ وَالْحِيلَةِ، وَزِيَارَةُ (عَادِلٍ) تَحْتَاجُ اخْتِيَارَ وَقْتٍ مُنَاسِبٍ، حَسَمْتُ أَمْرِي بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْفُنْدُقِ حَيْثُ أُقِيمُ مُؤَقَّتًا..

* * *

- عَلَاقَتِي بِالسَّيِّدِ (شَاكِرَ) عَلَاقَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَائِعَةٌ، بَلْ يُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّ لَهُ فَضْلًا كَبِيرًا فِي افْتِتَاحِ مَكْتَبِي هَذَا.
بِهَذَا أَجَابَ (عَادِلُ) سُؤَالِي، وَهُوَ يَجْلِسُ قِبَالَتِي أَمَامَ مَكْتَبِهِ، بَعْدَ أَنْ قُمْنَا بِتَحْدِيدِ مَوْعِدٍ مُنَاسِبٍ لِلِقَائِنَا، يَكُونُ فِيهِ مُتَفَرِّغًا لِلْحَدِيثِ إِلَيَّ، لِذَلِكَ وَجَدْتُ نَفْسِي بَعْدَ الْعَصْرِ فِي مَكْتَبِهِ.
وَمَكْتَبُهُ أَشْبَهُ بِشَقَّةٍ صَغِيرَةٍ، تَتَكَوَّنُ مِنْ بَهْوٍ مُتَوَسِّطٍ وَحُجْرَةٍ كَبِيرَةٍ وَمَطْبَخٍ صَغِيرٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْحَمَّامِ.

كُنَّا فِي نَفْسِ السِّنِّ تَقْرِيبًا، وَمَلَامِحُهُ تَعْكِسُ جَدِّيَّةً بَدَتْ كَأَنَّهَا جُزْءٌ مِنْهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ يَشِي بِالْبَسَاطَةِ وَحُسْنِ الْمَنْشَإِ.

عَقَّبْتُ عَلَى إِجَابَتِهِ بِتَسَاؤُلٍ، وَدِدْتُ أَنْ يَكُونَ مُفَاجِئًا:

- رَغْمَ مُعَارَضَتِهِ لِزَوَاجِكَ مِنْ (حَسْنَاءَ) أَثْنَاءَ دِرَاسَتِكَ الْجَامِعِيَّةِ؟

اِرْتَفَعَ حَاجِبَاهُ وَاتَّسَعَتْ عَيْنَاهُ بِدَهْشَةٍ حَقِيقِيَّةٍ، وَهُوَ يَقُولُ:

- مُعَارَضَتِهِ لِزَوَاجِي مِنْ (حَسْنَاءَ)!

أَخَذَتِ الدَّهْشَةُ وَقْتَهَا قَبْلَ أَنْ تَتْرُكَ وَجْهَهُ لِيَعُودَ إِلَى طَبِيعَتِهِ، وَيَقُولُ بِخُفُوتٍ:

- أَكَانَ هُوَ مَنْ رَفَضَ زَوَاجِي مِنْهَا؟

اِتَّبَعْتُ سُؤَالَهُ بِسُؤَالِي وَعَيْنَايَ لَا تُفَارِقَانِ وَجْهَهُ:

- أَلَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ هَذَا؟

أَنْكَرَتْ كَفَّاهُ وَلِسَانُهُ:

- وَمِنْ أَيْنَ أَعْلَمُ؟ أَخْبَرَنِي وَالِدُهَا بِالرَّفْضِ وَغَادَرْتُ.

مِلْتُ نَحْوَهُ وَمِرْفَقِي يَتَّكِئُ عَلَى مَكْتَبِهِ، سَأَلْتُ:

- أَلَمْ تُخْبِرْكَ (حَسْنَاءُ)؟

نَسَخَتْ هَيْئَتُهُ مَا كَانَ مِنْهَا حِينَ تَسَاؤُلِهِ السَّابِقِ وَهُوَ يَقُولُ:

- وَكَيْفَ سَتُخْبِرُنِي؟ كَانَ رَفْضُ وَالِدِهَا هُوَ آخِرَ شَيْءٍ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ جَمِيعًا.

أَجَبْتُ تَسَاؤُلَهُ بِسُرْعَةٍ:

- مِنْ (حَسْنَاءَ)، أَلَمْ تُخْبِرْكَ بِهَذَا أَثْنَاءَ عَمَلِكَ بَوَّابًا لَدَى جَدِّهَا؟

كَانَ رَدُّهُ وَجْهًا لَمْ يَبْقَ مِنْهُ سِوَى عَيْنَيْنِ ضَاعَ مِنْهُمَا الْبَرِيقُ، وَصَمْتٌ أَوْجَدَ فِي الْأُذُنِ طَنِينًا، وَأَخَذَ مِنَ الدَّهْرِ بُرْهَةً وَيَطْمَعُ فِي الْمَزِيدِ، قَبْلَ أَنْ يَخْرُجَ صَوْتُ (عَادِلٍ) مُتَحَشْرِجًا:

- سَيِّدُ (طَارِقُ)، أَنْتَ تَسْأَلُ أَسْئِلَةً لَا تَعْنِيكَ، وَقَدْ رَضِيتُ بِلِقَائِكَ تَقْدِيرًا لِلسَّيِّدِ (شَاكِرَ)، أَغْفِرْ لِي، وَلَكِنَّنِي لَا أَرْغَبُ فِي إِطَالَةِ هَذَا اللِّقَاءِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

مَعَ الْأَسَفِ نُوَاجِهُ هَذَا الْمَوْقِفَ كَثِيرًا، وَكَمَا قُلْتُ سَابِقًا، الْعَمَلُ بِلاَ صِفَةٍ رَسْمِيَّةٍ قَانُونِيَّةٍ، يَجْعَلُنَا نَعْتَمِدُ عَلَى الْكِيَاسَةِ وَالْحِيلَةِ، لِذَلِكَ كَانَ رَدُّ لِسَانِي عَلَيْهِ:

- سَيِّدُ (عَادِلُ)، أَنَا أَطْرَحُ هَذِهِ الْأَسْئِلَةَ الْآنَ بِصِفَةٍ وِدِّيَّةٍ، حَتَّى لَا تُضْطَرَّ لِلْإِجَابَةِ عَنْهَا بِصِفَةٍ رَسْمِيَّةٍ.

لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ فِيهِ وَهُوَ يَقُولُ:

- لَا أَفْهَمُكَ.

قُلْتُ وَكَلِمَاتِي تَأْخُذُ طَرِيقَهَا بِتُؤَدَّةٍ:

- الْحَقِيقَةُ أَنَّ السَّيِّدَ (شَاكِرَ) تَعَرَّضَ لِحَادِثَةٍ مَا، وَنَحْنُ نَرْغَبُ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ كُلِّ مَنْ لَهُ عَلَاقَةٌ بِالسَّيِّدِ (شَاكِرَ) وَقْتَ الْحَادِثَةِ، الْآنَ نَعْمَلُ بِصِفَةٍ غَيْرِ رَسْمِيَّةٍ، وَذَلِكَ نُزُولًا عِنْدَ رَغْبَةِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، وَنَرْغَبُ فِي إِنْهَاءِ الْمَسْأَلَةِ بَعِيدًا عَنِ الْجِهَاتِ الرَّسْمِيَّةِ الْمُخْتَصَّةِ، وَإِلَّا سَنَضْطَرُّ لِإِحَالَةِ الْأَمْرِ كُلِّهِ إِلَيْهَا، وَأَنْتَ خَيْرُ مَنْ يَعْرِفُ مَا يَعْنِيهِ هَذَا.

أَنْهَضَهُ الْجَزَعُ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَهُوَ يَهْتِفُ:

- حَادِثَةٌ؟ مَتَى؟ هَلْ أُصِيبَ بِسُوءٍ؟

أَشَارَتْ لَهُ يَدِي بِأَنْ يَهْدَأَ، وَطَمْأَنَهُ لِسَانِي:

- كَلَّا، السَّيِّدُ (شَاكِرَ) بِأَلْفِ خَيْرٍ، لَقَدِ اكْتَشَفَ الْأَمْرَ مُبَكِّرًا، وَلَمْ يُحَقِّقِ الْفَاعِلُ هَدَفَهُ.

تَلَاشَى الْجَزَعُ مِنْ وَجْهِهِ، وَحَطَّ الارْتِيَاحُ بَدَلًا مِنْهُ، وَعَادَ لِلْجُلُوسِ مُتَأَنِّيًا، أَلْقَى سُؤَالًا:

- وَهَلْ.. هَلْ يَتَّهِمُنِي السَّيِّدُ (شَاكِرَ) بِشَيْءٍ مَا؟

تَأَمَّلْتُهُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، أَجَبْتُهُ:

- كَلَّا، نَحْنُ فَقَطْ نَجْمَعُ الْمَعْلُومَاتِ مِنْ كُلِّ شَخْصٍ لَهُ عَلَاقَةٌ بِالسَّيِّدِ (شَاكِرَ) أَثْنَاءَ الْحَادِثَةِ، لَعَلَّهُ يَعْرِفُ شَيْئًا يُفِيدُنَا فِي حَلِّ الْمَسْأَلَةِ.

* * *

هُنَاكَ شَيْءٌ مَا نَسِيتُهُ عِنْدَ (أُمِّ عَلِيٍّ)، شَيْءٌ لَا أَذْكُرُهُ، أَشْعُرُ بِأَنِّي عَلَى وَشْكِ تَذَكُّرِهِ ثُمَّ لَا أَفْعَلُ..

* * *

اِرْتَخَى فِي مَجْلِسِهِ، وَعَادَ إِلَيْهِ الْهُدُوءُ وَالارْتِيَاحُ، أَكْمَلَ مَا كَانَ سَابِقًا، قَالَ:

- الْحَقِيقَةُ لَمْ تُخْبِرْنِي (حَسْنَاءُ) بِذَلِكَ..

وَأَرْدَفَ وَقَدْ ظَهَرَ الضِّيقُ فِي نَبْرَتِهِ:

- إِنَّهَا تَلُومُنِي دَائِمًا عَلَى قَبُولِ الرَّفْضِ، وَتَرْكِ أَمْرِ الزَّوَاجِ، مَاذَا تُرِيدُ مِنِّي؟ أَنْ أُقَاتِلَ أَهْلَهَا حَتَّى يَقْبَلُوا بِزَوَاجِي مِنْهَا؟

قُلْتُ:

- إِنَّهَا تَشْعُرُ بِأَنَّكَ تَخَلَّيْتَ عَنْهَا بِسُهُولَةٍ شَدِيدَةٍ.

كَانَتْ نَبْرَتُهُ سُخْرِيَةً مَعَ بَعْضِ الْغَضَبِ وَالْحَنَقِ:

- بِسُهُولَةٍ شَدِيدَةٍ! هَلْ لَكَ أَنْ تَتَخَيَّلَ أُسْرَةً تَنْتَظِرُ انْتِهَاءَ دِرَاسَتِكَ بِفَارِغِ الصَّبْرِ لِتَعِيلَهَا، وَتَضِيفَ إِلَيْهِمْ زَوْجَةً وَأَنْتَ لَا تَعْلَمُ مَا يُخْفِيهِ الْمُسْتَقْبَلُ، هَلْ سَتَجِدُ عَمَلًا أَمْ لَا؟ هَلْ تَكُونُ رِحْلَةُ الْبَحْثِ طَوِيلَةً أَمْ قَصِيرَةً؟ هَلِ الْأَجْرُ قَلِيلٌ أَمْ كَثِيرٌ؟ عَنْ أَيِّ سُهُولَةٍ تَتَحَدَّثُ؟

أَجَبْتُهُ:

- كَانَتْ رَاغِبَةً فِي مُسَاعَدَتِكَ، وَلَكِنَّكَ تَخَلَّيْتَ عَنْهَا وَتَرَكْتَهَا وَلَمْ تُكَلِّفْ نَفْسَكَ بِاعْتِذَارٍ أَوْ تَوْضِيحٍ.

خَرَجَتْ كَلِمَاتُهُ تَقْطُرُ مَرَارَةً:

- تُسَاعِدُنِي! بِمَاذَا؟ بِمَالِ أَبِيهَا؟

تَجَاوَزْتُ هَذِهِ النُّقْطَةَ إِلَى أُخْرَى:

- هَلْ عَارَضَتْ أُسْرَتُكَ أَمْرَ الزَّوَاجِ؟

هَذِهِ الْمَرَّةَ كَانَتْ مَلَامِحُهُ مِنْ نَصِيبِ ابْتِسَامَةٍ حَزِينَةٍ:

- أُسْرَتِي! لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْ أَمْرِهِمْ، كَانُوا أَكْثَرَ سُرُورًا وَسَعَادَةً مِنِّي بِمَسْأَلَةِ الزَّوَاجِ، لَمْ يَشْغَلْهُمُ التَّفْكِيرُ بِتَكَالِيفِهِ وَاحْتِيَاجَاتِهِ، فَرَحُهُمْ طَغَى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، وَحِينَ بَلَغَهُمْ أَمْرُ الرَّفْضِ كَانُوا أَكْثَرَ حُزْنًا وَأَشَدَّ تَعَاسَةً مِنِّي، حَتَّى أَنَّ أُمِّي تَمَنَّتِ الْمَوْتَ لِوَالِدِ (حَسْنَاءَ)، وَأَنْ تَبْقَى (حَسْنَاءَ) بِلاَ زَوَاجٍ.

لَقَدْ تَحقَّقَتْ أُمْنِيَّتُهَا.. اِحْتَفَظْتُ بِتِلْكَ الْخَاطِرَةِ لِنَفْسِي، وَأَنَا أَحُثُّهُ عَلَى الْمَزِيدِ، قُلْتُ:

- وَبَعْدَ؟

نَظَرَ إِلَيَّ.. تَسَاءَلَ:

- وَبَعْدَ؟

أَرْدَفَ فِي اقْتِضَابٍ:

- لَا يُوجَدُ بَعْدَ، رَغْمَ مَرَارَةِ الرَّفْضِ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مَنْطِقِيًّا، وَانْغَمَسْتُ بَعْدَ الْانْتِهَاءِ مِنَ الْجَامِعَةِ فِي الْبَحْثِ عَنْ عَمَلٍ، وَحَاوَلَتْ أُسْرَتِي فَتْحَ مَوْضُوعِ الزَّوَاجِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَكِنَّنِي رَفَضْتُ أَنْ يَتَكَرَّرَ مَا حَدَثَ سَابِقًا، سَأَتَزَوَّجُ حِينَ أَكُونُ قَادِرًا عَلَى إِعَالَةِ بَيْتِي.

سَأَلْتُهُ مِنْ بَابِ الْفُضُولِ:

- وَهَلِ اقْتَرَبْتَ مِنْ ذَلِكَ؟

حَمَلَ وَجْهُهُ ابْتِسَامَةً تَجْهَلُ السَّعَادَةَ، أَجَابَ:

- كَثِيرًا، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَصِلْ بَعْدُ.

اِبْتَسَمْتُ بِدَوْرِي وَالسُّؤَالُ التَّالِي يَجْرِي عَلَى لِسَانِي:

- هَلْ تَعْلَمُ مَنْ هِيَ السَّيِّدَةُ الَّتِي تَأْتِي إِلَى (أُمِّ عَلِيٍّ) فِي الصَّبَاحِ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ؟

* * *

الْآنَ تَذَكَّرْتُ مَا نَسِيتُهُ عِنْدَ (أُمِّ عَلِيٍّ)..

* * *

كَانَتِ الدَّهْشَةُ هِيَ مَنْ تُجِيبُنِي:

- سَيِّدَةٌ! أَيُّ سَيِّدَةٍ؟ لَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُ لَدَيْهِمْ شَهْرَيْنِ وَلَمْ أَرَ سَيِّدَةً بِخِلَافِ (حَسْنَاءَ) وَ (أُمِّ عَلِيٍّ)!

لَمْ يَضِفْ لِقَائِي بِهِ الْكَثِيرَ، فَقَطَّ الْمَشْهَدُ أَصْبَحَ أَكْثَرَ وُضُوحًا، غَادَرْتُ وَذَهَبْتُ إِلَى (أُمِّ عَلِيٍّ) كَيْ أَسْأَلَهَا عَمَّا نَسِيتُهُ مِنْ قَبْلُ، بَعْدَهَا قَضَيْتُ يَوْمَيْنِ فِي الْبَحْثِ وَالتَّحَرِّي هُنَا وَهُنَاكَ، وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّنِي اسْتَطَعْتُ إِنْهَاءَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ تَمَامًا.

*** * ***

12- جُزْءٌ مِنَ الْحَقِيقَةِ

كُنْتُ قَدْ بَلَغْتُ فُنْدُقَنَا مُنْذُ قَلِيلٍ، وَاتَّخَذْتُ مَجْلِسِي وَرَاءَ مَكْتَبِي، لِأَجِدَ (حَسَنٌ) يَطْرُقُ الْبَابَ، أَطَلَّ بِرَأْسِهِ، قَالَ:

- الِاسْتِقْبَالُ.. مُشْكِلَةٌ.

هَذَا الْأَمْرُ لَا عَلَاقَةَ لِي بِهِ، وَهُوَ مَهَمَّةُ رِجَالِ الْأَمْنِ وَمُدِيرِ الْفُنْدُقِ الْفِعْلِيِّ، وَلَكِنَّ (حَسَنَ) يُصِرُّ عَلَى إِبْلَاغِي بِكُلِّ مَا يَحْدُثُ فِي الْفُنْدُقِ، رُبَّمَا لِعِلْمِهِ بِأَنَّنِي حَفِيدُ مَالِكِ الْفُنْدُقِ، فَيَجِبُ أَنْ أَكُونَ مُطَّلِعًا عَلَى كُلِّ مَا يَحْدُثُ فِيهِ.

شَكَرْتُهُ وَأَنَا أَتَنَاوَلُ حَاسُوبِي اللَّوْحِيَّ وَأَقُومُ بِفَتْحِ تَطْبِيقِ الرَّصْدِ وَالْمُرَاقَبَةِ، وَظَهَرَ بَهْوُ الِاسْتِقْبَالِ الْفَسِيحُ، وَاخْتَرْتُ الْمَشْهَدَ الْقَرِيبَ مِنْ مَكْتَبِ الِاسْتِقْبَالِ الطَّوِيلِ، كَانَتِ امْرَأَةٌ تَبْدُو كَأَنَّهَا تُخَاضُ نِقَاشًا حَادًّا مَعَ مُوَظَّفِي الِاسْتِقْبَالِ، وَرَجُلَا أَمْنٍ يَقِفَانِ بِالْقُرْبِ مِنْهَا، قُمْتُ بِتَقْرِيبِ الْمَشْهَدِ لِيَبْدُوَ وَجْهُ الْمَرْأَةِ وَاضِحًا.. كَانَ وَجْهُ.. (حَسْنَاءَ)..

* * *

اِقْتَرَبْتُ مِنْ مَنْضَدَةِ الِاسْتِقْبَالِ وَالْعَامِلَةُ هُنَاكَ تُخَاطِبُ (حَسْنَاءَ) بِلُطْفٍ صَارِمٍ:

- سَيِّدَتِي، لَا نَسْتَطِيعُ إِعْطَاءَكِ أَيَّ مَعْلُومَةٍ عَنْ أَيِّ نَزِيلٍ فِي الْفُنْدُقِ، أَكَانَ مُقِيمًا هُنَا أَمْ لَا، وَأَنْتِ تَقُولِينَ أَنَّهُ جَدُّكِ، فَلِمَ لَا تَتَصِلِينَ بِهَاتِفِهِ.

كَانَتِ الشَّرَاسَةُ هِيَ الْوَصْفُ الْمُنَاسِبُ لِسُلُوكِ (حَسْنَاءَ) وَهِيَ تُجِيبُ:

- لَا يُمْكِنُ الْوُصُولُ إِلَى هَاتِفِهِ، وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ يُقِيمُ هُنَا، فِي فُنْدُقِكُمْ.

لا شَكَّ أَنَّ الْمَشْهَدَ يُثِيرُ الْقَلَقَ مَعَ عَصَبِيَّةِ (حَسْنَاءَ)، وَوُجُودِ رَجُلَيْ الْأَمْنِ بجِوَارِهَا، بِالْإِضَافَةِ إِلَى ثَالِثٍ وَرَاءَ وَرَاءَ الْمَنْضَدَةِ بِجِوَارِ الْعَامِلَةِ، وَهُنَاكَ سَائِحَانِ يَقِفَانِ عِنْدَ عَامِلِ الاسْتِقْبَالِ الْآخَرِ وَيُتَابِعَانِ مَا يَحْدُثُ بِقَلَقٍ، مَعَ بَعْضِ النُّزَلَاءِ الْجُلُوسِ فِي بَهْوِ الاسْتِقْبَالِ الْفَسِيحِ.

خَاطَبَتْهَا الْعَامِلَةُ فِي صَبْرٍ وَتَأَنٍّ:

-....

كَانَتِ الْعَامِلَةُ تَنْفُذُ سِيَاسَةَ الْفُنْدُقِ، بِعَدَمِ إِعْطَاءِ أَيِّ مَعْلُومَاتٍ أَوْ بَيَانَاتٍ عَنِ النُّزَلَاءِ، النَّزِيلُ هُوَ مَنْ يَجِبُ أَنْ يُعْطِيَ قِسْمَ الاسْتِقْبَالِ مَعْلُومَاتٍ عَنْ مَنْ يُرِيدُ اسْتِقْبَالَهُمْ، وَكُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ يَقُومُ مُوَظَّفٌ آخَرُ فِي الاسْتِقْبَالِ بِإِشْرَافِ أَمْنِ الْفُنْدُقِ بِالْبَحْثِ عَنِ النَّزِيلِ الْمَقْصُودِ، لِسُؤَالِهِ إِنْ كَانَ يُرِيدُ لِقَاءَ مَنْ يَطْلُبُهُ أَمْ لَا، الْأَمْرُ هُنَا أَنَّ السَّيِّدَ (شَاكِرَ) يُقِيمُ فِي جَنَاحِ الضُّيُوفِ الْخَاصِّ بِالْعَائِلَةِ، وَهُوَ يُعْتَبَرُ خَارِجَ نِطَاقِ عَمَلِ قِسْمِ الاسْتِقْبَالِ، فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ رَأَتْنِي (حَسْنَاءَ) قَادِمًا مِنْ خَلْفِ مَنْضَدَةِ الاسْتِقْبَالِ، صَاحَتْ:

- سَيِّدُ (طَارِقُ)، أَيْنَ جَدِّي؟

أَشَرْتُ بِيَدِي لِعَامِلَةِ الاسْتِقْبَالِ وَرِجَالِ الْأَمْنِ إِشَارَةً خَاصَّةً، تَعْنِي أَنْ لَا حَاجَةَ لِلْقَلَقِ، وَطَلَبْتُ مِنْ (حَسْنَاءَ) مُرَافَقَتِي، وَهِيَ تُصِرُّ عَلَى لِقَاءِ جَدِّهَا، قُلْتُ وَالْهُدُوءُ يُزَيِّنُ صَوْتِي:

- رَافِقِينِي إِلَى مَكْتَبِي بِهُدُوءٍ، وَبِمَشِيئَةِ اللهِ سَأُحَاوِلُ إِقْنَاعَهُ بِلِقَائِكِ.

أَشَرْتُ إِلَى (حَسَن) أَنْ يُصْطَحِبَهَا إِلَى مَكْتَبِي، وَرَفَعْتُ سَمَّاعَةَ الْهَاتِفِ عَلَى مَنْضَدَةِ الاسْتِقْبَالِ، وَطَلَبْتُ الرَّقْمَ الدَّاخِلِيَّ الْخَاصَّ بِجَنَاحِ ضُيُوفِ الْعَائِلَةِ..

* * *

كَانَ اللِّقَاءُ حارًّا بَيْنَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) وَحَفِيدَتِهِ فِي مَكْتَبِي، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ مُرُورِ أَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ سَاعَةٍ وَهِيَ لَا تَزَالُ فِي أَحْضَانِهِ وَتَبْكِي عَلَى كَتْفِهِ، وَتُحِيطُ عُنُقَهُ بِذِرَاعَيْهَا، وَتَقُولُ بَيْنَ دُموعِهَا:

- ك.. يف.. كَيْفَ تُفَكِّرُ.. أَنَّنِي.. أَنَّنِي....

وَتُوَاصِلُ الْبُكَاءَ حَتَّى رَأَيْتُ الْعَبَرَاتِ فِي عَيْنَيْ جَدِّهَا، وَهُوَ يُرَبِّتُ عَلَى ظَهْرِهَا وَيَسْتَعْطِفُهَا أَنْ تَكُفَّ عَنِ الْبُكَاءِ.

جَلَسْتُ خَلْفَ مَكْتَبِي دُونَ أَنْ أُحَاوِلَ مُقَاطَعَتَهُمَا، حَتَّى هَدَأَتْ (حَسْنَاءُ) قَلِيلًا، وَابْتَعَدَتْ عَنْهُ دُونَ أَنْ تَتْرُكَ يَدَهَا يَدَهُ، أَشَرْتُ لَهُمَا بِالْجُلُوسِ، وَ(حَسْنَاءُ) لَا تَكُفُّ عَنِ النَّشِيجِ، وَمَنَحْتُ نَفْسِي بَعْضَ الْوَقْتِ، قَبْلَ أَنْ أَقُولَ:

- إِنَّ حَفِيدَتَكَ لَمْ تَسْعَ يَوْمًا لِلضَّرَرِ بِكَ.

تَوَقَّفْتُ وَأَنَا أَفْكِرُ فِي صِيَاغَةِ الْمَسْأَلَةِ بِأُسْلُوبٍ مُتَنَاسِقٍ، ثُمَّ وَجَدْتُ الْعَفَوِيَّةَ أَفْضَلَ، أَكْمَلْتُ وَأَنَا مُدْرِكٌ أَنَّهُمَا يُصْغِيَانِ رَغْمَ مَا يَبْدُو عَلَيْهِمَا مِنَ انْشِغَالِهِمَا بِبَعْضِهِمَا:

- فِي الْبَدَايَةِ يَجِبُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لِلَّهِ حِكْمَةً فِيمَا حَدَثَ، لِأَجْلِ تَصْحِيحِ كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ، فَتَشَاءُ حِكْمَةُ الْعَلِيِّ الْقَدِيرِ أَنْ تَلْتَقِيَ (عَوْضَ) مِنْ بَيْنِ آلافِ الْبَاحِثِينَ عَنْ عَمَلٍ، لِيَعْمَلَ بَوَّابًا لَدَيْكَ، (عَوْضَ) الَّذِي عَلاقَتُهُ بِكُلِّ مَا حَدَثَ لَا تَتَخَطَّى الشَّبَهَ الْكَبِيرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ (عَادِلٍ) فَقَطْ..

مَعَ عِبَارَتِي الْأَخِيرَةِ الْتَفَتَ السَّيِّدُ (شَاكِرَ) إِلَيَّ، أَطْلَقَتِ الدَّهْشَةُ هِتَافَهُ:

- مَاذَا؟

طَرَقْتُ سَطْحَ مَكْتَبِي بِأَنَامِلِي، وَأَنَا أُجِيبُ وَأُكْمِلُ:

- نَعَمْ يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ)، هَذَا هُوَ دَوْرُ (عَوْضَ)، أَنَّهُ يُشْبِهُ (عَادِلَ) فَقَطْ.

سَمِعْتُ غَمْغَمَةً مِنْ (حَسْنَاءَ) وَهِيَ تَمْسَحُ دُمُوعَهَا، لَمْ أَتَبَيَّنِ الْكَلِمَاتِ، مِنَ الْتِفَاتَةِ جَدِّهَا إِلَيْهَا وَمَلَامِحِهِ، أَدْرَكْتُ أَنَّهَا تُؤَكِّدُ مَا أَقُولُهُ، تَابَعْتُ:

- ثُمَّ يَأْتِي الْأَمْرُ الْغَرِيبُ الْآخَرُ، الَّذِي مَا كَانَ لِيَحْدُثَ لَوْلَا الْأَوَّلُ، تَبْحَثُ أَنْتَ عَنْ شَبِيهِ (عَوْضَ) لِتَجِدَ (عَادِلَ)، الشَّخْصُ الْمَعْنِيُّ وَالْمَطْلُوبُ لِتَصْحِيحِ الْأُمُورِ، وَرَغْمَ غَرَابَةِ مَا طَلَبْتَهُ مِنْ (عَادِلٍ) وَهُوَ أَنْ يَعْمَلَ بَوَّابًا لَدَيْكَ، فَقَدْ وَافَقَ لِأَنَّ كُلَّ مَا يَشْغَلُ ذِهْنَهُ هُوَ الْعَمَلُ وَاخْتِصَارُ الزَّمَنِ لِيَسْتَقِلَّ بِعَمَلِهِ، وَافَقَ وَفُوجِئَ بِحَفِيدَتِكَ، الْفَتَاةُ الَّتِي تَقَدَّمَ لِلزَّوَاجِ مِنْهَا...

قَاطَعَنِي هِتَافُ الدَّهْشَةِ مِنْ جَدِيدٍ وَهُوَ يَقُولُ:

- مَاذَا؟

وَالْتَفَتَ لِحَفِيدَتِهِ، يُبْقِي الدَّهْشَةَ وَيَزِيدُ السُّؤَالَ:

- أَهُوَ الشَّابُّ الَّذِي تَقَدَّمَ لِلزَّوَاجِ مِنْكِ أَثْنَاءَ الْجَامِعَةِ؟

جَاءَهُ الْجَوَابُ هَزَّةُ رَأْسٍ مِنْ حَفِيدَتِهِ، لِيَمْتَزِجَ الْفَهْمُ وَالْأَسَفُ فِي مَلَامِحِهِ، وَيَضُمَّهَا إِلَيْهِ وَيُقَبِّلَ قِمَّةَ رَأْسِهَا، خَرَجَ صَوْتُهُ تَتَقَاطَرُ مِنْهُ الْعَبَرَاتُ:

- سَامِحِينِي، مَا ظَنَنْتُ لَحْظَةً أَنَّنِي أُوْذِيكِ، لَوْ تَنْظُرِينَ لِنَفْسِكِ بِعَيْنَيَّ، لَعَلِمْتِ أَنَّهُ لَمْ يُولَدْ بَعْدُ مَنْ يَسْتَحِقُّكِ.

أَفْسَحْتُ لِعَوَاطِفِهِمَا بَعْضَ الْوَقْتِ، ثُمَّ وَاصَلْتُ حَدِيثِي:

- حِينَ عَلِمَ (عَادِلٌ) أَنَّهُ سَيَعْمَلُ حَيْثُ تَسْكُنُ حَفِيدَتُكَ، شَعَرَ بِالتَّوَجُّسِ.. بِالْخَوْفِ.. أَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا غَرِيبًا، أَنْتَ رَفَضْتَ (عَادِلَ) دُونَ أَنْ تَرَاهُ أَوْ تُكَلِّفَ

نَفْسَكَ لِقَاءَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً فَقَطْ، عَلَى الْأَقَلِّ لِتَعْرِفَ الشَّخْصَ الَّذِي تَقَدَّمَ لِحَفِيدَتِكَ، وَ(عَادِلُ) لَمْ يَرَكَ قَطُّ، فَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ الرَّفْضَ جَاءَ مِنَ الْمَرْحُومِ ابْنِكَ، وَلَكِنَّ الْآنِسَةَ (حَسْنَاءَ) أَزَاحَتْ هَذِهِ الْمَشَاعِرَ حِينَ تَحَدَّثَتْ إِلَيْهِ، وَهِيَ تُعَاتِبُهُ كُلَّ حِينٍ عَلَى انْسِحَابِهِ السَّرِيعِ مِنْ مَسْأَلَةِ الزَّوَاجِ دُونَ إِعْطَائِهَا تَبْرِيرًا، لَعَلِّي الْآنَ وَضَحْتُ لَكَ مَا خَفِيَ عَنْكَ يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ).

أَخَذَتْ (حَسْنَاءُ) تَجْفِفُ دُمُوعَهَا، وَجَدُّهَا يُحِيطُهَا بِذِرَاعِهِ، نَظَرَ إِلَيَّ وَالْحَيْرَةُ تَحْتَكِرُ مَلَامِحَهُ، قَالَ:

- وَلَكِنَّ أَنْتَ.. أَنْتَ لَمْ تُفَسِّرْ لِي مَنْ يَضَعُ السَّمَّ فِي طَعَامِي؟ وَلِمَاذَا؟

بَيْنَ الِابْتِسَامِ وَالْجُمُودِ، اخْتَرْتُ الِابْتِسَامَ، أَجَبْتُهُ:

- وَمِنْ هُنَا يَبْدَأُ الْجُزْءُ الثَّانِي، وَهَذَا الْجُزْءُ لَهُ خِيَارَانِ، الْأَوَّلُ أَنْ تَعْرِفَ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا وَلِمَاذَا، بِشَرْطٍ أَنْ تَتَعَهَّدَ بِأَنْ تَغْفِرَ لَهُ، الثَّانِي أَنْ لَا تَغْفِرَ لَهُ وَيَبْقَى مَجْهُولًا، مَعَ التَّأْكِيدِ أَنَّهُ لَنْ يُكَرِّرَ فِعْلَهُ مَرَّةً أُخْرَى..

حَدَّقَتْ عَيْنَاهُمَا فِيَّ، وَأَنَا أَنْتَظِرُ مِنَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) جَوَابًا.. أَنْتَظِرُ قَرَارًا..

* * *

فَرَغْتُ مِنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ فِي مَسْجِدِ الْفُنْدُقِ وَخَرَجْتُ مِنْهُ إِلَى الْبَابِ الصَّغِيرِ الَّذِي يُفَصِّلُ الْفُنْدُقَ عَنْ مَنْزِلِ جَدِّي، وَلَجْتُ إِلَى الْحَدِيقَةِ الَّتِي تُحِيطُ بِالْمَنْزِلِ، لِأَجِدَ عِدَّةَ سَيَّارَاتٍ أَمَامَ الْمَنْزِلِ، هُنَا تَذَكَّرْتُ أَنَّ الْيَوْمَ الْخَمِيسَ وَغَدًا الْجُمُعَةَ، الْجُمُعَةَ الْأُولَى مِنَ الشَّهْرِ، وَهِيَ مَوْعِدُ الْغَدَاءِ الْعَائِلِيِّ الَّذِي يُصِرُّ جَدِّي عَلَى جَمْعِ شَمْلِ الْعَائِلَةِ عَلَيْهِ، اِنْدَفَعَ نَحْوِي قِطَارٌ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْبَنَاتِ، وَأَنَا أَسْمَعُ

مِنْهُمْ عَمِّي (طَارِقُ).. خَالِي (طَارِقُ).. نَزَلْتُ عَلَى رُكْبَتَيَّ لِأَغُوصَ فِي بَحْرِ الْهِتَافِ وَالْمُصَافَحَةِ وَالْعِنَاقِ وَالْقُبلَاتِ، أَتَمَمْتُ الْعَمَلِيَّةَ بِنَجَاحٍ، وَخَرَجْتُ بِيَدَيْنِ وَوَجْنَتَيْنِ لَزِجَتَيْنِ، وَحَرَصْتُ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْأَيْدِي وَالْوَجْنَاتِ أَخَذَتْ نَصِيبَهَا مِنَ الْمُصَافَحَةِ وَالْقُبَلِ، نَهَضْتُ لِأَجِدَ شَقِيقَتِي تَحْمِلُ رَضِيعَهَا وَتَقَهْقَهُ:

- مِنَ اللَّذِيذِ تَقْبِيلُكَ الْآنَ، سَتَكُونُ حَقًّا بِطَعْمِ الْحَلْوَى.

اِبْتَسَمْتُ وَأَخْرَجْتُ مِنْدِيلًا وَأَنَا أَمْسَحُ عَنْ وَجْهِي آثَارَ الْحَلْوَى وَالْمَرَطِّبَاتِ، وَاقْتَرَبْتُ مِنْهَا وَلَثَمْتُهَا عَلَى خَدِّهَا، وَكَرَّرْتُ ذَلِكَ مَعَ رَضِيعِهَا، وَأَنَا أَسْأَلُ عَنِ الْجَمِيعِ، قَالَتْ:

- حَضَرَ الْجَمِيعُ، بِاسْتِثْنَاءِ أَبِي وَأُمِّي، سَيَتَأَخَّرَانِ قَلِيلًا.

نَظَرْتُ إِلَى السَّيَّارَاتِ أَبْحَثُ عَنْ وَاحِدَةٍ بِعَيْنِهَا، سَأَلْتُ:

- وَجَدِّي؟

أَجَابَتْنِي:

- ذَهَبَ لِإِحْضَارِ حَافِلَةٍ صَغِيرَةٍ تَسَعُ هَذَا الْجَيْشَ مَعَهُ.

تَعَلَّقَ ابْنُ أَخِي بِيَدِي وَهُوَ يُصِيحُ بِفَرَحٍ غَامِرٍ:

- سَنَذْهَبُ جَمِيعًا مَعَ جَدِّي لِشِرَاءِ خَرُوفٍ كَبِيرٍ.

نَظَرْتُ إِلَيْهِ ثُمَّ إِلَى أُخْتِي وَأَنَا أُرَدِّدُ:

- خَرُوفٌ؟

طَابَ ثَغْرُ شَقِيقَتِي لِلضَّحَكَاتِ، فَانْطَلَقَتْ مِنْهُ ضَحْكَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ تَقُولُ:

- لَقَدْ خَسِرْنَا التَّصْوِيتَ لِصَالِحِهِمْ، لَقَدْ قَرَّرُوا أَنَّ غَدَاءَ الْجُمُعَةِ سَيَكُونُ لَحْمُ الْخَرُوفِ، وَلَيْسَ لَنَا سِوَى الْقَبُولِ.

كَانَ الْخَرُوفُ مَوْضُوعَ السَّاعَةِ وَالْأَطْفَالُ مِنْ حَوْلِي، يَتَحَدَّثُونَ بِبَهْجَةٍ وَيَسْأَلُونَنِي كَأَنَّنِي خَبِيرٌ بِهَا، أَمَّا أَحَدُهُمْ فَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ مُوسُوعَةً، فَكَانَ يَسْخَرُ مِنْ أَسْئِلَةِ الْآخَرِينَ، وَلِكُلِّ سُؤَالٍ إِجَابَةٌ عِنْدَهُ، وَلَكِنَّ السُّؤَالَ هُوَ مَا طَبِيعَةُ الْخِرَافِ الَّتِي يَتَحَدَّثُ عَنْهَا؟!

صَرَفْتُهُمْ شَقِيقَتِي وَسِرْنَا إِلَى بَهْوِ الاسْتِقْبَالِ دَاخِلَ الْمَنْزِلِ، لِأَسْقُطَ فِي بَحْرِ التَّحِيَّاتِ مِنْ جَدِيدٍ، وَلَكِنَّهَا هَادِئَةٌ رَزِينَةٌ، وَبَحَثْتُ عَنْ جَدَّتِي، فَلَمْ أَجِدْهَا وَأَدْرَكَ زَوْجُ شَقِيقَتِي الثَّانِيَةِ مَا أَبْحَثُ عَنْهُ، قَالَ:

- لَقَدْ ذَهَبَتْ مَعَ جَدِّكَ، سَيَعُودُ هُوَ بِالْحَافِلَةِ، وَتَقُودُ هِيَ السَّيَّارَةَ.

هَزَزْتُ رَأْسِي وَانْهَمَكْنَا فِي تَبَادُلِ الْأَخْبَارِ وَالِاطْمِئْنَانِ عَلَى أُنَاسٍ نَعْرِفُهُمْ، قَبْلَ أَنْ أَنْهَضَ وَسُؤَالُ أَخِي يَعْتَرِضُنِي:

- إِلَى أَيْنَ؟

قُلْتُ وَالِابْتِسَامَةُ لَا تَتْرُكُ وَجْهِي:

- سَأَذْهَبُ لِلاطْمِئْنَانِ عَلَى أَبِي وَأُمِّي، وَأَحُثُّهُمَا عَلَى الْإِسْرَاعِ.

نَهَضَ عَمِّي وَهُوَ يَحُكُّ بَطْنَهُ الْكَبِيرَ، قَالَ:

- خُذْنِي مَعَكَ، أُرِيدُ أَنْ أَسِيرَ قَلِيلًا.

خَرَجْنَا مِنَ الْمَنْزِلِ وَالْحَدِيثُ بَيْنَنَا، وَاقْتَرَبْنَا مِنَ الْبَابِ الصَّغِيرِ الْمُقَابِلِ لِلْآخَرِ الَّذِي يُفَصِّلُ بَيْنَ الْمَنْزِلِ وَالْفُنْدُقِ، وَهَذَا الْبَابُ أَيْضًا يُفَصِّلُ بَيْنَ الْمَنْزِلِ وَفُنْدُقٍ، وَلَكِنَّ هَذَا فُنْدُقٌ تَخْتَلِفُ طَبِيعَتُهُ تَمَامًا عَنِ الْفُنْدُقِ الْأَوَّلِ، فَحَجْمُهُ بِالْكَادِ يَبْلُغُ عُشْرَ الْأَوَّلِ، كَمَا أَنَّهُ مُصَمَّمٌ عَلَى هَيْئَةِ قَصْرٍ كَبِيرٍ، يُذَكِّرُكَ بِقُصُورِ الْعُصُورِ الْغَابِرَةِ، وَتَشْعُرُ بِأَجْوَاءِ الْبَيْتِ الْحَمِيمَةِ مُمْتَزِجَةً بِفَخَامَةٍ مُدْرُوسَةٍ

وَمُنْتَقَاةٍ، بِخِلَافِ الْأَوَّلِ الْمَشْهُورِ بِتَصْمِيمِهِ الْحَدِيثِ الرَّاقِي، وَتَكْلُفَةُ الْإِقَامَةِ فِي هَذَا أَعْلَى مِنَ الْأَوَّلِ، وَالِانْتِقَالُ مِنْ فُنْدُقِ "يَنَابِيعِ الْجَنَّةِ" إِلَى فُنْدُقِ "أَوْقَاتٍ مَجِيدَةٍ"، هُوَ الِاتِّجَاهُ إِلَى الْغَرْبِ بِمِقْدَارِ خَمْسِمِائَةِ مِتْرٍ تَقْرِيبًا، الْفُنْدُقَانِ بِمُحَاذَاةِ بَعْضِهِمَا وَيَقَعَانِ عَلَى الشَّاطِئِ وَيُفَصِّلُ بَيْنَهُمَا مَنْزِلُ جَدِّي، وَيُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّ فُنْدُقَ "أَوْقَاتٍ مَجِيدَةٍ" هُوَ تَجْرِبَةُ أَبِي الْخَاصَّةُ فِي إِنْشَاءِ فُنْدُقٍ بِطَبِيعَةٍ خَاصَّةٍ تَخْتَلِفُ عَنِ الْمَعْتَادِ.

ذَاتَ مَرَّةٍ سَأَلْتُ جَدِّي عَنْ سَبَبِ عِشْقِهِ لِلْفَنَادِقِ، فَأَجَابَنِي:

- الْفُنْدُقُ دُنْيَا صَغِيرَةٌ مَلِيئَةٌ بِالْحِكَايَاتِ، بَعْضُهَا حَزِينٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهَا سَعِيدَةٌ.

أَنَا وَأَبِي وَأُمِّي نُقِيمُ فِي مَنْزِلِ جَدِّي مِنْ بَابِ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ، أَبِي اخْتَارَ أَنْ يَبْقَى مَعَ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، حِينَ خَرَجَ الْآخَرُونَ فِي دُرُوبِ الْحَيَاةِ، وَأَنَا اخْتَرْتُ الْبَقَاءَ مَعَ أَبِي وَأُمِّي، حِينَ أَخَذَتِ الْحَيَاةُ وَالْأَرْزَاقُ أَشْقَائِي وَشَقِيقَاتِي، رَغْمَ أَنَّ جَدِّيَّ يُؤَكِّدَانِ لِأَبِي أَنَّهُمَا لَا يَحْتَاجَانِ رِعَايَتَهُ وَأَنَّهُمَا يَسْتَطِيعَانِ رِعَايَتَهُ وَرِعَايَةَ شَعْبٍ كَامِلٍ، وَيُكَرِّرُ وَالِدَايَ هَذَا الْكَلَامَ لِي، فَأُصِرُّ أَنَا عَلَى أَنَّ وُجُودِي مَعَهُمَا لَيْسَ لِرِعَايَتِهِمَا، بَلْ لِغَرَضِ نَشْرِ السَّلَامِ فِي الْعَالَمِ.

تَجَاوَزْتُ مَعَ عَمِّي الْبَابَ الصَّغِيرَ، لِيُقَابِلَنَا بُسْتَانِيٌّ يَعْمَلُ فِي الْحَدِيقَةِ، تَوَقَّفَ لِيُحَيِّينَا بَعْدَ أَنْ تَعَرَّفَ عَلَيْنَا، وَوَاصَلْنَا طَرِيقَنَا إِلَى الِاسْتِقْبَالِ، وَهُوَ سَقِيفَةٌ مُنْفَصِلَةٌ فِي الْحَدِيقَةِ، وَيَصِلُهُ بِالْفُنْدُقِ مَمَرٌّ لَهُ سَقْفٌ مُنْحَنٍ مِنَ الْحَجَرِ وَجَوَانِبُ مِنْ أَلْوَاحٍ زُجَاجِيَّةٍ مُنْزَلِقَةٍ، السَّقِيفَةُ صُمِّمَتْ لِتَكُونَ أَقْرَبَ لِحُجْرَةِ ضِيَافَةٍ وَاسِعَةٍ، يَتَنَاسَبُ تَصْمِيمُهَا مَعَ تَصْمِيمِ الْفُنْدُقِ، وَتَمَّ إِخْفَاءُ الْأَجْهِزَةِ الْحَدِيثَةِ كَالْحَوَاسِيبِ بِمَهَارَةٍ فِي أَثَاثِهَا، كَانَتْ أُمِّي مُنْهَمِكَةً فِي الْحَدِيثِ مَعَ

نَزِيلَةٍ تُقَارِبُهَا فِي الْعُمْرِ، لَمَحْتْنَا نَدْخُلُ السَّقِيفَةَ، اِسْتَأْذَنَتْ مِنَ النَّزِيلَةِ وَأَقْبَلَتْ عَلَيْنَا، بَعْدَ التَّرْحِيبِ سَأَلْتُهَا عَنْ سَبَبِ التَّأْخِيرِ، قَالَتْ:

- أُصِيبَ الْمُدِيرُ الْمَسَائِيُّ فِي حَادِثَةٍ، وَذَهَبَ وَالِدُكَ لِلاطْمِئْنَانِ عَلَيْهِ، وَنَحْنُ فِي انْتِظَارِ نَائِبِهِ لِاسْتِلَامِ النَّوْبَةِ مِنَ الْمُدِيرِ الْحَالِيِّ.

بَعْدَ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ الْمُطَمْئِنَةُ مَعَ قُدُومِ أَبِي فِي رِفْقَةِ نَائِبِ الْمُدِيرِ الْمَسَائِيِّ، قَالَ أَبِي:

- الْتَقَيْنَا فِي الْمُسْتَشْفَى، الْحَمْدُ لِلَّهِ الْإِصَابَةُ بَسِيطَةٌ، وَلَكِنَّهُ سَيَحْتَاجُ لِلرَّاحَةِ بَعْضَ الْوَقْتِ.

عُدْنَا أَنَا وَعَمِّي وَأُمِّي إِلَى مَنْزِلِ جَدِّي، عَلَى أَنْ يلَحَقَ بنا أَبِي بَعْدَ قَلِيلٍ، وَوَجَدْنَا أَنَّ جَدِّي قَدْ عَادَ بِالْحَافِلَةِ، قَبْلَ أَنْ يَذْهَبَ فِي صُحْبَةِ الْأَطْفَالِ لِشِرَاءِ غَدَاءِ الْغَدِّ، وَإِلَى سَاعَةِ النَّوْمِ انْهَمَكْنَا فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْأَطْفَالِ حَدِيثٌ سِوَى الْخَرُوفَيْنِ، وَلَا عَمَلَ لَهُمْ سِوَى تَقْدِيمِ مَا تَصِلُهُ أَيْدِيهِمْ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ إِلَى الْخَرُوفَيْنِ.

عِنْدَ سَاعَةِ النَّوْمِ، شَرَعْنَا فِي تَوْزِيعِ أَمَاكِنِ النَّوْمِ، وَكَانَ مِنْ نَصِيبِي كَالْعَادَةِ ابْنُ عَمَّتِي الَّذِي سَيُشَارِكُنِي السَّرِيرَ، وَاثْنَانِ مِنَ ابْنَاءِ أَعْمَامِي سَيَنَامُونَ عَلَى الْأَرْضِ، أَيْضًا فِي حُجْرَتِي، كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التَّرْتِيبَ مِنْ قِبَلِ أُمِّي انْتِقَامًا مِنَ الْأَعْزَابِ وَالْعَزُوبِيَّةِ، الْمُتَزَوِّجُونَ فَقَطْ هُمْ مَنْ يَحْظَوْنَ بِغُرَفٍ خَاصَّةٍ بِهِمْ وَبِأَطْفَالِهِمْ.

قَالَ ابْنُ عَمِّي مِنْ فِرَاشِهِ عَلَى الْأَرْضِ:

- لَدَيْنَا فُنْدُقٌ عَلَى الْيَمِينِ وَآخَرُ عَلَى الْيَسَارِ وَنَنَامُ عَلَى الْأَرْضِ.

قَالَ الْآخَرُ:

- نَحْنُ الضُّيُوفُ نَنَامُ عَلَى الْأَرْضِ، وَالْأُسْتَاذُ (طَارِقُ) يَنَامُ فِي سَرِيرِهِ، هَذَا زَمَنٌ عَجِيبٌ.

جَثَمْتُ عَلَى الضَّحْكَةِ كَيْ لَا تَفْلَتَ مِنِّي، وَقُلْتُ:

- هَلْ تُرِيدُ أَنْ تَأْخُذَ مَكَانِي؟ هَيَّا، سَأَخُذُ مَكَانَكَ.

اِرْتَفَعَ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ شَخِيرُ ابْنِ عَمَّتِي بِجِوَارِي، مِمَّا حَسَمَ الْأَمْرَ لِصَالِحِي.

اِنْقَضَى يَوْمُ الْجُمُعَةِ سَرِيعًا، وَبَدَأَ بِذَبْحِ الْخَرُوفَيْنِ فِي اِحْتِفَالٍ مَهِيبٍ، وَكَانَ الْأَطْفَالُ الْأَكْثَرَ بَهْجَةً وَإِثَارَةً، ثُمَّ تَنَاوُلُ الْإِفْطَارِ ثُمَّ الِاغْتِسَالُ وَالتَّوَجُّهُ لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَالْعَوْدَةُ لِلْغَدَاءِ، وَبَعْدَ الْعَصْرِ بَدَأَ كُلُّ مَنْ حَضَرَ يُغَادِرُ حَتَّى خَلَا الْمَكَانُ وَلَمْ يَبْقَ سِوَى سُكَّانِهِ.

هَذَا يَتَكَرَّرُ فِي الْجُمُعَةِ الْأُولَى مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، مَعَ اخْتِلَافِ بَعْضِ التَّفَاصِيلِ، وَكَمَا تَرَى هَذَا الْجُزْءُ خَارِجَ سِيَاقِ مَا أَقُومُ بِهِ وَلَا عَلَاقَةَ لَهُ، أَحْبَبْتُ ذِكْرَهُ هُنَا لِإِعْطَاءِ فِكْرَةٍ عَامَّةٍ عَنِ الْمَحِيطِ الَّذِي أَعِيشُ فِيهِ، الْآنَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْسَاهُ وَتُتَجَاهَلَهُ تَمَامًا.

* * *

13- الْجُزْءُ الثَّانِي مِنَ الْحَقِيقَةِ

تَنَاوَلْتُ فِنْجَانَ الْقَهْوَةِ مِنَ الصِّينِيَّةِ الَّتِي تَحْمِلُهَا (أُمُّ عَلِيٍّ)، وَوَضَعْتُهُ عَلَى الْمَائِدَةِ أَمَامِي، وَهِيَ تُكْمِلُ تَقْدِيمَ الْقَهْوَةِ إِلَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ) وَحَفِيدَتِهِ، وَ(عَادِلٌ) يَجْلِسُ إِلَى يَسَارِي فِي بَهْوِ الاِسْتِقْبَالِ فِي مَنْزِلِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، وَيَتَسَاءَلُ عَنْ سَبَبِ إِصْرَارِي عَلَى حُضُورِهِ هَذِهِ الزِّيَارَةَ، أَجَبْتُهُ وَأَنَا أُذَكِّرُ صَاحِبَ الْمَنْزِلِ بِوَعْدِهِ:

- سَتَعْلَمُ بَعْدَ قَلِيلٍ يَا سَيِّدُ (عَادِلُ)، أَرْجُو أَنْ لَا تَنْسَى وَعْدَكَ يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ).

أَجَابَنِي رَأْسُهُ بِهَزَّةٍ، تَبِعَهَا لِسَانُهُ بِالْكَلَامِ، وَيَدُهُ مَشْغُولَةٌ بِحَمْلِ فِنْجَانِ الْقَهْوَةِ:

- أَنَا عِنْدَ وَعْدِي، لَنْ أَتَرَاجَعَ عَنْهُ، الْمَهْمُ أَنْ أَعْرِفَ مَنْ هُوَ وَلِمَ فَعَلَ هَذَا؟

أَجَبْتُهُ:

- سَتَعْرِفُ.

كُنْتُ سَأَكْتَفِي بِهَذَا، وَلَكِنَّنِي أَكْمَلْتُ:

- هَلْ تَعْلَمُ يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ)، أَنَّ كُلَّ مَا حَدَثَ مَا كَانَ لِيَحْدُثَ لَوْ أَنَّكُمْ جَمِيعًا مَنَحْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بَعْضًا مِنْ وَقْتِكُمْ لِتَوْضِيحِ الْأَمْرِ لِلْآخَرِينَ.

صَارَ وَجْهِي قِبْلَةَ عُيُونِ الْجَمِيعِ، تَابَعْتُ وَالاِبْتِسَامَةُ تَلُوحُ عَلَى وَجْهِي:

- أَنْتَ يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ) رَفَضْتَ زَوَاجَ (عَادِلٍ) مِنْ حَفِيدَتِكَ، دُونَ أَنْ تُكَلِّفَ نَفْسَكَ لِقَاءَ (عَادِلٍ) وَالتَّعَرُّفَ عَلَيْهِ، وَلَمْ تُفَسِّرْ رَفْضَكَ أَوْ تُبَرِّرْهُ لِحَفِيدَتِكَ، أَنْتَ قَرَّرْتَ وَتَرَكْتَ الْأَمْرَ، (عَادِلٌ) بِدَوْرِهِ لَمْ يُحَاوِلِ التَّوْضِيحَ لِحَفِيدَتِكَ سَبَبَ تَخَلِّيهِ عَنْ مَسْأَلَةِ الزَّوَاجِ مِنْهَا، بَلْ لَمْ يُحَاوِلِ الشَّرْحَ لِأُسْرَتِهِ أَسْبَابَ رَفْضِ

الزَّوَاجِ بَعْدَهَا، اتَّخَذَ قَرَارًا وَاحْتَفَظَ بِهِ لِنَفْسِهِ، أَيْضًا الْآنَسَةُ (حَسْنَاءُ) اتَّخَذَتْ قَرَارًا وَاحْتَفَظَتْ بِهِ لِنَفْسِهَا دُونَ إِعْلَانِهِ وَتَفْسِيرِهِ لِلْآخَرِينَ، وَهَكَذَا وَاصَلَ جَمِيعُكُمْ حَيَاتَهُ مُتَجَاهِلًا الْآخَرِينَ، وَكُلَّ مَا تَرَتَّبَ عَلَى قَرَارِهِ وَسُلُوكِهِ مِنْ أَذًى لِلْآخَرِ.

بَدَا عَلَيْهِمْ جَمِيعًا مُحَاوَلَةُ الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، مَنَعَهُمْ كَفِّيَ الَّتِي ارْتَفَعَتْ فِي وُجُوهِهِمْ، مَعَ ابْتِسَامَةٍ أَخَذَتْ وَجْهِي كُلَّهُ، وَالْكَلِمَاتِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنِّي:

- كَلَّا، لَنْ تَجِدُوا لِأَنْفُسِكُمْ أَعْذَارًا، جَمِيعُكُمْ...

قَاطَعَنِي مَجِيءُ (أُمِّ عَلِيٍّ)، قَالَتْ وَالْحَيْرَةُ فِي عَيْنَيْهَا.. فِي مَلَامِحِهَا.. فِي كَلِمَاتِهَا:

- سَيِّدُ (طَارِقُ)، هُنَاكَ مَنْ يُرْغِبُ فِي لِقَائِكَ.

نَظَرْتُ إِلَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، وَمَرَّةً أُخْرَى:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ) لَا تَنْسَ وَعْدَكَ.

مِنْ وَجْهِي إِلَى وَجْهِ (أُمِّ عَلِيٍّ) انْتَقَلَتْ نَظَرَاتُهُ، عَادَ يُؤَكِّدُ:

- أَنَا عِنْدَ وَعْدِي.

الْتَفَتُّ إِلَى (أُمِّ عَلِيٍّ)، قُلْتُ:

- أَحْضِرِيهَا إِلَى هُنَا.

صَارَ وَجْهُ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) مِلْكًا لِلدَّهْشَةِ، قَالَ:

- هِيَ!

رَسَمْتُ أَطْرَافَ أَصَابِعِي إِشَارَةَ التَّمَهُّلِ، وَصَمَتْنَا جَمِيعًا فِي انْتِظَارِ حُضُورِ السَّيِّدَةِ، وَجَاءَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) تَحْجُبُ بِجَسَدِهَا امْرَأَةً تَسِيرُ خَلْفَهَا، تَوَقَّفَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) وَأَفْسَحَتِ الطَّرِيقَ لِتَمُرَّ السَّيِّدَةُ وَتَنْطَلِقُ الصَّيْحَاتُ..

- أُمِّي!

- أَنْتِ!

الْأُولَى خَرَجَتْ مِنْ فَمِ (عَادِلٍ) وَهُوَ يَثِبُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَالثَّانِيَةُ مِنْ (حَسْنَاءَ)، وَلَمْ يَبْدُ شَيْءٌ غَيْرَ الْحَيْرَةِ عَلَى وَجْهِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) وَهُوَ يَنْقُلُ بَصَرَهُ بَيْنَ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ.. وَجْهِ حَفِيدَتِهِ.. وَجْهِ الْمَرْأَةِ.. وَجْهِ (عَادِلٍ).. قَبْلَ أَنْ يَقُولَ بِكَلِمَاتٍ خَرَجَتْ حَائِرَةً مُتَرَدِّدَةً:

- أُمُّكَ؟..

وَالْتَفَتَ إِلَيَّ يُكْمِلُ:

- أَهَذِهِ هِيَ..

وَلَمْ يُكْمِلْ، فَأَكْمَلْتُ أَنَا:

- نَعَمْ، هَذِهِ هِيَ..

وَتَمَهَّلْتُ لِتُرْوِيَ اللهفَةَ وَالْفُضُولَ ظَمَأَهُمَا، تَابَعْتُ:

- مَنْ حَاوَلَتْ قَتْلَكَ.

- مَاذَا؟

انْطَلَقَتِ الصَّيْحَةُ الْأَخِيرَةُ مِنْ (عَادِلٍ)، وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَيَّ بِقُوَّةٍ كَادَتْ تَخْلَعُ عُنُقَهُ، أَمَّا الْحَيْرَةُ فَانْشَبَتْ مَخَالِبَهَا بِمَزِيدٍ مِنَ الْقُوَّةِ فِي وَجْهِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، وَخَرَجَ صَوْتُهُ وَاهِنًا تَائِهًا:

- وَلَكِنْ.. لَكِنْ.. لِمَاذَا؟

أَحْبَبْتُ أَنْ أُوَضِّحَ لَهُ هَذَا، وَلَكِنَّ الْمَرْأَةَ سَبَقَتْنِي وَهِيَ تَصِيحُ بِغَضَبٍ.. بِشَرَاسَةٍ.. بِقَهْرٍ:

- لِمَاذَا؟ أَتَسْأَلُ لِمَاذَا؟ حَرَمْتَنِي أَنْ أَفْرَحَ بِوَلَدِي وَتَسْأَلُ لِمَاذَا؟

كَانَتْ تَصِيحُ وَهِيَ تَتَقَدَّمُ نَحْوَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) كَأَنَّهَا تُرِيدُ مُهَاجَمَتَهُ، وَهَبَّتْ (حَسْنَاءُ) لِتَحُولَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ جَدِّهَا، وَتَقَدَّمَ (عَادِلٌ) لِيُمْسِكَ بِأُمِّهِ، الَّتِي فَقَدَتِ التَّحَكُّمَ فِي نَفْسِهَا، وَأَخَذَتْ تُقَاوِمُ ابْنَهَا وَتُحَاوِلُ شَقَّ طَرِيقِهَا إِلَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، وَعَلاَ صَوْتُهَا بِالشَّتِيمَةِ وَالصُّرَاخِ عَلَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، كَانَ هَذَا هُوَ مَا افْتَقَدْتُهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، الدَّافِعُ الْقَوِيُّ الَّذِي يُبَرِّرُ ارْتِكَابَ جَرِيمَةٍ، اسْتَطَعْتُ الْوُصُولَ إِلَى هَذِهِ الْمَرْأَةِ وَمُوَاجَهَتَهَا، وَانْتَزَعْتُ مِنْهَا اعْتِرَافًا بِمَا فَعَلَتْهُ، وَمَعَ هَذَا كُنْتُ افْتَقِدُ الدَّافِعَ الْقَوِيَّ، انْفِعَالُ الْمَرْأَةِ الْجَارِفُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، أَعْطَانِي مَا افْتَقَدْتُهُ وَاحْتَجْتُهُ، فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ كَانَتْ (حَسْنَاءُ) تُعْطِي ظَهْرَهَا لِجَدِّهَا كَأَنَّهَا تَحْمِيهِ مِنَ الْمَرْأَةِ، وَتَصِيحُ بِدَوْرِهَا فِي الْمَرْأَةِ، فِي حِينِ يُحَاوِلُ (عَادِلٌ) دَفْعَ أُمِّهِ بَعِيدًا وَهُوَ يَصِيحُ فِيهَا بِأَنْ تَتَوَقَّفَ، وَأُمُّهُ تُحَاوِلُ دَفْعَهُ بَعِيدًا لِلْوُصُولِ إِلَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، وَهِيَ تَصِيحُ:

- أَتَحْسَبُ أَنَّنِي أُرِيدُ قَتْلَكَ، كَلَّا أَيُّهَا... ، أُرِيدُكَ أَنْ تَعِيشَ وَتَتَمَنَّى الْمَوْتَ كُلَّ يَوْمٍ.

كَانَ هَذَا يَكْفِينِي، لِذَلِكَ تَعَاوَنْتُ مَعَ (عَادِلٍ) عَلَى إِخْرَاجِ أُمِّهِ إِلَى خَارِجِ الْمَنْزِلِ، وَقُمْتُ بِإِيقَافِ سَيَّارَةٍ لِتَقْلَهُمَا إِلَى مَنْزِلِهِمَا، وَرَغْمَ هِيَاجِ الْمَرْأَةِ، ذَكَّرْتُهَا بِمَا اتَّفَقْنَا عَلَيْهِ:

- لَا أُرِيدُ مِنْكِ الِاقْتِرَابَ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ، وَإِلَّا سَيَتَحَمَّلُ ابْنُكَ عَاقِبَةَ مَا قُمْتِ بِهِ.
أَعَادَتْ كَلِمَاتِي إِلَيْهَا شَيْئًا مِنَ التَّعَقُّلِ، وَهَدَأَتْ قَلِيلًا، وَهِيَ تُوَاصِلُ قَذْفَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) بِالْكَلِمَاتِ الْجَارِحَةِ وَالنَّابِيَةِ، رَغْمَ سِنِّهَا الْكَبِيرِ لَمْ يَبْدُ عَلَيْهَا التَّعَبُ رَغْمَ لَهَاثِهَا وَصَدْرِهَا الَّذِي يَرْتَفِعُ وَيَنْخَفِضُ بِقُوَّةٍ.
أَغْلَقَ (عَادِلٌ) بَابَ السَّيَّارَةِ وَأَلْقَى نَظْرَةَ اتِّهَامٍ عَلَيَّ وَهُوَ يَأْمُرُ السَّائِقَ بِالتَّحَرُّكِ..
عُدْتُ إِلَى حَيْثُ تَرَكْتُ السَّيِّدَ (شَاكِرَ) وَ(حَسْنَاءَ)، وَوَجَدْتُ (أُمَّ عَلِيٍّ) تُحَاوِلُ أَنْ تُوَضِّحَ أَمْرَ الْمَرْأَةِ، قَاطَعْتُهَا:
- أُمَّ عَلِيٍّ.
الْتَفَتَتْ إِلَيَّ، أَكْمَلْتُ:
- سَأُوَضِّحُ أَنَا الْأَمْرَ لِلسَّيِّدِ (شَاكِرَ).
انْصَرَفَتْ (أُمُّ عَلِيٍّ) وَعُدْتُ إِلَى مَجْلِسِي، وَعَيْنَا السَّيِّدِ (شَاكِرَ) لَا تُفَارِقَانِي، وَالْحَيْرَةُ لَا تُفَارِقُهُ، أَمَّا حَفِيدَتُهُ فَشَارَكَتْهُ الْحَالَ، قُلْتُ:
- هَذِهِ السَّيِّدَةُ هِيَ (أُمُّ عَادِلٍ) يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ)، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْآنِسَةَ (حَسْنَاءَ) تَعْرِفُ هَذَا.
نَفَتْ بِهَزَّةٍ مِنْ رَأْسِهَا، وَقَالَتْ:
- كُنْتُ أَشُكُّ أَنَّهَا هِيَ حِينَ رَأَيْتُهَا فِي الْمَطْبَخِ يَوْمَ الْحَادِثَةِ، وَلَكِنَّنِي لَمْ أَكُنْ مُتَأَكِّدَةً مِنْ ذَلِكَ حَتَّى قَبْلَ قَلِيلٍ، لَمْ أَرَهَا سِوَى مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ قَبْلُ، حِينَ جَاءَتْ لِخِطْبَتِي لِابْنِهَا.
سَأَلْتُهَا بِعِتَابٍ بَاهِتٍ:

- وَلَكِنَّكِ أَنْكَرْتِ مَعْرِفَتَهَا.

قَالَتْ وَهِيَ تَجِدُ فِي الْمَنْضَدَةِ مَا يَشُدُّ نَظَرَهَا:

- كَمَا قُلْتُ، لَمْ أَكُنْ مُتَأَكِّدَةً، رَأَيْتُهَا مَرَّةً مُنْذُ سِنِينَ عَدِيدَةٍ، وَخَشِيتُ أَنْ أَظْلِمَهَا بِاتِّهَامِهَا.

نَظَرْتُ إِلَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، الَّذِي يَنْتَظِرُ مِنِّي تَوْضِيحًا، قُلْتُ:

- سَيِّدُ (شَاكِرَ)، حِينَ رَفَضْتَ أَنْتَ زَوَاجَ حَفِيدَتِكَ مِنْ (عَادِلٍ)، عَادَتْ (أُمُّ عَادِلٍ) فِي الْيَوْمِ التَّالِي إِلَى بَيْتِ ابْنِكَ، كَيْ تُحَاوِلَ ثَنْيَهُ عَنْ رَأْيِهِ وَإِقْنَاعَهُ بِزَوَاجِ حَفِيدَتِكَ مِنِ ابْنِهَا، وَهُنَاكَ عَلِمَتْ أَنَّكَ أَنْتَ سَبَبُ الرَّفْضِ، وَحَاوَلَتِ الْوُصُولَ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّ مَعَ الْأَسَفِ رَفَضْتَ أَنْتَ لِقَاءَهَا، بَلْ وَجَدَتْ مُعَامَلَةً سَيِّئَةً مِنْ مَنْ حَوْلَكَ، كَانَتْ مَلْهُوفَةً لِتُزَوِّجَ ابْنَهَا، فَبَحَثَتْ عَنْ فَتَاةٍ أُخْرَى، وَلَكِنَّ ابْنَهَا كَانَ قَدْ أَخْرَجَ أَمْرَ الزَّوَاجِ بِرُمَّتِهِ مِنْ حِسَابَاتِهِ، مِمَّا زَادَ نِقْمَتَهَا عَلَيْكَ، حِينَ عَمِلَ (عَادِلٌ) بَوَّابًا لِمَنْزِلِكَ، أَخْبَرَ أُمَّهُ عَنْ هَذِهِ الْمُصَادَفَةِ الْغَرِيبَةِ، لِيَشْتَعِلَ نَارُ الْحِقْدِ مِنْ جَدِيدٍ وَجَاءَتْ إِلَى بَيْتِكَ، وَحَرَصَتْ عَلَى أَنْ لَا يَرَاهَا ابْنُهَا، فَكَانَتْ تَأْتِي إِلَى (أُمِّ عَلِيٍّ) مِنَ الْبَابِ الْآخَرِ بِحُجَّةِ الْبَحْثِ عَنْ عَمَلٍ، وَيَبْدُو أَنَّهَا لَاحَظَتْ سَذَاجَةَ (أُمِّ عَلِيٍّ)، وَبِمَا اكْتَسَبَتْهُ مِنْ خِبْرَةٍ سَابِقَةٍ فِي الْعَمَلِ كَقَابِلَةٍ فِي إِحْدَى الْمُسْتَشْفَيَاتِ، بِسَبَبِ حِرْصِ (أُمِّ عَلِيٍّ) عَلَى أَنْ تُعِدَّ طَعَامَكَ بِنَفْسِهَا، كَانَتْ تَقُومُ بِصَرْفِ انْتِبَاهِ (أُمِّ عَلِيٍّ) بَلْ وَتَخْدِيرِهَا أَحْيَانًا أَثْنَاءَ قِيَامِهَا بِإِعْدَادِ إِفْطَارِكَ، حَيْثُ هِيَ فُرْصَتُهَا الْوَحِيدَةُ لِدَسِّ السُّمِّ فِي طَعَامِكَ، قَبْلَ أَنْ تَعُودَ لِمَنْزِلِهَا قَبْلَ أَنْ يَلَاحِظَ أَحَدٌ غِيَابَهَا، حَتَّى فَاجَأَتْهَا حَفِيدَتُكَ فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، لِتُفْسِدَ مُخَطَّطَهَا، فَتَفِرَّ بِلاَ عَوْدَةٍ، لَمْ تَكُنْ تُرِيدُ

قَتْلَكَ، كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَعِيشَ مَرِيضًا تَتَعَذَّبُ كَمَا عَذَّبْتَهَا بِرَفْضِكَ زَوَاجَ حَفِيدَتِكَ مِنِ ابْنِهَا، كَانَ السُّمُّ سَيُؤَدِّي لِتَلَفِ بَعْضِ الْأَعْضَاءِ وَبَدْءِ رِحْلَةِ عَذَابٍ تَسْتَغْرِقُ عِدَّةَ سِنِينَ قَدْ تُؤَدِّي إِلَى الْمَوْتِ.

ذَاهِلَةً، وَاهِنَةً، بَطِيئَةً، خَرَجَتِ الْكَلِمَاتُ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْ السَّيِّدِ (شَاكِرَ):

- كُلُّ هَذَا لِأَنِّي رَفَضْتُ زَوَاجَ ابْنِهَا مِنْ حَفِيدَتِي!

أَمَّا (حَسْنَاءُ)، فَكَانَتْ كَلِمَاتُهَا تَحْمِلُ اسْتِهْجَانًا أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ:

- و.. وَلَكِنَّ آلافَ الشَّبَابِ وَالنَّاسِ يَتِمُّ رَفْضُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ لِسَبَبٍ مَا، أَيَسْتَحِقُّ الْأَمْرُ هَذَا الْحِقْدَ وَهَذِهِ الْكُرْهَ؟

غَلَّفَ الْأَسَفُ كَلِمَاتِي:

- بَعْضُ الْأَشْخَاصِ لَا يَتَقَبَّلُونَ الرَّفْضَ بِسُهُولَةٍ، وَلَا تَنْسَيْ أَنَّهَا تُرِكَتْ وَحِيدَةً فِي الدُّنْيَا لِرِعَايَةِ أَبْنَائِهَا، وَكَانَتْ تَخْشَى الْمَوْتَ كَثِيرًا، وَتَتَسَاءَلُ عَمَّا سَيَحِلُّ بِأَبْنَائِهَا بَعْدَ مَوْتِهَا، كَانَتْ تُرِيدُ بِشِدَّةٍ زَوَاجَ ابْنِهَا كَيْ تَجِدَ مَنْ يَحُلُّ مَحَلَّهَا لَوْ أَصَابَهَا مَكْرُوهٌ مَا، هِيَ بِدَوْرِهَا فَعَلَتْ كَمَا فَعَلْتُمْ، احْتَفَظَتْ بِهَذِهِ الْأَفْكَارِ لِنَفْسِهَا وَلَمْ تُصَارِحْ بِهَا سِوَايَ حِينَ وَاجَهْتُهَا بِجَرِيمَتِهَا كَحَقِيقَةٍ لَا تَقْبَلُ الشَّكَّ أَوِ التَّأْوِيلَ.

لَمْ يَتْرُكِ الذُّهُولُ السَّيِّدَ (شَاكِرَ) بَعْدُ، وَبَقِيتُ قَلِيلًا أَتَحَدَّثُ مَعَهُمَا، وَأُوَضِّحُ بَعْضَ النِّقَاطِ، قَبْلَ أَنْ أَسْتَأْذِنَ فِي الانْصِرَافِ، وَاصْطَحَبَنِي السَّيِّدُ (شَاكِرَ) إِلَى الْبَوَّابَةِ، وَهُنَاكَ اسْتَوْقَفَنِي بِتَسَاؤُلٍ:

- سَيِّدُ (طَارِقُ)..

الْتَفَتُّ إِلَيْهِ مُكْتَفِيًا بِمَلَامِحَ تَرْسُمُ التَّسَاؤُلَ، فَتَابَعَ بِابْتِسَامَةٍ يَتَنَازَعُهَا الذُّهُولُ وَالتَّوَتُّرُ:

- الْكِيسُ، لَمْ تُفَسِّرْ لِي أَمْرَ الْكِيسِ الَّذِي يَحْتَوِي السُّمَّ فِي يَدِ (حَسْنَاءَ).

اِبْتَسَمْتُ وَأَجَبْتُهُ بِكَلِمَاتٍ تَنْضَحُ طُمَأْنِينَةً:

- حِينَ فَاجَأَتِ الْآنِسَةُ (حَسْنَاءَ) (أُمَّ عَادِلٍ)، حَاوَلَتِ الْأَخِيرَةُ الْفِرَارَ فَمَدَّتِ الْأُولَى يَدَهَا لِتُمْسِكَ بِهَا، فَأَمْسَكَتْ بِالْكِيسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَشْعُرَ فِي نَفْسِ اللَّحْظَةِ دَفَعَتْهَا (أُمُّ عَادِلٍ) لِتَرْتَطِمَ بِحَافَّةِ الْمَنْضَدَةِ الرُّخَامِيَّةِ، وَتَسْقُطَ فَاقِدَةَ الْوَعْيِ وَفِي غَمْرَةِ الْحَدَثِ نَسِيَتْ حَفِيدَتُكَ كُلَّ شَيْءٍ عَنِ الْكِيسِ وَكَيْفَ وَصَلَ لِيَدِهَا.

تَمَهَّلْتُ قَبْلَ أَنْ أُرْدِفَ وَضَحْكَةٌ صَغِيرَةٌ تَفَلَّتَتْ مِنِّي:

- لَنْ أُنْكِرَ يَا سَيِّدُ (شَاكِرَ) أَنِّي شَكَكْتُ فِي حَفِيدَتِكَ بِدَوْرِي، وَقَدْ ظَهَرَ شَيْءٌ مِنَ الْيَقِينِ لَدَيَّ حِينَ أَخْبَرَتْنِي أَنَّهَا بِسَبَبِ تَدَخُّلِكَ فِي أَمْرِ زَوَاجِهَا قَرَّرَتْ عَدَمَ الزَّوَاجِ لِلْأَبَدِ، قُلْتُ لِنَفْسِي مَنْ تَتَّخِذُ هَذَا الْقَرَارَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ تَحْمِلَ فِي قَلْبِهَا حِقْدًا قَادِرًا عَلَى الْقَتْلِ.

قَالَ بِأَسَفٍ:

- يَجِبُ أَنْ أُصَحِّحَ مَا ارْتَكَبْتُهُ فِي حَقِّهَا، يَجِبُ أَنْ أُصَحِّحَ كُلَّ أَخْطَائِي.

هَزَزْتُ رَأْسِي مُؤَكِّدًا ذَلِكَ، وَالْإِشْفَاقُ يَجْتَاحُنِي وَأَنَا أَرَى جَحَافِلَ الْحُزْنِ وَالِانْكِسَارِ تَزْحَفُ عَلَيْهِ فَلَا تُبْقِي مِنْهُ شَيْئًا، لَمْ يَتَكَلَّمْ بَعْدَهَا وَاكْتَفَى بِهَزِّ رَأْسِهِ وَهُوَ يُوَدِّعُنِي..

* * *

كَانَتِ الشَّمْسُ تَغْرُبُ فِي الْأُفُقِ، وَأَنَا جَالِسٌ بِمُحَاذَاةِ جَدِّي عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، أَرْوِي لَهُ الْحِكَايَةَ كَامِلَةً، فَرَغْتُ وَاكْتَفَيْتُ بَعْدَهَا بِمُشَاهَدَةِ الْبَحْرِ وَالْمُصْطَافِينَ وَالْمَرَاكِبِ الصَّغِيرَةِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي صَوْتُ جَدِّي يَقُولُ:

- هُنَاكَ نُقْطَةٌ لَمْ تُوَضِّحْهَا.

الْتَفَتُّ إِلَيْهِ وَأَنَا أَسْأَلُ:

- مَا هِيَ؟

نَظَرَ إِلَيَّ، أَرْدَفَ:

- كَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى تِلْكَ الْمَرْأَةِ (أُمِّ عَادِلٍ)؟

أَجَبْتُهُ:

- عَنْ طَرِيقِ ابْنِهَا، هَذِهِ الْمَرْأَةُ ظَهَرَتْ بَعْدَ أَنْ عَمِلَ (عَادِلٌ) لَدَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ)، وَهَذَا طَرَفُ الْخَيْطِ، لِمَ ظَهَرَتِ الْآنَ؟ وَبِسُؤَالِ بَوَّابِي الْبِنَايَاتِ الْمُجَاوِرَةِ عَنْهَا، أَنْكَرَ الْجَمِيعُ أَنَّ امْرَأَةً مَرَّتْ بِهِمْ تَبْحَثُ عَنْ عَمَلٍ أَوْ شَيْءٍ آخَرَ، وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ الْمَرْأَةَ جَاءَتْ إِلَى مَنْزِلِ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) مُبَاشَرَةً، كَمَا أَنَّهَا حَرَصَتْ عَلَى دُخُولِ الْمَنْزِلِ مِنَ الْبَابِ الْخَلْفِيِّ كَيْ لَا يَرَاهَا (عَادِلٌ).. لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ يَعْرِفُهَا، وَ(عَادِلٌ) قَالَ إِنَّ أُمَّهُ دَعَتْ عَلَى السَّيِّدِ (شَاكِرَ) بِالْمَوْتِ وَعَلَى حَفِيدَتِهِ أَنْ تَبْقَى بِلاَ زَوَاجٍ، هُنَا وَجَدْتُ دَافِعًا مَعْقُولًا، وَهُوَ عَاطِفَةُ الْأُمِّ، وَهَذِهِ الْمَرْأَةُ تُفَسِّرُ الْكَثِيرَ، ذَهَبْتُ إِلَى شَقَّةِ (عَادِلٍ) لِتُخْرِجَ لِي سَيِّدَةً تَحْمِلُ ذَاتَ الْمَلَامِحِ الَّتِي وَصَفْتَهَا (أُمُّ عَلِيٍّ)، وَاجَهْتُهَا بِالْأَمْرِ بِطَرِيقَةِ الْوَاثِقِ الَّذِي يَمْلِكُ الدَّلِيلَ وَالشُّهُودَ، وَأَنْكَرَتْ فِي الْبَدَايَةِ، فَأَخْبَرْتُهَا أَنَّ ابْنَهَا مَنْ سَيَتَحَمَّلُ عَاقِبَةَ فِعْلِهَا، وَوَعَدْتُهَا فِي حَالَةِ الْإِعْتِذَارِ بِأَنَّ الْأَمْرَ لَنْ يَصِلَ لِلشُّرْطَةِ وَيَبْقَى الْأَمْرُ

بَيْنَ الْأَطْرَافِ الْمَعْنِيَّةِ فَقَطْ، بَعْدَ تَرَدُّدٍ وَافَقَتْ، وَلَكِنَّنِي فُوجِئْتُ بِهَا بَدَلًا مِنَ الِاعْتِذَارِ تُحَاوِلُ مُهَاجَمَةَ السَّيِّدِ (شَاكِرَ) وَكَانَ مَا كَانَ.

* * *

14- الْخِتَامُ

- سَيِّدُ (عَادِلَ).

رَفَعَ (عَادِلٌ) نَظَرَهُ عَنِ الْأَوْرَاقِ الَّتِي يَتَفَحَّصُهَا أَمَامَهُ، وَأَلْقَى نَظْرَةً عَلَى ظَهْرِهَا تَسَاؤُلًا إِلَى مُسَاعِدَتِهِ، الَّتِي أَجَابَتِ التَّسَاؤُلَ:

- هُنَاكَ سَيِّدَةٌ تُصِرُّ عَلَى مُقَابَلَتِكَ شَخْصِيًّا لِأَمْرٍ خَاصٍّ وَالْآنَ.

كَانَ مُنْهَمِكًا فِي دِرَاسَةِ قَضِيَّةٍ مُهِمَّةٍ، وَلَا يُرِيدُ مَا يُنْغِصُ تَفْكِيرَهُ، لِذَلِكَ حَاوَلَ الْبَحْثَ عَنْ حِيلَةٍ لِلتَّهَرُّبِ، سَأَلَ:

- مَاذَا تُرِيدُ؟ أَلَمْ تُخْبِرْكِ بِشَيْءٍ مَا؟

ارْتَدَتْ هَيْئَةَ مَنْ يَقُولُ أَمْرًا مُهِمًّا، ظَهَرَ الْجِدُّ عَلَى وَجْهِهَا، خَفَتَ صَوْتُهَا وَمَالَتْ نَحْوَهُ، وَخَرَجَ صَوْتُهَا يَفِحُ بِالتَّشْجِيعِ وَالنَّصِيحَةِ:

- لَمْ تُخْبِرْنِي، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّهَا جَاءَتْ بِأَمْرٍ مُهِمٍّ، فَهِيَ تَحْمِلُ مِلَفًّا ضَخْمًا بَيْنَ يَدَيْهَا.

مِلَفًّا ضَخْمًا! هَذَا لَهُ أَلْفُ احْتِمَالٍ، وَلَيْسَ بِالضَّرُورَةِ مَا تُفَكِّرُ فِيهِ مُسَاعِدَتُهُ، لَنْ يُضِيرَهُ لِقَاؤُهَا، أَشَارَ بِكَفِّهِ، قَالَ:

- لِنَرَ مَا عِنْدَهَا، اِسْمَحِي لَهَا بِالدُّخُولِ.

وَدَخَلَتْ.. وَأَصِفُ لَكَ - عَزِيزِي الْقَارِئُ - تِلْكَ السَّيِّدَةَ، فَلَا يُمْكِنُ الِاعْتِمَادُ عَلَى (عَادِلٍ) فِي هَذِهِ الْجُزْئِيَّةِ، فَكُلُّ مَا رَآهُ مِلَفًّا ضَخْمًا يَجُرُّ خَلْفَهُ شَخْصًا مَا، فَأَقُولُ أَنَّهَا جَمِيلَةٌ.. جِدًّا، وَرُبَّمَا أَكْثَرُ جَمَالًا مِنْ (حَسْنَاءَ) وَلَكِنْ تَبْقَى الْأَخِيرَةُ تَتَمَيَّزُ بِشَيْءٍ مَا، شَيْءٍ يَنْبُعُ مِنْ أَعْمَاقِهَا.. مِنْ رُوحِهَا..

أَشَارَ لَهَا (عَادِلٌ) بِالْجُلُوسِ، وَهُوَ يُرَحِّبُ بِهَا، جَلَسَتْ وَالِابْتِسَامَةُ تَزِيدُهَا جَمَالًا، قَالَتْ:

- لَقَدْ أَوْصَانِي بِكَ السَّيِّدُ (شَاكِرَ) كَثِيرًا، وَأَصَرَّ عَلَى مَجِيئِي بِنَفْسِي لِلِقَائِكَ.

السَّيِّدُ (شَاكِرَ)! هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ شَدَّتَا انْتِبَاهَهُ أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، مُنْذُ مَا حَدَثَ وَهُوَ يَتَجَنَّبُ السَّيِّدَ (شَاكِرَ)، وَيَتَفَادَى أَيَّ طَرِيقٍ تُؤَدِّي إِلَيْهِ، رَغْمَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَقُومُ بِبَعْضِ أَعْمَالِهِ، أَخْفَى ذَلِكَ وَسَمَحَ لِابْتِسَامَةٍ شَاحِبَةٍ أَنْ تَطْفُوَ عَلَى وَجْهِهِ، قَالَ:

- مَرْحَبًا بِكِ وَبِالسَّيِّدِ (شَاكِرَ)، كَيْفَ يُمْكِنُنِي مُسَاعَدَتُكِ؟

نَهَضَتْ وَوَضَعَتِ الْمِلَفَّ الضَّخْمَ فَوْقَ الْأَوْرَاقِ أَمَامَهُ، وَهِيَ تَقُولُ:

- بِهَذَا.

وَعَادَتْ لِمَكَانِهَا وَهِيَ تَقُولُ:

- لَقَدِ اسْتَلَمْتُ نَصِيبِي مِنْ أَعْمَالِ الْمَرْحُومِ وَالِدِي، وَأُرِيدُ أَنْ أَبْدَأَ بَدَايَةً جَدِيدَةً، مَعَ أَشْخَاصٍ أَثِقُ بِهِمْ وَيَمْلِكُونَ الْأَخْلَاقَ وَالْمَهَارَاتِ الْكَافِيَةَ لِإِدَارَةِ أَعْمَالِي، وَلَقَدْ أَوْصَانِي السَّيِّدُ (شَاكِرَ) بِكَ كَثِيرًا، كَثِيرًا جِدًّا.

وَأَطْلَقَتْ ضَحْكَةً صَغِيرَةً وَهِيَ تُرْدِفُ:

- حَتَّى أَنَّنِي حَسِبْتُ أَنَّهُ يَحْصُلُ عَلَى عُمُولَةٍ عَنْ كُلِّ عَمِيلٍ يَأْتِي بِهِ إِلَيْكَ.

انْتَزَعَ ضَحْكَةً صَغِيرَةً مِنْ أَرْضِ الْمُجَامَلَاتِ، وَفَتَحَ الْمِلَفَّ وَهُوَ يَقْفِزُ مِنْ صَفْحَةٍ إِلَى صَفْحَةٍ، كَانَ ضَخْمًا.. كَثِيرًا.. مُتَنَوِّعًا.. يُعِدُّهُ بِعَمَلٍ كَثِيرٍ.. جِدًّا.. وَقَدْ يَحْتَاجُ إِلَى تَعْيِينِ مُسَاعِدٍ لَهُ، وَبَعْضُهُ لَهُ طَبِيعَةٌ خَاصَّةٌ، هُوَ لَمْ يَتَخَصَّصْ

بَعْدُ فِي مَجَالٍ مُعَيَّنٍ، لِذَلِكَ يَبْقَى الْبَابُ مَفْتُوحًا لِجَمِيعِ الِاخْتِيَارَاتِ، أَغْلَقَ الْمِلَفَّ.. نَظَرَ إِلَى السَّيِّدَةِ، قَالَ:

- سَيِّدَةٌ..

وَاكْتَشَفَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ اسْمَهَا وَأَنَّ مُسَاعِدَتَهُ لَمْ تُخْبِرْهُ بِهِ، وَأَدْرَكَتِ السَّيِّدَةُ ذَلِكَ، قَالَتْ بِسُرْعَةٍ:

- الْآنَسَةُ (حَنَانَ).

هَزَّ رَأْسَهُ لِيُوحِيَ بِتَعْبِيرٍ مَا، لَا يَعْرِفُهُ هُوَ نَفْسُهُ، قَالَ:

- آنسَةُ (حَنَانَ)، أَحْتَاجُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِدِرَاسَةِ هَذَا الْمِلَفِّ قَبْلَ أَنْ أُعْطِيَكِ رَأْيِي.

أَظْهَرَ وَجْهُهَا رَفْضًا لَطِيفًا، قَالَتْ:

- أَظُنُّ يَوْمًا وَاحِدًا يَكْفِي.

لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ظَهَرَتِ ابْتِسَامَةٌ مِنْ أَعْمَاقِهِ، قَالَ:

- يَوْمَانِ، وَلَنْ يَقْبَلَ أَحَدٌ بِأَقَلَّ مِنْ هَذَا.

نَهَضَتْ وَالِابْتِسَامَةُ عَلَى وَجْهِهَا، قَالَتْ:

- حَسَنًا، يَوْمَانِ إِذًا.

صَافَحَتْهُ وَسَارَتْ نَحْوَ الْبَابِ، وَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ كَأَنَّهَا تَذَكَّرَتْ شَيْئًا مَا، قَالَتْ:

- سَيِّدُ (عَادِلَ).

رَفَعَ رَأْسَهُ عَنِ الْأَوْرَاقِ لِيَنْظُرَ إِلَيْهَا، وَاكْتَفَى بِعَيْنَيْهِ تَتَسَاءَلَانِ، قَالَتْ وَالْبَسْمَةُ وَالضَّحْكَةُ تَتَنَازَعَانِ وَجْهَهَا:

- لَقَدْ نَسِيتُ أَمْرًا أَوْصَانِي بِهِ السَّيِّدُ (شَاكِرَ) بِشِدَّةٍ أَيْضًا.

مِنْ جَدِيدٍ أَرَاحَ لِسَانَهُ وَتَرَكَ عَنَاءَ التَّسَاؤُلِ إِلَى مَلَامِحِ وَجْهِهِ، فَأَكْمَلَتْ وَالْغَلَبَةُ لِلضَّحْكَةِ:

- يَقُولُ لَكَ لَا تَدَعِ الْقَضَايَا الَّتِي قَدَّمْتُهَا أَنَا لَكَ تُلْهِيكَ عَنِ الْقَضِيَّةِ الرَّئِيسِيَّةِ الَّتِي قَدَّمَهَا هُوَ لَكَ، انْظُرْ إِلَيْهَا جَيِّدًا..

أَمْسَكَت يَدَهُ بِجَبْهَتِهِ تَعْتَصِرُهَا.. قَضِيَّةٌ رَئِيسِيَّةٌ قَدَّمَهَا إِلَيْهِ.. السَّيِّدُ (شَاكِرَ) أَسْنَدَ لَهُ عِدَّةَ قَضَايَا تَخُصُّ أَعْمَالَ ابْنِهِ.. أَيُّهُنَّ الْقَضِيَّةُ الرَّئِيسَةُ الَّتِي تَتَكَلَّمُ عَنْهَا الْآنَسَةُ؟..

لَا أَظُنُّهُ سَيَعْرِفُ الْقَضِيَّةَ الْمَعْنِيَّةَ.. فِي الْمُسْتَقْبَلِ الْقَرِيبِ عَلَى الْأَقَلِّ.. بَدَأْتُ أَشُكُّ فِي مُسْتَقْبَلِهِ كَمُحَامٍ نَاجِحٍ..

* * *

هَذِهِ هِيَ قَضِيَّةُ أَوْ مَسْأَلَةُ "جَمِيلَةِ الْجَمِيلَاتِ"، كُنْتُ أَرْغَبُ فِي أَنْ أَبْدَأَ مَعَكُمْ بِقَضِيَّةِ "بَيْعٍ" لِغَرَابَتِهَا، أَوْ قَضِيَّةِ "خُصُوصِيَّةٍ" لِطَرَافَتِهَا، وَلَكِنَّنِي أَعَدْتُ النَّظَرَ وَقَدَّمْتُ لَكُمْ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ رَغْمَ بَسَاطَتِهَا، لِأَنَّنِي أَعْتَزُّ بِهَا كَأَوَّلِ مَسْأَلَةٍ تَأْتِينِي أَنَا وَتَكُونُ مِلْكًا خَالِصًا لِي، بَدَلًا مِنَ الْقَضَايَا الَّتِي كُنْتُ فِيهَا شَرِيكًا صَغِيرًا أَوْ مُسَاعِدًا لِجَدِّي، لَا رَيْبَ أَنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِيهَا مُتْعَةً مَا.

وَنَأْتِي لِأُسْلُوبِ الْكِتَابَةِ، هَلْ أَعْجَبَتْكُمْ طَرِيقَتِي فِي الْكِتَابَةِ أَمْ لَا؟ (حَسَنٌ) يَقْتَرِحُ وَيُقَدِّمُ نَفْسَهُ كَاتِبًا لِتِلْكَ الْمَسَائِلِ وَالْقَضَايَا، نَعَمْ (حَسَنٌ) هُوَ خَرِيجُ قِسْمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْجَامِعَةِ، مَاذَا أَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُقِنَا لِيَعْمَلَ سَاعِيًا؟ وَمَاذَا غَيْرُ

الْأَقْدَارِ وَالْأَرْزَاقِ! عُمُومًا جَدِّي رَفَضَ بِاعْتِبَارِ هَذِهِ الْأُمُورِ "أَسْرَارَ نَاسٍ" وَ"أَنَّ مَا نَقُومُ بِهِ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى"، (حَسَنٌ) اقْتَرَحَ تَغْيِيرَ الْأَسْمَاءِ وَالْأَمَاكِنِ وَإِخْفَاءَ التَّفَاصِيلِ الْحَسَّاسَةِ، وَلَكِنَّ جَدِّي أَصَرَّ عَلَى رَفْضِهِ، بِخِلَافِي أَنَا، سَأَنْشُرُ هَذِهِ الْمَسَائِلَ مَعَ الْحِفَاظِ عَلَى خُصُوصِيَّةِ أَصْحَابِهَا، وَاحْتِرَامِ حُقُوقِهِمْ.

حَسَنٌ يُقَدِّمُ نَفْسَهُ كَرَاوٍ، وَيَقُولُ أَنَّ أَكْثَرَ الْقَصَصِ وَالرِّوَايَاتِ الْبُولِيسِيَّةِ يَقُومُ صَدِيقُ الْبَطَلِ - مَعَ تَحَفُّظِي عَلَى كَلِمَةِ "بَطَلٍ" - بِرِوَايَةِ الْقِصَّةِ وَلَيْسَ الْبَطَلُ نَفْسَهُ، هَذَا يُفْسِحُ مَجَالًا لِلْغُمُوضِ وَالْمُفَاجَأَةِ وَالْإِثَارَةِ، وَهُوَ - أَيِ (حَسَنٌ) - سَيَحْرِصُ عَلَى اخْتِيَارِ طَرِيقَةِ سَرْدٍ مُثِيرَةٍ مَعَ إِعَادَةِ تَرْتِيبِ الْأَحْدَاثِ لِإِضَافَةِ الْغُمُوضِ وَالْإِثَارَةِ.

لَا أَعْلَمُ.. حَقًّا لَا أَعْلَمُ، هَلِ الرِّوَايَةُ الْقَادِمَةُ سَتَكُونُ بِقَلَمِي أَمْ بِقَلَمِ (حَسَنٍ)؟..

*** * ***

تَنَاوَلْتُ الْبِطَاقَةَ مِنْ (حَسَنٍ)، وَأَنَا جَالِسٌ فِي حَدِيقَةِ الْفُنْدُقِ بِرِفْقَةِ الْمُدِيرِ النَّهَارِيِّ السَّيِّدِ (جَمَالٍ) وَقْتَ الضُّحَى..

نَظَرْتُ إِلَيْهَا، كَانَتْ دَعْوَةً إِلَى حُضُورِ حَفْلِ زَفَافِ الْآنِسَةِ (حَسْنَاءَ) إِلَى...

لَمْ يُفَاجِئْنِي أَنَّ الِاسْمَ لَمْ يَكُنِ اسْمَ (عَادِلٍ) بَلْ شَخْصًا آخَرَ، لَيْسَ هَذَا غَرِيبًا، بَلْ يُمْكِنُ الْقَوْلُ أَنَّهُ أَمْرٌ مُتَوَقَّعٌ، شَخْصِيَّةُ (حَسْنَاءَ) وَالَّتِي تُتِمُّ جَمَالَهَا وَتَجْعَلُهُ

فَرِيدًا، مَا كَانَتْ لِتَقْبَلَ الزَّوَاجَ مِنْ شَخْصٍ حَاوَلَتْ أُمُّهُ قَتْلَ جَدِّهَا، هِيَ تُسَامِحُ وَتَغْفِرُ.. لَكِنَّهَا حَتْمًا لَا تَنْسَى.. هَلْ هَذِهِ هِيَ حَقِيقَتُهَا؟ أَمْ مَا أَتَخَيَّلُهُ أَنَا عَنْهَا؟

رَفَعَ السَّيِّدُ (جَمَالٌ) رَأْسَهُ عَنِ الْأَوْرَاقِ الَّتِي أَمَامَهُ، نَظَرَ إِلَيَّ.. إِلَى الْبِطَاقَةِ.. سَأَلَ:

- مَاذَا هُنَاكَ؟

أَجَبْتُهُ بِكَلِمَتَيْنِ:

- دَعْوَةُ زَفَافٍ.

هَزَّ رَأْسَهُ وَعَادَ إِلَى أَوْرَاقِهِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ وَصَوْتُهُ يَأْتِينِي مِنْ وَرَاءِ خَوَاطِرِي.. دَاعَبْتُ ذَقْنِي بِطَرَفِ الْبِطَاقَةِ وَطَيْفُ (حَسْنَاءَ) يَمُرُّ بِخَاطِرِي، وَأَتَسَاءَلُ عَنْ كُنْهِ عَرِيسِهَا وَطَبِيعَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، كَيْفَ يَكُونُ مَنْ يُقْتَرَنُ بِـ (حَسْنَاءَ)؟.. بَلْ كَيْفَ قَبِلَ جَدُّهَا السَّيِّدُ (شَاكِرَ) أَمْرَ زَوَاجِهَا؟.. وَهُوَ الَّذِي لَا يَرَى فِي الْعَالَمِينَ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا!.. كُلُّ مَا يَرَاهُ أَنَّهَا حَفِيدَتُهُ الْمَحْبُوبَةُ وَ.. جَمِيلَةُ الْجَمِيلَاتِ..

تَمَّتْ بِحَمْدِ اللهِ

بِيعَ

كانت صورتي هناك، فوق منضدة المزاد، ورجل المزاد يفتتح جولة جديدة من المزاد بقوله:

- فؤاد عبد الواحد، القيمة خمسة ملايين دولار، المطلوب مئتا ألف دولار، هل أسمع مئتي ألف دولار؟

صورتي.. واسمي! لو شككت في الصورة لحظة، فكيف أشك في الاسم الذي يطابق اسمي.

أخذت الأصوات ترتفع بالمزايدات، وأنا أرقب ذلك من الخلف بذهول، وعيِّني تنتقل بين المزايدين، لا تترك الذهول والذهول لا يتركها، حتى ارتفع صوت رجل المزاد بكلمة انتهاء الجولة:

- بيع، رقم عشرين.

نظرت لمن قام بشرائي، لم أر سوى ظهره، ثم شق طريقه وسط الزحام مُتوِّجها للمنضدة في طرف القاعة ليقوم بكتابة أشياء لا أعلم كنهها ثم ينصرف، كان المزاد على صورتي قِد بلغ مليونا ومئتي ألف دولار، ورأيت رجل المزاد يلقي بصورتي جانبا كالمعتاد ويأتي بأخرى.

عالم جديد

العودة إلى الصفر

نظر (يونس) إلى الأوراق، وعاد يقلبها، سأل :

- ولماذا يثير هذا الأمر قلقك؟

وضع السَيِّد (هلال) مرفقه على طرف المكتب، أجاب :

- الرجال!

الاستغراب ظهر على وجه (يونس) وفي كلماته وهو يكرر :

- الرجال!

- نعم، الرجال، لا أشعر بالارتياح لهم، وجوههم لا تبعث الطمأنينة في النفس ، كلامهم خشن قليل، ولا يعرفون شيئًا عن تلك الرسومات، وحين نطلبهم إيضاحًا حول شيء ما في الرسوم، يسألوننا الانتظار ، ويعودون بجملة واحدة "أفعلوها كما في الرسم" ، ونحن نجهل تمامًا ما نصنعه لهم..

جاء صوت (موسى) بضيق خلقه المعهود ، يقول :

- دعني أرى تلك الرسوم.

مد (يونس) يده بالأوراق إليه من فوق كتفه، فانتزعها (موسى) بغلظة، والأوّل يفكر فيما قاله السَيِّد (هلال)، أخذ يدعك صُدغه بأطراف أصابعه ، سأل :

- ألم تحاول أن تخمن من الرسومات الأخرى شيئًا ما، هذه الرسومات ليست كاملة، وفي بعض الرسومات تبدو فجوات و..

قاطعه السَيِّد (هلال) بانتصار.. بهتاف.. :

- نعم، هذا بيت القصيد، الفجوات، لقد لاحظت الفجوات، إنها تجعل ما نقوم به بلا فائدة ولا معنى، الدائرة الكهربائية يجب أن تكون متصلة لتقوم بعملها.

زحف القلق إلى (يونس) ، سأل :

- ألم تخبرهم بذلك؟

دفع القنوط السَيِّد (هلال) إلى هز رأسه ، قبل أن يثب إلى وجهه وينساب إلى فمه، وخرج مع الكلمات يسيل منها :

- بلى، سألتهم وعادوا بنفس الإجابة "أفعلوها كما في الرسم".

استرجع (يونس) الرسوم في ذاكرته، قبل أن يقول :

- هل تعلم؟

أدرك السَيِّد (هلال) من نبرة الصوت أنَّ لا إجابة عليه، فواصل صمته و (يونس) يردف :

- أظنهم يملكون ما يضعونه في الفجوات لتكتمل، السؤال هو...

- هذه آلة زمن.

جاءت كلمات (موسى) لتقاطعه، وخُيّل للرجلين أنهما لم يسمعا ما قاله جيدًا، فهتفا معًا :

- ماذا ؟

عاد (موسى) يتكلم، وكأنه يقول مسلمة أو بديهة من البديهيات، قال.. ببرود .. بضجر.. :

- أقول هذه آلة زمن.

* * *

هزَّ (عبد الرازق) رأسه، قال:

- لن يفلح.

والتفت إلى (بهاء) وهو يردف:

- جميعهم لن يفلح، في الشام أعلنوا الخلافة، وأنها دار الإسلام في العالم الجديد، وفي روما أعلنت الكنيسة عودة حكم البابا ورجال الدين، وأنها تمثل المسيحيين والنصارى في العالم الجديد وتطالبهم بالخضوع لها، وعلى أنقاض الجزء الشمالي من فارس وأراض شرق دجلة أعلنت بقايا القبائل الصينية دولة العرق الصيني، ونبذت الماركسية والإلحاد، واحترام العقيدة والتقاليد البوذية والطاوية والكونفوشيوسية، في أجزاء فارس الجنوبية وباكستان من جهة الغرب وعُمان القبائل الهندية بخليطها من الأديان المختلفة، والقبائل الإفريقية باختلاف معتقداتها في منطقة القرن الإفريقي حتَّى جنوب مصر القديمة بالإضافة إلى شواطئ اليمن وشبه الجزيرة العربية، السيد (جمال) والسيد (سامح) يسابقان الزمن للحفاظ على مصر القديمة قبل أن تضيع ملامحها، جميعهم يحاول الحفاظ على دينه أو عرقه أو لونه أو عالمه القديم أو كُلّ هذا معا، وفي نفس الوقت يحاول السيطرة على العالم الجديد، وهو يستفيد من خوف الناس والشعور بالذنب

المسيطر عليهم لما حدث لعالمهم، لينضووا تحت رايته، وتأكد تمامًا، لن يفلح أحدهم في تحقيق هدفه.

رسمت الدهشة ملامح (بهاء)، قال:

- لن يفلح أحدهم! لماذا؟

كان الأسف في كل شيء من (عبد الرازق)، في هزة رأسه.. في ملامح وجه.. في تهدل قامته.. في صوته وهو يجيب:

- لأنَّ ما حدث أشبه بطوفان (نوح) عليه السلام، هذه بداية جديدة لعالمنا، عالم ينشأ من جديد، عالم يختلف حتمًا عن عالمنا القديم، لن استغرب إذا انقرض العرب والصينيون والأوربيون لتظهر بدلًا منهم أعراقًا جديدة، أو يصبحون أقلية في العالم الجديد، ما يحاوله هؤلاء مصيره الفشل.

ورفع نظره إلى (بهاء)، أردف:

- هل تعلم أنَّ بعض القبائل حاولت العودة إلى نهر النيل، لم تقترب من مدن الموت أو المدن القديمة، بل اختارت أماكن بعيدة تظن أنَّها آمنة، هل تعلم ماذا حدث؟

أجاب نفسه قبل أن تنفرج شفتا (بهاء) بالسؤال:

- لقد فرت جميعًا، لم تكمل أسبوعا واحدا، الأهوال التي يحملها النيل وما حوله جعلها تعود إلى سكنى الجبال، هل تعلم أنني ذهبت بأسرتي لأسكن في الشام، وفررت منها بعد شهور قليلة، رُبَّما نجت الشام من الحرب الطاحنة والأعاصير، ولكنها حتما لم تنج من آثارها، الحياة هناك قطعة من الجحيم، كل شيء حصص، حصص للماء، حصص للطعام، الانتقال بين المناطق

صعب جِدًّا، يُمنع الاقتراب من الأنهار، العذاب حين تصاب بعرض بسيط كالكحة، يجب أنْ تبقى أنت ومن معك في البيت لا تغادرونه ويأتونك بحصة الطعام والماء، وتبقى حتَّى يسمح الطبيب أو المختص لكم بالخروج، الحياة هنا في بلداتنا المحصنة في الجبال أفضل من الحياة في الشام ألف مرة، صحيح أنَّ الانتقال بين البلدات صعب ولا توجد طرق وتحتاج أمين البلدة معك، ولكن لا توجد حصص للطعام ولا للماء، والإصابة بمرض لا تستوجب الخوف منك ما لم تكن قد غادرت البلدة.

*** * ***

مالت طائرة (الكاملة) بنعومة مندفعة في الفضاء الرحب لسماء سيناء في وقت الضحى، واستمتعت هي بخلو السماء من المناطيد والطائرات، تشعر بأنها وحيدة وسيدة هذا العالم، لا يزعجها شيء وصوت المحرك يأتيها خافتا، كأنَّه يخجل من تحطيم الهدوء والسكون من حولها..

وتركت لخواطرها العنان وشمس بدايات الخريف تطل عليها عبر زجاج النافذة من الشرق، كانت تجد الطمأنينة والسكينة فِي مغادرة بلدة (السلامة)، تأخذ طائرتها وتحلق بعيدًا.. بعيدًا عن بلدتها.. بعيدًا عن كل شيء.. في بلدتها الصورة معكوسة، هي من تبدو غريبة.. مختلفة.. شاذة.. والآخرون؟.. مألوفون.. متشابهون.. أسوياء.. يتفادون النظر إليها.. الكلام معها.. تشعر أنَّها منبوذة.. ومن تمسك به ينظر إليها ترى في عيونه الأسى والحزن.. اسمها (الكاملة).. يصفونها بالكاملة.. وتبدو في

أعينهم ناقصة.. مشوهة.. تراهم أهلها.. ويرونها غريبة و.. دوى انفجار إلى يسار الطائرة.. انفجار هزَّ الطائرة هزًّا.. ودوى انفجار آخر.. وتلاه الثالث..

*** * ***

أنصت (كنان) بانتباه، وأدرك ما يعنيه قائد الحرس، هناك إيقاع.. إيقاع خافت.. يشبه الإيقاع في المدينة القديمة ولكن يختلف في الأداة، إيقاع المدينة القديمة كان يبدو أنَّه يصدر من آلة موسيقية أو أكثر، أما هذا فيبدو أنَّه يصدر من طبل.

أحكم (كنان) يده على سلاحه، وهو يجيل نظره في المكان حوله، بحذر.. بخفوت.. سأل:

- هل تظن أنهما نفس الشيء؟

أشار قائد الحرس للشبان الآخرين بالاستعداد وهو يزيل صمام الأمان من بندقيته، ويمسح ببصره المحيط والجبال من حوله، قال:

- لم لا؟

صار صوت الإيقاع مسموعًا للجميع، وظهر التوتر على الحرس الآخرين، قال أحدهم بعصبية:

- ما هذا؟

وضع (كنان) سبابته على شفتيه مشيرًا له وللجميع بالصمت، وهو يواصل الدوران حول نفسه، وكأنها عدوى أصابت الجميع، الكل أشهر سلاحه وأخذ

يدور حول نفسه، والإيقاع يرتفع أكثر فأكثر، وأضرم التوتر ناره، حتَّى لتسمع خفقات قلوبهم تمتزج مع الإيقاع، وبدت الجبال من حولهم عماليق تتحين الفرصة للإنقضاض عليهم، و..

- هناك..

انطلقت الصرخة من أحد الحراس، ومن بندقيته سيل من الرصاص، والتفت الجميع..

ورغم أنَّ قائد الحرس و(كنان) رأيا المشهد من قبل، لكن مشاعرهما كأنها المرة الأولى..

الشجيرات.. الصخور.. الرمال.. الجبال.. من أمامهم تهتز وتبدو كعجينة او بالون يحاول شيء ما الخروج منها..

* * *

وضع (منير) مرفقيه على السور الحديدي، ابتسم.. تكلم والسخرية تقطر من كلماته:

- إذًا أنت تضع - طوال الوقت - حول خاصرتك حزامًا ناسفًا، في انتظار اللحظة التي أمسك فيها بك وبرفاقك كي تفجره!

هزَّ (عبد الرازق) رأسه بالنفي، بتأني قال :

- لا، أنني أحمله طوال الوقت لأن طبيعة عملي تفرض مخاطر لا حصر لها، لهذا أحمله تحسبا لها.

هزَّ (منير) رأسه بتؤدة.. بتفهم.. مطَّ شفتيه حتَّى بدت شبيهة بنوع من الأسماك.. نظر إلى قدميه والتفكير على تضاريس وجهه.. وأُستغرق في النظر إلى قدميه، قبل أن يرفع بصره إليهم بتؤدة.. جعل من عيني (عبد الرازق) هدفًا لعينيه.. بهدوء جلبه من وادي الطمأنينة، قال :

- فجره.

كانت المفاجأة من نصيب (عبد الرازق) ، ووثبت الدهشة إلى وجهه وهو يهتف :

- ماذا ؟!

تداعت الصرامة من كل ذرة في كيان (منير) ، وهبت الشراسة تؤازرها، فانطلقت الكلمات من بين شفتيه قوية حازمة متكبرة متجبرة :

- أقول فجر حزامك الناسف فينا..

وأوشكت كلماته أن تضيع بين جحافل الشراسة المندفعة من بين شفتيه ، وهو يردف :

- الآن..

* * *

▪️ ◾ ⬛ ➡️ **للكاتب إبراهيم محمد** ⬅️ ⬛ ◾ ▪️

الغَيْهَبُ

حين تغْشى الخُرافة الحقيقة
ويصير الواقع ضربًا من الخيال

1 - بدايات مُخِيفة
2 - النور والظلام
3 - العَهْد الجديد (بمشيئة الله في المستقبل القريب)

الرِحْلة

رِحْلة إلى حدود العالَم.. لمعرفة الحقيقة
وإجابة سؤال.. أكروية هي أم مسطحة

1 - الرحيل ج1
2 - القصَّابون ج2
3 - وادي الصمت ج1 (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
4 - الرَاهِب ج2

عالم جديد

عالم ينهض من رماد حرب طاحنة
يبني حاضره.. وينظر مستقبله

1 - النهوض
2 - العودة إلى الصفر (بمشيئة الله قريبًا)
3 - أوار الماضي
4 - العائدون ج1
5 - طلائع الشرِّ ج2

البُسْتان

روايات تبحث لها عن ملجأ

1 - رواية خلاعيَّة
2 - الكتلة السوداء
3 - مملكة الأحزان (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
4 - الله والشيخ والشيطان وأنا
5 - طريق الخُلُود
6 - ثلاثون من المائة
7 - ألف ألف إله
8 - فجوة في جدار المُستقبل

الفُنْدُق

قضايا وتحقيقات

1 - جميلة الجميلات
2 - بِيعَ (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
3 - خصوصية
4 - جُثَّة لا تحب القبور
5 - ساعة تُنادي النهاية

ما وراء النهاية

مع كل نهاية بداية جديدة

1 - كنوز الملك سليمان
2 - الرجل الخفي (بمشيئة الله في المستقبل القريب)
3 - رحلة إلى مركز الأرض
4 - جزيرة الكنز

ترجماتي

الأدب بقلمي

1 - نهاية النهر (بمشيئة الله في المستقبل القريب)

Wordsonsnowtablet@gmail.com
Wordsonsnowtablet



إبراهيم محمد



جميلة الجميلات

جد يحب حفيدته بجنون.. ورجل غامض يظهر.. يختفي ليأتي آخر.. الحفيدة تسعى لقتل جدها.. معضلة هذه القضية أنه لا توجد دوافع.. أو يمكن القول لا توجد دوافع تستحق القتل.. الجد يفر إلى الفندق.. يبحث عن إجابات.. ما علاقة هذا كله بالفندق؟ ..



1

الفُنْدُق

قضايا و تحقيقات

الرواية القادمة / بيْع